الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

ص.ب: ٤١٢٣ بيروت – تلفون: ٢٣٢٨٣٢

AL-ADAB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban
B. P. : 4123 - Tél. : 232832

صاحبها ومديرها المسؤول
الدكتور سهيل ادريس
Propriétaire - Directeur
SOUHEIL IDRISS

سكرتيرة التحرير
عايدة مطرجي ادريس
Secrétaire de rédaction
AIDA M. IDRISS

*

الادارة

شارع سوريا – راس الخندق الغميق – بناية مروة

الاشتراكات

في لبنان: ١٢ ليرة ■ في سوريا ١٥ ليرة
في الخارج: جنيهان استرلينيان او ستة دولارات
في أميركا: ١٠ دولارات ■ في الارجنتين ١٥٠ ريالا
الاشتراكات الرسمية: ٢٥ ليرة لبنانية او ما يعادلها

تدفع قيمة الاشتراك مقدما
حوالة مصرفية او بريدية

الاعلانات
يتفق بشأنها مع الادارة

كان اهل الحي يتناقشون ويتجادلون ويتشاتمون .. ويأخذ بعضهم احيانا بخناق بعض، حين انطلق صوت النذير، فالعدو الذي اقتحم عليهم الحي منذ خمسة عشر عاما، وانتزع منهم بقعة من اقدس بقاعه، واحتلها وحصنها بعد ان اجلى عنها اهلها، وراح يهددهم منها، ويمعن في تحديهم والاستخفاف بهم واذلالهم ... هذا العدو الذي لم يعرف تاريخ العداوات اقسى منه ولا اجرأ على الباطل، يتوعدهم اليوم بغزو مقنع جديد يستهدف مياه الحي هذه المرة، ويجعل من اسرائيل اسرائيلين. في سعة المساحة وحجم السكان ..

اصاخ اهل الحي باسماعهم، واصابهم وجوم. وانتحى فريق منهم ناحية، وراحوا يتباحثون في الخطر الداهم. لكن العراك ظل مستمرا، وكانه نقولب، فلا امل في خروجه من قوالبه.

في هذه اللحظة، ارتفع صوت كبيرهم، داعيا سائر كبار الحي الى التسامي على الخلافات، وتناسي الاحقاد، ووقف الصراع الداخلي لمعالجة الخطر الخارجي. وبدأ بنفسه، فخفض سلاحه، واسكت انصاره

ولبى الرؤساء والملوك العرب النداء، دون استثناء. فالدولة الداعية الى المؤتمر هي كبرى الشقيقات، وموضوع المؤتمر هو اكبر قضية.

لقائل ان يقول: لكن الخطر الاسرائيلي كان هناك دائما، فكيف اباح العرب لانفسهم ان يختلفوا وان يتنازعوا بضع سنين.. ولم يكفوا الا الان؟

النضال العربي في مرحلة جديدة

بقلم محمد النقاش

وجوابنا ان الجانب الاكبر من خلافات العرب، على الاقل في الشرق، انما كان بسبب هذا الخطر الاسرائيلي نفسه. فهو الذي كان حافزها الاول، بل لعله كان بمثابة مفاعل ذري للثورات والانقلابات العربية، وبالتالي للاصطدام بين عقليتين ومدرستين، بلغ احيانا ذروة التفكيك والتحطيم للذرات العربية الفارقة في سبات التدهور.

كان لا بد من القضاء على عقلية الاستسلام والاسترخاء، وخلق عقلية ثورية جديدة، قادرة على مجابهة الدينامية الباغية في اسرائيل، في كل ميدان، في السلم والتخطيط والتنظيم والاقتصاد والدفاع، ومن ثم دحرها والتخلص منها.

ولو لم تكن في شعبنا آثار عميقة من عهود الانحطاط والاستسلام، ولو لم تكن في بعض زعمائنا. وكبرائنا بقايا من القبلية والجاهلية الاولى، ولو لم تكن في كثير من النفوس – نفوس المثقفين احيانا – رواسب من عهود الاستعمار بما فيها من نظريات مضللة بالنسبة الى بيئتنا واوضاعنا، ولولا تدخل اسلوبي منظم معلن حينا مستتر حينا، من جانب الاجانب، لاثمر النضال الثوري العربي، ولما كانت هناك حاجة الى مؤتمر ذروة يؤكد وجود ثلاث عشرة دولة ودويلة عربية عام ١٩٦٤، رغم قيام نواة للوحدة العربية، عام ١٩٥٨، كانت تجربتها ناجحة الى حد كبير.

كانت الثورية العربية على اي حال، قد نجحت في كبح جماح الخطر الاسرائيلي، ووضعته في حالة من الخدر، فلم تخش صراعا داخليا غايته الاولى تقوية الامة العربية وجعلها في مستوى القدرة على محوه من الوجود. لكن الهدف الكبير لم يتحقق، على الرغم مما بذل له. وكانت الطعنة الهائلة، حين وقع الانقسام بين قوى ثورية. فلم يعد الصراع مقتصرا على التقدمية والرجعية، على الوحدوية والانفصال، كانت الضربة هائلة بقيام صراع جديد بين التقدمية والتقدمية او ادعياء

التقدمية ، بين الوجودية والوحدوية او ادعياء الوحدوية .

وفي هذا الوقت بالذات ، تحرك الثعبان الاسرائيلي ، وخرج من خدره ، ليغتنم الفرصة ويفغر فاه من جديد ويشحذ نابه مرة اخرى .

وهنا ، كان على الزعامة العربية الاولى ، ان تتخذ قرارها الخطير. كان عليها ان تختار بين المضي في الصراع الداخلي ، وبين التفرغ للخطر الخارجي .

وقد اختارت الثانية ، لا ارتجالا وعبورا في خطاب كما شاء بعضهم ان يعتقد ، بل بعد تأمل طويل وتفكير ووعي .

ذلك ان اسرائيل حددت للعدوان الجديد موعداً قريبا . وكان لابد للعرب من الرد عليه . ولما كانت المعركة مع اسرائيل ، سواء على الصعيد العسكري او السياسي او الاقتصادي ، تتطلب اكبر حشد من الجهود ، فمن الخير لا بل من الضرورة ، ان لا يضيع اي جهد حربي ، مهما يكن ضئيلا .

زد على ذلك ، ان قضية فلسطين حين يجد الجد ، تبقى بالنسبة الى العرب عامة ، قضية قومية ، اي اكثر فعالية في النفوس من اية قضية اجتماعية ، بمعنى انه اذا وجد عشرة مستعدون للقتال في سبيل الاشتراكية مثلا ، فهناك مائة مستعدون للقتال من اجل فلسطين . بل قضية الوحدة نفسها ، وهي قومية وعلى ما لها من اثر حاسم في قضية فلسطين ، لا تجد من يتجند لها بقدر ما تجد فلسطين مباشرة .

واخيراً ، كان لا بد من توضيح الخطوط ، ووضع النقاط على الحروف . ففي المؤتمر ، يتبين الابيض من الاسود ، ويعرف من المتأهب للزحف ، ومن المتمسك بالتخلف ، الم يعلن الرئيس عبد الناصر بان كل ما سيقال بين جدران المؤتمر ، سيعلن على الملأ ، فتتعرف الجماهير الى اهل العزم واهل النفاق ... وبذلك يغربل الصف العربي ، ويمشي معا اهل العزم وحدهم ، تاركين الاخرين لحساب عسير .. الحساب الاخير .

لكن الجميع دون استثناء ، استجابوا للنداء . وكان ذلك اول نجاح حققه مؤتمر الذروة ، قبل ان يعقد .

وثبت مرة جديدة ، ان هؤلاء العرب المتنافرين المتناحرين ، قد تنطفيء فيهم كل جذوة الا جذوة النخوة والنجدة ، في القضايا القومية المصيرية .

ولسنا مضطرين لان نتهم احدا بالخوف من سخط الشعب ، وغضبة الجماهير . حسبنا ان نؤمن بالضمير العربي ، وبيقظته في ساعات الخطر .

بديهي انه كان على جدول اعمال مؤتمر الذروة العربي ، تحت سقف جامعة الدول العربية ، وسماء الجمهورية العربية المتحدة ، مادة وحيدة ، هي تقرير موقف تجاه اقدام اسرائيل على تحويل مياه نهر الاردن

لكن اشياء كثيرة حدثت على هامش المؤتمر ، وكانت احسن توطئة له. فقد حرص الرئيس عبد الناصر ، وهو رئيس الدولة التي اقترحت على امانة الجامعة توجيه الدعوة ، والتي فيها مقر هذه الجامعة ، حرص على ان يستقبل بنفسه جميع الوافدين من الرؤساء والملوك . وكان اللقاء البهيج ، مع ابهى المراسم ، اول معول في اسوار الجليد القائمة بين القاهرة وبعض الاشقاء .

ومن ثم توالت الاجتماعات ، ثنائية وثلاثية . وسويت في الحال بعض الخلافات ، وقطعت تسوية ما تبقى شوطا لا بأس به . واهم ما جرى خارج المؤتمر ان جميع الدول العربية التي كانت قد قطعت علاقاتها الدبلوماسية فيما بينها ، قررت استئناف هذه العلاقات في اقرب وقت.

اما رئاسة المؤتمر ، فمن حسن الحظ ان العراق كان صاحب الدور في ترؤس مجلس الجامعة . وليس العراق على خلاف مع احد . فاسندت الرئاسة الى المشير عبد السلام عارف ، رئيس الجمهورية العراقية وجرت الامور على خير ما يرام .

ويجب ان لا ندهش للسرعة التي تم فيها الوصول الى مقررات . فالموضوع بتحويل نهر الاردن – قديم ، وقد سبق لدول الجامعة ان درسته من قبل ، على ايدي لجان وهيئات منبثقة عنها ، اعلاها مجلس الدفاع المشترك ، واتخذت بشأنه مقررات ، بقيت جميعا دون تنفيذ .

ويمكن القول ان المؤتمر ، كان تجاه موقفين : اما ان يعلن مقاومة الدول العربية بالقوة لكل عملية تحويل تقوم بها اسرائيل ، واما الافادة من مياه الروافد التي تصب في نهر الاردن ، وبالتالي حرمان اسرائيل من نصف المياه التي كانت تعتزم سرقتها ، وتعريض مخزون طبريا من المياه لمزيد من الملح ، اي بالاختصار توجيه ضربة شديدة الى مشروع اسرائيل الرامي في الحقيقة الى تخصيب صحراء النقب .

ويبدو ان الموقف الاول استبعد منذ اللحظة الاولى . فهذا الموقف ذو مخرج واحد ، هو الحرب . والظهور امام الدول المتعاطفة مع اسرائيل ، بمظهر المعتدي ، اضف الى ذلك انه تسليم لاسرائيل ان تختار هي وحدها ، ساعة المعركة . وفي هذا ما فيه من افضلية لها ..

ومع ذلك ، فربما كان هذا الموقف اقرب تناولا ، واعجل في تصفية المشكلة الاسرائيلية . هذا لو كنا نعيش نحن واسرائيل وحدنا في هذا العالم ، ولم تكن هناك ملابسات ومضاعفات دولية ، قد نعرف كيف تبدأ ، ولا ندري كيف تنتهي . ثم لو كنا على الاخص دولة واحدة بدلا من ثلاث عشرة ... دولة واحدة على الاقل من حول اسرائيل .

وهكذا ، اختير الموقف الثاني . وهو موقف حازم دون تهور ولا تسرع . فقد صبرنا خمسة عشر عاما على وجود اسرائيل غير الشرعي . وليس من مصلحتنا ان نستعجل الامور دفعة واحدة ، لا سيما وامامنا فرص للعمل في المستقبل ، اكثر امانا واحسن ضمانا .

في اقدامنا على تحويل مياه الروافد ، او بعض الروافد – الحاصباني في لبنان وبانياس في سوريا – انما نقوم بعمل شرعي ، يقرنا عليه الحق الدولي . واذا ما تحركت اسرائيل ضدنا ، فستكون هي الموصومة بالعدوان . وذلك مما يجعل تدخل الدول العاطفة على اسرائيل صعبا ، ان لم نقل مستحيلا . كما ان حظنا من النصر في الميدان يكون اوفر ، اذ نكون قد اتخذنا اهبتنا واعددنا العدة في تنظيم قيادتنا المشتركة العامة ، وحددنا نحن ساعة الصفر .

فالقرار الثاني بعد تحويل الروافد هو انشاء هذه القيادة الموحدة. وقد اختير لها ضابط مصري كبير هو الفريق علي علي عامر رئيس اركان القوى المسلحة في الجمهورية العربية المتحدة .

واتخذ المؤتمر قراراً بتنظيم الشعب الفلسطيني . دون ان يحدد معالم هذا التنظيم .

ويبدو انه ترك الامر في ايدي الفلسطينيين اولا ، يتباحثون فيه ، ويخرجونه الى حيز الواقع . وبالفعل بدأ السيد احمد الشقيري مندوب فلسطين لدى جامعة الدول العربية ، بدأ المهمة بجولة في البقاع التي يحتشد فيها النازحون .

ويلوح لنا ان تعاون المملكة الاردنية في تحقيق التنظيم الفلسطيني – وهو ما قبلت به لاول مرة . سيكون ذا اثر فعال في هذا التنظيم .

وما من احد يتجاهل اهمية الدور الذي يمكن ان يؤديه الفلسطينيون في تحرير ديارهم ، سواء في المعترك السياسي الدولي او في ميادين النضال المسلح .

وتتجه الانظار اول ما تتجه الى ايجاد هيئة تمثل الشعب الفلسطيني برمته ، وتستطيع التحدث باسمه ، كما تستطيع استغلال ما لديه من قوى النضال وتنسيق نشاطها مع نشاط القوى العربية الاخرى.

ويقول السيد الشقيري ان انشاء حكومة فلسطينية في قطاع فلسطيني او في المنفى غير وارد .

وبذلك يمكن تحاشي مسألة السيادة على الضفة الغربية او قطاع غزة . والارجح انشاء مكتب سياسي ، يشترك فيه ممثلون لجميع القطاعات الفلسطينية . ولم ينوه السيد الشقيري بوسيلة اختيار اعضاء هذا المكتب . لكن لا ريب ان عملية الانتخاب او الاستفتاء هي اصلح السبل ، لا سيما وان حكومة عمان توافق الان على اجراء مثل هذه العملية في الضفة الغربية .

ان تحويل الروافد وانشاء القيادة الموحدة وتنظيم الشعب الفلسطيني هي الرئيسية في المؤتمر العالي .

اما بقية القرارات ، فليست ثانوية بالطبع ، لكنها ذات طابع تكميلي.

فالمضي في تنقية الجو العربي امر لا مفر منه . اذ كيف يعقل ان تؤلف دول الجامعة صفا واحدا في وجه الخطر الاسرائيلي . وان تبقى صفوفا متعارضة او متجابهة فيما بينها ؟ كيف يعقل ان تحارب القاهرة والرياض جنبا لجنب ضد اسرائيل ـ وكذلك الجزائر والمغرب ـ وتكون احداهما مشتبكة او على وشك الاشتباك مع الاخرى ؟

التضامن العربي على كل صعيد ، على الحدود ، وعلى اجهزة الاعلام ، وفي العلاقات الديبلوماسية .. هذا التضامن بات ضروريا ، وهو يتحقق كما يبدو بسرعة مدهشة .

ثم تأتي مناشدة دول آسيا وافريقيا اولا ، وسائر الدول الحرة المحبة للسلام ، ان تشد ازر العرب في دفاعهم المشروع عن حقهم ، ونضالهم للانتصار على ما يقاسونه من تخلف اقتصادي واجتماعي ، والتأكيد لهذه الدول بأن عملية اسرائيل في تحويل نهر الاردن ، انما هي استجابة لمطامعها التوسعية وزيادة مراكز العدوان فيها ، مع حرمان العرب من مياه تؤدي دورا كبيرا في نهضتهم الانمائية . على ان المؤتمر بعد هذه المناشدة الطيبة ، لم ينس ان يذكر الجميع ، بان الدول العربية ستأخذ بعين الاعتبار موقف كل دولة من دفاعها المشروع ، وتقرر طبيعة علاقاتها السياسية والاقتصادية معها على ضوء هذا الموقف .

وفي هذا اشارة من طرف خفي الى عنصر النفط العربي ، وانزاله الى المعركة ، اذا ما خطر لبعضهم ان ينصر الباطل الاسرائيلي على حساب حقنا ، فيشرب من بئرنا ويلقي فيها الحجارة ...

وينتهي بلاغ المؤتمر بالتشديد على تمسك العرب بميثاق الامم المتحدة وبالسلام والتعايش السلمي ، لكنه يخصص فيقول السلام القائم على الحق والعدل . أما التعايش السلمي فبديهي ان لا يكون ـ ولو لم يشر البلاغ الى ذلك ـ بين اناس آمنين وادعين ومعتدين اثمين دخلوا عليهم عقر دارهم، فاخرجوا منها مليون انسان ، وحلوا محلهم ظلما وعنوة.

اما القرار الاخير ، فهو ان يجتمع الرؤساء والملوك مرة في السنة على الاقل . وبالفعل قرروا موعدا لاجتماعهم المقبل ، وهو شهر آب من هذا العام أي بعد ستة اشهر .

وفي هذا القرار دليل قاطع على ما لمسه المؤتمرون من نجاح مؤتمرهم الاول ، ولا عجب ، فليس كالاتصال الشخصي ، وتبادل الرأي والمشورة عن كثب ، وسيلة للتفاهم والتضامن ، وتبديد الشكوك والغيوم.

***

هذا ملخص لمقررات مؤتمر الذروة العربي الذي عقد في مقر جامعة الدول العربية بالقاهرة ، ما بين ١٣ و١٧ كانون الثاني ١٩٦٤ ، بحضور رؤساء ثلاث عشرة دولة ، بينها ثماني جمهوريات واربع ممالك وامارة واحدة .

وقد صيغت عبارات البلاغ بلهجة هادئة بعيدة عن الحماسة والتهويل ، حتى اتهمه بعضهم بانه بارد .

وقال اخرون : نفضل بلاغا باردا ، واعمالا حارة ، على بلاغ حار لا يلبث ان يتبخر ...

والواقع اننا نتفاءل بالسرعة والدقة في التنفيذ ، قدر تفاؤلنا بنجاح المؤتمر في الوصول الى قرارات .

وبالفعل ، انتدب الملوك والرؤساء مبعوثين خاصين للجامعة ، يسهرون على تنفيذ مقرراتهم .

اما سر تفاؤلنا ، فهو ان بين الرؤساء حفنة من الثوار ، في طليعتهم الثائر الاول جمال عبد الناصر ، تمرسوا بالنضال المنظم قبل الحكم ، وبالعمل المنظم في الحكم ، فلا يمكن ان يتهاونوا او يتراخوا في اخراج القرارات من دنيا الحبر والورق الى دنيا الواقع .

وحسن التنفيذ في افضل الحالات لا يقضي الى القضاء على اسرائيل ، الا في حالة واحدة هي ان تبادرنا بالعدوان وتجدنا على خير ما يرام من التأهب . وحتى في هذه الحالة ، لا يستبعد تدخل دول اخرى ، في طليعتها الولايات المتحدة ، كما اعلنت ذلك صراحة ، سواء أكان البادئون بالحرب العرب او الصهاينة . بل لعل الولايات المتحدة لن تدخل حينئذ الا متى رأت اسرائيل عرضة للهزيمة ... وعلى العرب حينئذ ان يمضوا في القتال مهما تكن العواقب .

حسن التنفيذ على الاقل سيحول دون تكرار مأساة ١٩٤٨ . فالدول العربية اليوم المستقلة فعلا اكثر عددا واعز جندا ، واوفى مالا ، وعلى الاخص اشد عزما وتصميما .

صحيح ان اسرائيل بدورها باتت اقوى مما كانت اضعافا . لكن العرب ووراءهم معركة السويس ، ومعركة الجزائر ، ومعركة اليمن ، ولديهم ساحتهم الشاسعة ، وحجمهم الكبير في السكان ، وعنصر النفط الحيوي بالنسبة الى الغرب حليف اميركا ، ثم هذا المؤتمر الذي جمع شملهم ووحد كلمتهم وقيادتهم العسكرية ، يبدون في موقف راجح . ولئن لم تقع الحرب ، ونجح العرب في احباط المشروع الاسرائيلي ، بتخصيب النقب ، اصابوا نصرا كبيرا . وبات عامل الزمن في جانبهم هم يقوون على كل صعيد ، بينما اسرائيل تبقى مجمدة حيث هي .

اجل ، المطلوب من حسن التنفيذ أن يبقى على اسرائيل مجمدة خاضعة للمقاطعة الاقتصادية ، محشورة في رقعتها الضيقة ، قلقة غير مستقرة وسط محيط عربي مناوىء معاد لا تملك ان تفتح عليه نافذة ، تستنشق منها الهواء . ومن ثم ترك طعنة الاجهاز الى اليوم المناسب .

مما لا جدال فيه ان مؤتمر الذروة عزز كيان الجامعة العربية ورفع من هيبتها .

بل ان الاتفاق على مؤتمر دوري لرؤساء دولها ، وانشاء قيادة عسكرية موحدة ، الى جانب اتفاقات سابقة ولاحقة بصدد الغاء تأشيرة السفر والاعفاء الجمركي او التعرفة المخفضة ، كل ذلك من شأنه تحويل الجامعة الى كونفدراسيون عربي ، اي الى دولة شبه اتحادية .

وفي هذه الحال ، الناجمة عن مبدأ التصافي والتضامن بين الانظمة العربية القائمة ، يقف سؤالان كبيران ليفرضا نفسيهما :

١ ـ ما عسى ان يكون مصير الدعوة الوحدوية ؟

٢ ـ وما عسى ان يحل بالدفع الثوري الاشتراكي ؟

لعل الاجابة عن هذين السؤالين تتطلب مقالا خاصا .

لكننا بكثير من الايجاز ، نجيب ان الدعوة التقدمية الاشتراكية تدخل الان مرحلة جديدة ، وترتدي طابعا اخر ..

فمرحلة القتال الباسل العنيف الذي كانت تدعمه القاهرة بجميع ما لديها من طاقات ، من اجل الوحدة والاشتراكية ، قد انتهت .

ونحن نؤمن بان هذا النضال قد ادى دوره في خلق الوعي اللازم ، وغرسه في نفوس الجماهير .

بقي على هذه الجماهير ان تسلك طريقها ـ وبوسائلها الخاصة ـ الى الوحدة والاشتراكية .

وبقي ان الجمهورية العربية المتحدة في المشرق ، والجزائر في المغرب ، ستكونان نموذجين حيين لنجاح التجربة الاشتراكية .

وبقي ان التقارب العربي الكبير الذي مهد له في مؤتمر الذروة ، قد يكون عند التنفيذ مغريا بمزيد من الخطوات والتدابير التي تحقق جوانب من الوحدة على الصعيد العملي . كما ان عدم النجاح سيؤدي حتما الى العودة نحو الخط الوحدوي الصريح .

وهنالك ايضا بارقة امل اخرى . وهي ان المؤتمر لم يشر من قريب او بعيد الى ضرورة تحجير الاوضاع الحالية . لا سيما وميثاق الجامعة الفضفاض نفسه ، ينص في مادته التاسعة على امكان اتحاد دولتين او اكثر .

فقد يلهم الله والاحداث بعض الدول العربية ان تتحد في دولة فدرالية .

ولا شك ان الوحدويين سيظلون على معتقدهم ، وهو ان الوحدة قدر الامة العربية ، وان من بعض ثمار هذه الوحدة ، القضاء على الخطر الاسرائيلي بشكل حاسم .

محمد النقاش

فصل من كتاب خطير :

« شمس الله تسطع على الغرب » ..

للمستشرقة الألمانية سيغريد هانك
ترجمة الدكتور سهيل ادريس

صدرت في باريس مؤخرا الترجمة الفرنسية لكتاب هام صدر منذ عامين في المانيا بعنوان « شمس العرب تسطع على الغرب » وهو للمستشرقة الالمانية سيغريد هانك . ولا ريب في ان هذا الكتاب من اهم الكتب التي تنصف العرب وما قدموه للحضارة العالمية من تراث .

وتنشر « الآداب » فيما يلي مقدمة الكتاب والفصل الاول منه كنموذج يستطيع ان يحكم القارىء العربي من خلاله على اهمية هذا الاثر العلمي العظيم الذي يكشف الدور الحضاري العربي الكبير الذي ما فتىء اعداء العرب ينكرونه او يشوهونه .

ليس عالم اليوم مؤلفا بعد من اوروبا وحدها . وتاريخ اوروبا لا يشكل وحده بعد تاريخ العالم اليوم . فلقد ارتقت شعوب اخرى ، تعيش على قارات اخرى ، مسرح الاحداث العالمية الحاضرة . ومع ذلك ، وبينما تضطلع جميع اجزاء العالم ، بلا استثناء ، بدورها في سيناريو التاريخ الكوني ، فاننا ما نزال اليوم نذكر الماضي على شكل « خريطة لنصفي الكرة الارضية » ، خريطة مختصة بالقرون الوسطى تتكون فقط من اوروبة يحاصرها المحيط ، اوروبا تحتل عاصمتاها الروحيتان ، اليونان وروما ، مكان « الجنة » على نحو ما . اما ان هناك شعوبا اخرى ، وقارات اخرى موجودة كذلك ، وهي تطالب بمكان لها تستحقه بكل جدارة ، ليس فقط في التاريخ العالمي ، بل كذلك في تاريخنا الغربي ذاته ، فهذا واقع لا نستطيع بعد ان نتجاهله في حقبة ننطلق فيها لغزو الفضاء .

والحق انه قد آن الاوان ، على ما يبدو ، للتحدث عن شعب طبع مجرى الاحداث العالمية بطابع عميق ، شعب يدين له بالكثير الغرب والانسانية قاطبة ، بالرغم من انك لن تجد في مئة مبحث تاريخي تقلبها الا اثنين يذكران اسمه . وحتى اليوم ، لا تزال دراسة تاريخ العالم – تاريخ الادب والفن والعلوم – تبدأ بالنسبة لكل طالب غربي ببحث سطحي لما كانت عليه مصر القديمة وبابل ، لتقف بعد ذلك وقفة طويلة عند اليونان وروما ، وبعد ان تلقي نظرة سريعة نحو الامبراطورية البيزنطية ، تنتقل الى القرون الوسطى المسيحية ، ومن هناك اخيرا الى العصور الحديثة . اما اوروبة ما قبل القرون الوسطى ، فانها لا تستوقف الانتباه قط ، شأنها في ذلك شأن الاحداث الخارجة عن التاريخ الاوروبي المعاصر للقرون الوسطى . فمنذا الذي يهتم بأن العرب ، الذين وقفوا في تلك الازمان على ابواب اوروبا ذاتها ، قد حملوا مشعل الحضارة ، طوال سبعمئة وخمسين عاما ، وانهم اذن قد عرفوا حقبة من العظمة والسناء اطول مرتين من حقبة اليونان ، وانهم في الحقيقة قد أثروا على الغرب تأثيرا اكثر مباشرة وتنوعا من تأثير هؤلاء ؟ ان التاريخ لا يعترف لهم ببعض الاهمية الا بالنسبة لدورهم تجاه اليونان : فهم الذين « نقلوا » الى الغرب كنوز الاقدمين . وهذه العبارة البسيطة التي تود ان تقدم واجب الاحترام للخدمة التي أداها العرب للغرب لا تنجح فعلا الا بتقليل شأنهم اذ تقصر دورهم على انهم مجرد وسطاء ، فيما هي تتجاهل الجوهري من اعمالهم .

والحق ان القضية ليست هي فحسب توسيع افقنا التاريخي ، وانما هي كذلك ، في الوقت الذي نلتمس فيه صديق الغد في عدو الامس ، اجتياز الحواجز القديمة التي بناها الدين ، والتدليل على تسامح اكبر ، والاهتمام بالكائنات البشرية ، فيما وراء قضايا العقيدة الدينية .

أيكون الوقت أبكر مما ينبغي بعد لانصاف شعب رفضنا ، بدافع من التعصب الديني ، حقه في حكم موضوعي عادل ، واستصغرنا انجازاته العظيمة بشكل نظامي ، وقنّعنا اسهامه الجوهري في حضارتنا وأخفيناه ؟ ان طبيعة العلاقات بين الغرب والعالم العربي ، منذ اعلان الاسلام حتى ايامنا هذه ، تظهر بشكل مثالي الى اي حد تستطيع العواطف والاهواء ان تملي طريقة كتابة التاريخ . ولقد كان ذلك شيئا يمكن ادراك اسبابه في وقت كان فيه كل تأثير مخالف للدين يعتبر غير مرغوب فيه ، لانه خطر . ولكن وجهة النظر هذه ، التي كانت تجوز بلا شك في العصور الوسطى ، ينبغي ألا تجوز اليوم . ومن المؤكد أن لونا من الاستياء ذا مصدر ديني ، وهو غير واع غالبا ولكنه عميق الجذور فينا ، يحد أفقنا ويجعلنا ننفر من افراد أضفت عليهم الدعاية مظهر محركي الفتن ، وعاشقي الاصنام ، والسحرة . وما زال العهد حديثا بالجدال الضاري الذي بعثته قضية بسيطة تتعلق بأصول « المينسنان » (1) ، والذي استطاع أن يعطينا فكرة عن مدى النفور الذي نحسه دائما في أن نقر وجود تراث عربي ، وعن الاهواء التي يمكن لهذا النفور ان يطلقها بعد في القرن العشرين .

لنعترف على الاقل ان هذا الجدال لم يكن ممكنا الا لان أفقنا قد بدأ يتسع رويدا رويدا ، بينما اخذت فكرة حكم عادل تشق طريقها شيئا فشيئا !

ان مصيرنا ربما كان ، عما قريب ، متعلقا تعلقا وثيقا بمصير العالم العربي الذي غير مرة من قبل وجه العالم . أفلم يئن الاوان ، والحالة هذه ، ان نتساءل ، فيما وراء ما يفصلنا ، عما يجمعنا ، وعما هو مشترك بيننا ؟

***

ان هذا الكتاب سيتحدث عن « العرب » وعن الحضارة «العربية» . لا عن الحضارة « الاسلامية » ، لان من المعلوم الواضح ان مسيحيين ويهودا وصابئة وزرادشتيين قد اسهموا في هذه الحضارة . ليس هذا فحسب ، بل ان عددا من اعظم انجازات تلك الحضارة قد تم ضد الاسلام الصحيح . والواقع ان عددا كبيرا من العناصر التي تشكل العبقرية المتميزة لهذا العالم الروحي كانت موجودة من قبل في شخصية

(1) قصيدة المجاملة في القرون الوسطى بألمانيا .

« العربي » في عهود ما قبل الاسلام .

ان هذا الكتاب سيتحدث عن « العربي » وعن الحضارة « العربية » ، بالرغم من ان خالقي هذه الحضارة لم يكونوا جميعا مواطني تلك الامة التي سبق لهيرودوت ان سماها ب « العربيوا » ، وانما كانوا ايضا فرسا وهنودا وسوريين ومصريين وبربرا وغوطا . ذلك ان جميع الشعوب التي كان العرب قد فرضوا عليها سلطانهم كانت موحدة بلغة ودين مشتركين ، هما اللغة والدين العربيان ، مثلما كانت موحدة بالطابع العميق نفسه الذي كانت العبقرية العربية القوية قد طبعتها به ، ومن هنا كانت وحدتها الثقافية ذات الانسجام الباهر .

واذن ، فان هذا الكتاب سيتحدث عن الحضارة العربية ، كما يتحدث المرء عن الحضارة الاميركية . فهو لن يصف الرازي او ابن‌سينا بأنهما « فارسيان » (وكلاهما متحدر من اسرة فارسية كانت تقيم منذ اجيال في البلاد العربية) ، كما ان احدا لن يفكر في ان يصف دوايت ايزنهاور ، الرئيس السابق للولايات المتحدة الاميركية ، بأنه «الماني» .

وغاية هذا الكتاب ان يفي العالم العربي دينا من العرفان قديم العهد جدا . وهو ، اذا تناول من اجل ذلك ، الحديث عن عدد كبير من التأثيرات المباشرة او غير المباشرة على الحضارة العربية ـ بالرغم من انه لا يستطيع طبعا ان يذكرها كلها ـ فذلك لا يعني اننا كنا مدينين لها بكل شيء ! كما ان ذلك لا يعني اننا نفكر باهمال أهمية التأثيرات اليونانية والرومانية والصينية والهندية واليهودية او التقليل من شأنها . وكذلك لا نقصد انكار التطور الذاتي وقوة عبقرية الشعوب الجرمانية والرومانية التي عرفت ان تستمد من النتاج الاجنبي ما تحقق به ذاتها . ان كثيرا من الايدي قد نسجت بساط الحضارة الكبير ، وان كلا منها يسهم في العمل المشترك ويستحق بذلك عرفاننا .

الفصل الاول
تجميل الحياة اليومية

اسمحي لي ، يا سيدتي العزيزة ، أن أدعوك لتناول شيء ما في هذه « القهوة (١) ! انزعي « جاكتتك » (٢) وخذي لك مكانا على « الصوفا » (٣) ذات « المفرش » المغطى بقماشة « قرمزية » . ان « القهوجي » سيعجل في تقديم فنجان من « القهوة » لك ، مع قطعتين من « السكر » ، الا اذا كنت تفضلين « قرافة » من « الليموناضة » المثلجة ، او بعض « الكحول » ! تقولين لا ؟ ولكنك ستقبلين بكل تأكيد حلوى ب « البرقوق » او ب « الموز » !

ولكن بالطبع ، يا صديقي العزيز ، انك اليوم مدعوي ! فهل يمكنني ان اقدم لك في البدء « شرابا » من « النارانج » ؟ وأعتقد ان بعض « الارضي شوكي » سيكون مقدمة لذيذة جدا للطعام . وما رأيك بديك سمين مصحوب ب « أرز » وفطائر ب « الاسباناخ » ؟ اما لنهاية الوجبة ، فلن ابالغ بأن أوصيك بهذه الحلوى المزوجة « بالعرق » . وفي الختام ، فنجان من « المقهى » ... ولكن ارجوك ، اجلس على « الديوان » .

وبعد ، فلماذا تراك لا تحس الراحة والرضى ، في حين ان كل ما يحيط بك ، وكل ما اقدمه لك ، موجود على لائحة الحاجيات المجرودة منذ وقت طويل والتي هي جزء من حياتنا ، بالرغم من اننا استعرناها من عالم اجنبي ، هو العالم العربي ؟ ان « القهوة » التي تتناولها كل يوم بحجة انها تحرضك على العمل ، و « الطاس » الذي تصب فيه ذلك المشروب الأسود ، و « السكر » الذي لا تستطيع بدونه اليوم ان تتصور لائحة الطعام ، و « الليموناضة » و « القرافة » و « الجاكيت » و « المفرش » ، انما ينبغي ان نعترف بأنها للعرب . وليس هذا كل شيء ! فان هذه الحاجيات في مجموع العالم المتمدن كله تقريبا لا تزال تحمل اسمها العربي ... وكذلك الامر بالنسبة ل « قندي » (٤) و «برغموت» (٥) و «النارانج» و «الكشك» (٦) الخ.. الثمار التي يرجع اصلها الى البلاد الحارة (وكذلك بعض الاطعمة والاشربة) ، فلماذا تريد منها ألا تحافظ ، في هذه الحالة ، على تسميتها الاصلية ؟

وحين تعترف بأنك ، اذ تكون ميتا من التعب ، تتمدد على « الصوفا » و « الديوان » والعثمانية » او في « القبة » ، فانك انما تؤكد لي ان اي صبي يستطيع ان يتعرف الاصل الاجنبي لكلمات غريبة كهذه الى هذا الحد . ولكن هل تعرف انك استعملت ، على غير علم منك ، كلمة آتية من لعبة « الاشكمات » (٧) ، (وهي لعبة علمنا اياها العرب ، باعتبار ان مبعوث هارون الرشيد ادخلها ، كما يقال ، الى قصر شارلمان) ، وان اصل كلمة « اشكمات » هو « شاه » (الملك) وان الكلمة كلها تعني ببساطة : الشاه مات ؟

وهل كنت تعرف بعد ذلك ان اكياس « الماروكين » (٨) التي تراها في هذه الحوانيت ما تزال تحمل خاتم العرب ؟ اما الاقمشة المعروضة فيهذه الواجهة ، بالاضافة الى «القطنيات» و «الموسلين» (٩) و « الموهير » (١٠) الاملس الازغب ، فبوسعك ان تختار منها ما يروقك

(١) الكلمات الموضوعة بين أهلة هي الكلمات العربية التي اصبحت شائعة في اللغات الاجنبية مع بعض التحوير (هامش المترجم)

(٢) هذه الكلمة الاجنبية مشوهة من الكلمة العربية « شقة » وهو الثوب المستطيل (هـ. م)

(٣) وأصلها في العربية « الصفة » وهي المقعد المظلل (هـ.م)

(٤) أي سكر القصب ، و « القند » في العربية عسل قصب السكر اذا جمد (هـ.م)

(٥) نوع من الاجاص الطري (هـ.م)

(٦) نوع من العرق ، هو بالعربية « ماء الشعير » (هـ.م)

(٧) وهي لعبة الشطرنج (هـ.م)

(٨) من كلمة مراكش ، وهي جلد الماعز المدبوغ (هـ.م)

(٩) وهي أقمشة الموصل (هـ.م)

(١٠) كلمة انكليزية مأخوذة من كلمة « مور » العربية وهو جنس من الخراف ذو صوف لين (هـ.م)

من « اليسانن » (١١) الانيق ، او « التفتا » (١٢) الباذخ او « الموير » المتلالئ ، او « الداماس » الفخم (نسبة الى دمشق) وكلها تعرض تحت ناظريك مجموعة كاملة من فروق الالوان والاشكال ، ابتداء من « الصفران » (١٣) الاصفر حتى « الليلا » (١٤) ، مرورا « بالنارانج » و « القرمزي » . وتلك كلها دعوات ناعمة الى ان تذكر اولئك الذين تدين لهم باقمشة مفيدة بقدر ما هي ثمينة ، بالوانها الفاقعة ، اقصد « العرب » .

اتراك تعرف انك حين تدخل صيدلية ، تجد فيها كمية من الاختراعات العربية ؟ ان نظرة واجدة الى صناديق « الدورقي (١٥) وزجاجاته تكفي لاقناعك : فانك واجد فيها « المسك » و « الكمون » و « الايستراغيسون » (١٦) و « الزعفـران » و « الكامفر » (١٧) و « البنزين » (١٨) و « القالي » (١٩) و « البورق » (٢٠) و «السكرين» و « الامبر » (٢١) وسواها من العقاقير والطيوب العربية التي تستعملها يوميا او تدري اننا ما نزال نستعمل بالاسم العربي « اللاك » وهو الطلاء الذي نغطي به اظافرنا ، وان كلمات الانيلين والغز (قماش من غزة) و « التيلك » (٢٢) والقطن هي كلمات عربية ؟

واذن ، فانك لن تستطيع ان تنكر ، اكثر مما فعلت ، ان العدد الكبير من الاسماء العربية التي تزين لغتنا هي اسماء حاجيات لاستعمالنا الجاري كشف لنا العرب عن وجودها . كما لا تستطيع ان تنكر ان هذه البضائع قد اضيفت على حياتنا اليومية ، التي كانت تافهة ، بل قذرة بعض الشيء ، ملاذ رقيقة كثيرة جملتها تماما ، وحسنتها باللون والعطر ، كما لا تستطيع ان تنكر ان حياتنا هذه مدينة لهم بانها اصبحت اكثر صحة وسلامة ، وفي الوقت نفسه اغنى بالراحة والاناقة ...

غرب معوز في ظل التجارة العالمية

نحن في عام الرحمة ٩٧٣ . وهذه سفينة تحاذي الشاطئ الغربي لفرنسا ، وتجتاز رأس « غري ـ نيه » متجهة نحو الشمال الشرقي . وكما فعلت في « بوردو » و « روان » ، فانها ستفرغ في « اوترخت » و « سليسيفيك » (٢٣) حمولتها الثمينة المكونة قبل كل شيء من زيت الاندلس ، وكذلك من حجر الشب القشتالي الذي يستعمل للدبغ ، ومن تين « ملقة » وخمرها ، ومن الفلفل والحبال . وهذه السفينة تحمل كذلك ، على رأس اعضاء سفارة الحكم الثاني ، خليفة قرطبة ،

(١١) من كلمة « زيتون » العربية ، وهي بلدة في الصين مشهورة بصنع هذا النوع من الحرير (هـ م)

(١٢) كلمة فارسية معربة ، وهو نوع اخر من الحرير (هـ م)

(١٣) وأصله العربي « زعفران » (هـ م)

(١٤) وأصله العربي « ليلك » (هـ م)

(١٥) صانع الدوارق وهي الاباريق التي توضع فيها الادوية والعطور ، ويقابلها باللغة الاجنبية « دروغ » (هـ م)

(١٦) وأصله العربي « ترخون » (هـ م)

(١٧) وأصله العربي « كافور » (هـ م)

(١٨) من «بنجوان» المركبة من كلمتي « لبان جاوي » وهو صمغ الصنوبر الذي يستعمل كمستحضر طبي (هـ م)

(١٩) وأصله العربي « القلي » وهو شيء يتخذ من حريق نبات الحمض (هـ م)

(٢٠) مثل ذلك بالعربية ، وهو النطرون (هـ م)

(٢١) وأصله العربي « العنبر » (هـ م)

(٢٢) وأصله العربي « الطلق » وهو ذرور معدني لطيف المجس (هـ م)

(٢٣) مدينتان من مدن البلاد الواطئة (هـ م)

« فلسطين »

موضوع العدد الممتاز القادم

الذي يصدر اخر شباط (فبراير)

سيدي ابراهيم بن احمد الطرطوشي .

والواقع ان على اعضاء هذه السفارة ان يبلغوا في «ساكس» (٢٤) قصر « هوتو » امبراطور الغرب الروماني الشهير . ذلك ان «اوتون» الاول الكبير ، امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة ، كان قد وصل الى « كادلنبورغ » في « الهارز » (٢٥) ، عائدا من روما ، حيث حضر زواج ابنه من « تيوفانو » ابنة الامبراطور اليوناني الراحل رومان الثاني ، كما حضر في الوقت نفسه حفلات تتويجهما المرهقة . وكان قاهر نهر « الليش » ، مجدد الامبراطورية الغربية ، في اوج قوته ومجده . وكان مبعوثون من الدانمرك ، ومن بولونيا ، ومن الشعوب السلافية ، ومن بوهيميا ، ونواب من اليونان وبلغاريا وهنغاريا وايطاليا يتزاحمون في قصر « كوادلنبورغ » الامبراطوري ليقدموا التحية الى سيد الغرب الاكبر .

وفي مطلع نيسان ، نقل الامبراطور قصره الى « ميرسبورغ » . والى ذلك القصر قدمت بعثة « امير المؤمنين » التي غادرت الاندلس وعلى رأسها ابراهيم بن احمد الطرطوشي ، لتقدم آيات التشريف لامير المسيحية الاول .

وقابل الامبراطور اوتون الاول ضيوفه العرب مقابلة ودية لطيفة ، وقبل هداياهم ، وهي أثمن ما تلقى من هدايا . وكان هذا الاستقبال للبعثة العربية واحدا من اخر الاعمال الرسمية التي قام بها الامبراطور . فبعد ان استأذنته البعثة في السفر ، محملة بالهدايا الاميرية هي ايضا ، انقضت بضعة ايام قبل ان يغمض السيد الكبير عينيه في « ماملوبان » .

وعاد السياسيون المغاربة الى وطنهم بطريق البر . وقد قادت رحلة العودة هذه الطرطوشي الى « مايانس » عن طريق « سويست » و « بادربورن » و « فولدا » . وهناك حدث شيء ذكّره ، على نحو مؤثر ، مسقط رأسه . ففي تلك المدينة من مدن « فرانكونيا » ، الواقعة على ضفة نهر يسمى « الران » وضع احد الباعة درهمين عربيين في يده . فشدّه وهو يتفحص حروفهما الكوفية ، وقرأ اسم الذي ضرب النقد وتاريخ سكه : ٣٠١ و ٣٠٢ بعد الهجرة ! لم يبق ثمة ادنى ريب : فقد كان يحمل في جوف يده قطعتين ذهبيتين من سمرقند مسكوكتين قبل ذلك بستين عاما ! وصرح بقوله : « لا بد ان هاتين القطعتين صادرتان عن سلالة نصر بن احمد الملكية » . ولكن مفاجآته لا تقف عند هذا الحد .

« ان من الغريب كذلك ان نكشف في مايانس ، في ابعد مناطق الغرب ، توابل لا توجد الا في أقبية الشرق ، ، مثل الفلفل والزنجبيل وكبش القرنفل والكوستوس (✱) والفالنغا (✱) » .

ولا شك في ان دهشته كانت ستبلغ ذروتها لو اتيح له ان يرى كشف السلع التي كان الاخ ، وكيل التموين في دير « كوربي » في مقاطعة « السوم » ـ اي في اخر الدنيا تقريبا ـ قد اعتاد على شرائها لمطبخه في مدينة « كامبري » الاسقفية التي تبعد سبعين كيلومترا .

(٢٤) منطقة من مناطق المانيا الشرقية (هـ م)

(٢٥) منطقة جبال كثيفة في المانيا الوسطى (هـ م)

كان سيقرأ على هذه اللائحة ما يلي :

٦٠٠ ليبرة من الشمع ـ ١٢٠ ليبرة من الفلفل ـ ١٢٠ ليبرة من الكمون ـ ٧٠ ليبرة من الزنجبيل ـ ١٠ ليبرات من كبش القرنفل ـ ١٥ ليبرة من القرفة ـ ١٠ ليبرات من البخور ـ ١٠ ليبرات من اللادن ـ ٣ ليبرات من الصبر ـ ١٠ ليبرات من الكوستوس (✱) ـ ١٠ ليبرات من الفالنفا (✱) ـ ١٠ ليبرات من الفطر ـ ١٠ ليبرات من البوميكار (✱) ـ ١٠ ليبرات من النكعة المهدئة ـ ٥ ليبرات من الكوتزمير (✱) ـ ٣ ليبرات من الاوبرمانت (✱) ـ ٣ ليبرات من العندم ـ ٣ ليبرات من المعدن الابيض ـ ليبرتان من التيمياما (✱) .

ولا بد للتوابل ، بما فيها ورق الشالبية ، وللنباتات الطيبة والافاويه التي كانت تخزن بهذه المبيات في اقبية الدير ، من ان يقوم معظمها برحلة طويلة « من كهوف الشرق حتى ابعد مناطق الغرب » ، وقد كانت تلك سلعا كان استعمالها اليومي يشكل ضرورة طاغيــة ، حتى ان اكليروس الكنائس التي لا عد لها كانت تسود الدنيا في عينيه حين كانت تنقصه منتجات الجزيرة العربية هذه ، والتي كان الرهبان انفسهم لا يستطيعون الاستغناء عنها على المائدة .

ومع ذلك ، فقد وجب عليهم ان يتخلوا مدة طويلة عن نعم الشرق هذه التي قدروها كل التقدير .

فالواقع ان لائحة «كوربي» يرجع تاريخها الى عصر الميروفنج (٢٦)، وقد نظمت قبل ثلاثمئة عام تقريبا من رحلة الطرطوشي . وطوال هذه الاعوام الثلاثمئة ، سال كثير من المياه في اودية « الران » و « السوم » وقد عرف عالمنا في هذه الفترة من الزمن كثيرا من التغيرات الكبيرة ، لعلها اكبر مما عرفت جميع القرون السابقة . وهي اكبر فعلا من التي احدثتها هجرة الجرمان المنحدرين من الشمال ليكنسحوا « الامبراطورية الرومانية » ، واكبر من تلك التي أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية المقدسة المؤسسة على وحدة الشاطىء المتوسطي .

اللهم الا ان تكون غزوات الجرمان قد أحدثت ، على عكس ذلك حقا ، تغيرات حاسمة ؟ والا ان تكون شعوب « الشمال » قد قلبت النظام القديم ، وحطمت وحدة المدينة القديمة ؟ كلا ، وانما كانوا مكملي ذلك النظام ما داموا قد اندمجوا في الوضع القائم . او تكون الوحدة الدينية قد تزعزعت بسبب سقوط « الامبراطورية » القديمة . وقيام السلطة القائدة الجديدة « لامبراطورية الشرق » ؟ وهل شقت الوحدة الاقتصادية لحوض المتوسط ؟

بل الامر على العكس . ان تجارة الشرق التي كانت في الماضي تصب ، عن طريق « أوستي » (٢٧) ، في المتروبول الروماني ومرفأ مرسيليا ، هي في ذلك الحين اشد ازدهارا من اي وقت ، وهي تمتد الى ابعد مما كانت سابقا : انها تتجاوز جبال الالب ، وتبلغ ـ عبر بلاد الغول ـ كامبري وقلب جرمانيا . صحيح ان روما ليست بعد هي التي تنظم مجرى الاحوال ، بل هي بيزانس . وصحيح ان العالم القديم متعب داخليا وفاسد . ولكنه ـ خارجيا ـ ظل سليما .

وان وحدته لن تحطم حقا الا حين يحتل الغزو العربي احتلالا محكما شرق حوض البحر الابيض المتوسط وجنوبه وغربه ، بعد ان ينطلق من جنوب الجزيرة العربية يدفعه النبي محمد وينظمه ، ممتدا على طول شواطىء المتوسط حتى الاطلنطيك .

وستكون نتائج ذلك عظيمة جدا . ان انتصار الاسلام سيقلب رأسا على عقب حياة عالم ملتفت منذ الف عام واكثر نحو الشرق . وتجاه الهجوم الاسلامي ، يسدل الغرب ستارا حديديا يسجن نفسه خلفه سجنا محكما لعدة قرون . وللمرة الاولى ، تنتصب الامبراطورية العالمية العربية بصفتها « شرقا » في وجه « الغرب » مجبرة اياه على ان يعزل نفسه (٢٨) .

« لا يغامرن احد في سوريا ولا في مصر » ذلك هو الامر القاسي الذي أملته روما والقسطنطينية . ولقد انجزت الدعاية عملها الانفصالي . اما ان يستطيع المسيحيون ان يتابعوا ، بلا حادث ، سفرهم للحج الى قبر المسيح في القدس ، واما ان يسلم الخليفة هارون الرشيد الى الامبراطور شارلمان ، بواسطة بطرك القدس (الذي يتابع اعماله بكل حرية) مفاتيح المدينة المقدسة وينقل اليه حماية الاماكن المقدسة ، فذلك لا يمنع في اللحظة نفسها من اتهام « الكفار » بتدنيس هذه « القدس » نفسها ، وذلك من اجل بث الذعر في نفوس المسيحيين الصالحين ، وانتزاع كل رغبة لديهم في السفر . هذا في الوقت الذي كان فيه التجار العرب لا يحسون ـ بكل تأكيد ـ اية حاجة لهم بالاتجار مع الغرب ، اذ ان « الشرق » ظل مفتوحا لهم ، بما في ذلك الهند والصين . ثم ان الذين يحاولون ان يحاذوا شواطىء اوروبا الجنوبية ، ليسوا هم التجار والباعة ، وانما هم القراصنة وحدهم .

(✱) جميع الكلمات التي تليها هذه النجمة غير موجودة في المعاجم الكبرى التي نرجع اليها ، ومنها « دائرة معارف لاروس » الكبرى . ولكن القارىء يستطيع ان يستنتج انها تدل على انواع من التوابل والنباتات (هـ.م)

(٢٦) نسبة الى ميروفيه ، ملك الافرنج من ٤٤٨ الى ٤٥٨ ، وقد قاد الافرنج في معركة السهول الكاتالونية حيث هزم اتيلا . واعطى اسمه الى ملوك الافرنج (هـ.م)

(٢٧) مرفأ روما القديمة ، قرب مصب التيبر ، وهو اليوم مردوم بالطمي (هـ.م)

(٢٨) « لقد حطم الاسلام وحدة الحوض الابيض المتوسط التي لم يستطع الغزو الجرماني ان يهدمها . وذلك هو الحدث الرئيسي للتاريخ الاوروبي منذ حروب روما وقرطاجة . وهو يعني نهاية العصور القديمة ، وفي اللحظة نفسها التي كانت فيها اوروبا تتهيأ لتصبح بيزنطية ، بدء العصور الوسطى (هنري بيران : مولد الغرب ـ محمد وشارلمان ص ١٥٨)

وها ان المرافىء التي كانت تدخل منها البضائع القادمة من الشرق ، هي بعد الان جرداء ، والمستودعات فارغة ، والاقبية خالية في « كوربي » حيث كف الاخ الطباخ عن ان يضع على المائدة الا الوانا بائخة من حساء الملفوف . ليس ثمة بعد اي تاجر يعرض الفلفل او الزنجبيل او الخمر ، او حتى الحرير . ليس ثمة بعد شيء مما يجمل الحياة ويتبل الوجود . بل ان وضع التجارة نفسه قد اختفى : لم يبق شيء بعد للتجارة . ان الفلاح يؤجر الفلاح حبوبا او ماشية ، ونادرا دراهم فضية . واما الذهب ، فهو لا ينتقل بعد الى اي يد . لقد تقبل الوجود الفقر والحرمان والسلامة .

وكان لا بد للكنائس نفسها من ان تحرم ذاتها مما هو اساسي . فاذا بالبخور والخمر وزيت الاضاءة منتوجات لا يعثر عليها بعد . وفي المستقبل ، سوف يستعمل ثمة « بديل دون » : شمع النحل البري . واجتزأ البابا « بونيفاس » بالهدايا المتواضعة التي كان أصدقاؤه في روما يقدمونها له ، تارة بعض البخور ، وطورا قبضة من القرفة ، وأحيانا بعض الكوستوس المعطر ، او نموذج من الراتينج المستخرج من شجرة بلسم عربية ، وكلها سلع ربما جاء بها يهودي يعرضها في المتروبول المسيحي .

والواقع ان اليهود وحدهم ، سواء أكانوا تجارا بالجملة ، او مبعوثي الكارولنج (٢٩) ، هم الذين كانوا ما يزالون يقيمون ظاهرا من الصلة بين الشرق المسلم والغرب المسيحي . ولم يكن ثمة مكان لا يلتقو نفيه اشخاصا من دينهم يبدون كل استعداد لمساعدتهم ، ثم انهم كانوا ، كما يلاحظ ابن قرطبة الذي كان حوالي عام ٩٠٠ رئيس الشرطة والبريد في العراق « يتحدثون الفارسية والرومانية والعربية والفرنجية والاسبانية والسلافية . وكانوا بطريق البر والبحر يتنقلون بين الشرق والغرب ، وبين الغرب والشرق ، مجتازين اسبانيا ومتجهين نحو مصر عن طريق « سوتا » (٣٠) . وكانوا ينقلون من الغرب الى الشرق خصيانا وعبيدا وصبيانا وحريرا (من بيزنطة) وفراء وسيوفا . ويركبون البحر من بلاد الافرنج على الشاطىء الغربي ويمضون حتى يبلغوا « فأراما » (مرفأ يقوم بجوار بور سعيد الان) ... وفي طريق العودة يحملون سفنهم جوز الطيب ونبات المر ، والكافور ، والقرفة ومنتوجات اخرى من بلاد الشرق » .

ولكن هذه ، بالنسبة لاوروبا ، ليست الا قطرات ماء في البحر . ان سواد البشر لا يستطيع ان ينعم بأي من هذه المنتوجات التي تبلغ ، في « السوق السوداء » ، أثمانا باهظة . من اجل هذا كانت للطرطوشي اسباب وجيهة لكي يندهش من وجود توابل شرقية في مدينة مايانس .

***

والواقع ان البلاد المسيحية كانت تقوم ، في عهده ، على هامش تجارة شرقية مزدهرة اشد ما يكون الازدهار ، فهي تعبر بحر قزوين ، وتصعد مجرى الفولغا وتشع حتى الشمال الوثني ، باللغة جميع شواطىء بحر البلطيق وجزره . وقد ردت لنا ارض البلاد الشمالية الوفا بل ملايين من النقود العربية التي يرجع عهدها الى القرون التاسع والعاشر والحادي عشر : وكلها شواهد على الاشعاع العالمي للحضارة العربية ولتجارة لم يكن اي حكم ديني مسبق يعترضها . وكان القائمون على هذه التجارة هم من السكاندينافا او النورمانديين الذين كانوا يهبطون ، في بعثات جريئة ، من النروج وايسلندا والسويد والدنمرك ، ليتوغلوا في الشرق . وهكذا أسسوا « دولة » قوية في مساحات روسيا الشاسعة التي هي مدينة باسمها لاولئك الاسياد القدامى الذين كانوا يدعون « هرو » او « روس » .

كانوا محاربين وتجارا في وقت واحد ، وقد اسسوا وكالات تجارية كبيرة : منها « نوفغورود » و « كياف » . وقد اوصلوا حتى

(٢٩) الجيل الثاني من ملوك الافرنج (٧٥١ — ٩٨٧) (هـ.م)

(٣٠) مرفأ مراكشي على البحر المتوسط (هـ.م)

جزيرة « توليه » (٣١) الاقمشة واللباد والزينات الفضية والصدف والاسلحة والكلاليب والتوابل الصادرة من المقاطعات العربية . وبالمقابل كانوا يحملون الى العرب العنبر الاصفر ، وريش الحوت ، وصمغ السمك وخشب الجرمشق ، ولحاء شجر البتولة ، وصقورا حية للصيد ، وقلانس من جلد الثعلب الاسود وكميات هائلة من الفراء الباذخة . « كانت تصلنا على ظهر الحمير قبعات مصنوعة من وبر القندس والسمور بكميات كان احصاؤها مستحيلا ، وكذلك جلود القاقوم التي كان ثمنها مرتفعا جدا ، وجلود الثعلب الاحمر ، كما كانت تصلنا مهور لم تحدد أقدامها بعد ، وجلود أوس كانت تضيء غرفة النوم كالنهار حين يخترق ظلمة الليل » .

على ان دولة الخازار (٣٢) الصغيرة كانت تمتد بين امبراطورية الروس والامبراطورية العربية وامبراطورية الشرق الرومانية . وكانت منذ قرون قد استقبلت اليهود المطرودين من الشرق الادنى ، وكانوا ملوكا يهودا اولئك الذين كانوا يحكمون هذا الشعب المؤلف من يهود ونصارى ومحمديين ووثنيين . وكانت عاصمتها « ايتيل » الواقعة على بحر قزوين تشرف على مصب الفولغا ، وكان لذلك اهمية رئيسية بالنسبة لتجارتها ، لان غنى هذه الدولة الضخم كان يرتكز على حقوق المرور والجمرك التي كانت تتقاضاها على البضائع من حيثما أتت .

ومنذ ان نجح الامبراطور اوتون الاول في وقف شر عشائر « الماغيار » (٣٣) التي كانت تكتسح القارة ، استطاع فرع من التجارة العربية — الشمالية المزدهرة ان يشق اخيرا طريقا له ، فيما وراء دولة « الخازار » ودولة النورمنديين « الروس » حتى أديرة اوروبا الوسطى ومدنها . ذلك ان طرقا تجارية كبيرة كانت قد بدأت تفضي الى براغ ، كما يخبرنا اليهودي ابراهيم بن يعقوب الذي قام برحلة في البلاد العربية انتهت به الى « ميرسبورغ » لدى «ملك السكسون هوتو » في الوقت نفسه الذي وصلت فيه بعثة الحكم الثاني . « كان الروس والسلافيون يأتون من كاركوفيا الى براغ وهم يحملون بضائعهم، بينما كان المحمديون واليهود والاتراك يصلون اليهم حاملين سلعا ونقودا متداولة ليشتروا منهم العبيد والقصدير ومختلف الفراء » .

ولعلهم الروس انفسهم او البراغيون ، هم الذين حملوا الى « مايانس » التوابل الفاخرة والقطع النقدية العظيمة التي استطاعت في عام ٩٧٣ ان تحرك عواطف الطرطوشي العربي ، مذكرة اياه بمسقط رأسه في قلب بلد اجنبي بعيد .

البندقية تكسر الحصار

في هذه الاثناء ، بدأت تتجهز للتجارة قوة صغيرة ، على غير علم من شعوب الداخل ، وسوف تحرز ، على هذه الارض ، اعظم الانتصارات . ان « ميتاموكو » ، المدينة المبنية وسط بحيرات الادرياتيك ، والتي كنستها الحروب والبحر في وقت مبكر ، سوف تنبعث في جزيرات « الريالتو » تحت اسم « البندقية » ، وهو اسم سيحميه بعد الان سيدها القديس مارك الذي كانت عظامه قد نقلت خفية من مصر . وكان وضعها الجغرافي يوجهها بصورة طبيعية نحو التجارة . ولن تلبث هذه التجارة ، التي كانت مقصورة في البدء على اشياء قليلة ، كالملح والصيد ، ان تعرف بسرعة ازدهارا لا مثيل له .

(٣١) وهو الاسم الذي أطلقه الرومان على جزيرة تقع في شمال اوروبا (ايسلندا) وكانت تعتبر الحد الشمالي الاقصى للعالم المعروف (هـ.م)

(٣٢) شعب صغير كان يعيش شمال بحر قزوين وقد حكم جزءا من ارمينيا ثم القرم حتى القرن الحادي عشر (هـ.م)

(٣٣) شعب الاورال والالتا المتحدر من مستوطني الاورال ، وقد استقر في هنغاريا في القرن التاسع (هـ.م)

ان افضل اسلحة المدينة هي من جهة عبقريتها التجارية ، ومن جهة اخرى بضائع الشرق والغرب التي هي مادتها . اما نصرها ، فكان غنى اسطوريا ، فريدا في الغرب ، وشبه مساو لغنى العرب .

كان البحر ، على اثر انتشار الاسلام ، يكون حدا بين عالمين ، وكانت البندقية التي ألقت بينهما جسرا ، هي التي تتيح من جديد للشرق ان يغرق بكنوزه ، المأسوف عليها ان لم تكن بعد المجهولة ، غربا فقيرا معوزا .

والواقع ان البندقية مرتبطة بامبراطورية الشرق ، وقد تمكنت هذه الامبراطورية ، التي لم تهزم في البحار ، ان تحافظ على حرية مواصلاتها مع مرتكزاتها الايطالية . ولكن امبراطور القسطنطينية بعيد ، في حين ان امبراطور الافرنج قريب قربا خطرا . ولقد طلب العاهلان كلاهما حظوة البندقية ، بالتهديد عند الحاجة . ولكن البندقية لعبت ، في وقت واحد ، على الصعيدين ، وكانت ترتقي ، بفضل لعبة التوازن هذه ، سلم الاستقلال درجة درجة ، ريثما يستطيع رئيسها ان يعامل امراء الارض الاخرين معاملة الند للند .

واستطاعت البندقية آنذاك ، وقد غرقت في التكريم والمجاملة ، ان تسمح لنفسها بالتلفت نحو آفاق اخرى . انها ، بفضل رحلات سفنها المتعددة في البحر الابيض المتوسط ، ستهتم بالموانىء العربية التي كان غناها واضحا للعيان . وهذا ، بالرغم من انه لا يليق بمدينة مسيحية ان تدخل في علاقات مع « الكفار » . ولكن هل ترددت نابولي في ان تعطي العرب مساعدة خفيفة ، اذا لم نقل اكثر من ذلك ، عند فتحهم لصقلية ؟ أولم تعقد « بيزا » اتفاقات مع الاسماعيليين ضد جنوى ؟ ونابولي نفسها ، ألم تتحالف معهم ضد منافستها « امالفي » ؟ وسفن « امالفي » من جهتها ، ألم يبلغ بها ان هاجمت الشاطىء الروماني مع سفن الكفار من غير ان ينجح اي تهديد بالحرم البابوي في ثنيها عن ذلك ؟ ان القضية اجمالا ، بالنسبة للبندقية ، هي قضية عمل سلمي محض ! ومن جهة اخرى ، اي شأن للتجارة بالدين ؟ ما دخل سيدة البحار الفتية هذه حتى تتورط بالتواءات السياسة التي كان يتبعها عجوز « البوسفور » المتقلب ؟

أكان عليها ان تخضع بكل بساطة وهدوء لازعاجات اللجنة التي تفتش ، بناء لاوامر الامبراطور يوحنا تزيمسكيس ، السفن المستعدة لمغادرة مرفأ الريالتو ، حتى تتأكد من ان حمولتها لا تضم أسلحة ولا خشبا ؟ لا ريب في ان غضب الامبراطور البيزنطي الذي أثارته أخيرا هجمات الخليفة الفاطمي لا يمكن ان يكون أعنف من الغضب الذي يحس به تجاه البندقيين الذين كان يعرف من مصدر موثوق انهم يدعمون « الكفار » ، اعداءه ، بأن يقدموا لهم الاسلحة وكذلك الاخشاب التي تستعمل لبناء سفنهم الحربية . وقد بلغ به الامر ان هدد باحراق كل سفينة تكتشف بضائع تهريب على ظهرها !

غير ان البندقيين لم تكن لديهم اية رغبة في ان يعرضوا للقطع رأسا كانوا على وشك ان يسندوه الى وسادة من مخمل وحرير . وقرر رئيس البندقية ان يلجأ الى المكر ، لكي يسبق الامبراطور . فعجل في ابرام مرسوم يمنع بيع الاسلحة تحت طائلة الاعدام ، وقصر بيع الخشب على الألواح التي لا يتجاوز طولها خمسة اضعاف نصف قدم (وهو مقياس غير مشتبه به !) وكذلك على المغارف والقصاع والاوعية الخشبية التي تستعمل لغسل الثياب . ومن جهة اخرى ، سارع رئيس البندقية بابلاغ لجنة الرقابة بأن الخشب لم يحتل في الحقيقة اي مكان هام في تجارة البندقية ، وان احدا ، بالاخص ، لم يفكر في بيعه للخليفة ! ولكن لا شك في ان ثلاث سفن كانت ، قبل وصول سادة القسطنطينية هؤلاء بقليل ، قد ابحرت بحمولة من الخشب ذي اللحاء ... غير ان اثنتين منها اتجهتا نحو « مقديشيو » في تونس ، بينما أخذت الثالثة طريقها نحو طرابلس الغرب . والذي حدث هو ان الاذن بتحميل هذه السفن انما أعطي بدافع من الاحسان المسيحي نحو عمال المرفأ ، وهم جد معدمين ، وليس واردا على الاطلاق اعطاء أي قطعة من حمولتها للمشرق !

والحق ان كتاب القرن العاشر العرب سيؤكدون هذه الواقعة : ان البندقية وأمالفي وتدمر ومسينا انما تتاجر مع عرب افريقيا الشمالية . فسفنهم تدخل الى اوروبا ، عن طريق القيروان ، وسوسه ، وقابس ، ستورا حريرية ، وأخونة مذابح ، وأقمشة سوداء وألبسة زرقاء لازوردية . ولا يزال من يزور اليوم « مونت كاسينو » وبعض الاديرة او الكنائس في شبه جزيرة « الابنين » يتأمل باعجاب بعض الاحجار الكريمة الاتية مباشرة من البلاد العربية .

ولكن « الشمال » يبقى محروما من هذه البضائع . اذ من يستطيع ان يعبر بها جبال الالب ؟

في تلك الفترة ، وقع حدثان كبيران غيرا الوضع تغييرا عميقا .

ففي عام ٩٦١ ، أنهت بيزنطة السيطرة العربية على جزيرة كريت . وعلى ذلك ، اصبح طريق « المشرق » حرا ، ولم يبق ثمة مبرر لاي قرار امبراطوري او بابوي ان يمنع ايا كان من عقد علاقات تجارية مع عرب الشرق ، او الافادة من اتساع تجارتهم ونمو ثروتهم الدائم . وهكذا سجل رئيس البندقية بطرس الثاني اورسيلو تسلمه السلطة عام ٩٩١ بأن ارسل بعثات الى جميع الامراء العرب الذين كان حريصا على ارضائهم من اجل صالح البندقية . وما لبثت سفن البندقية وجنوى التجارية ان حاذت شواطىء سوريا ومصر بطريقة منتظمة . وبلغ الامر بالخليفة الفاطمي المستنصر ، صديق المسيحيين ، ان تنازل عن حي برمته للحجاج والباعة .

وقد كان لهذا التدبير نبريره ، لان قوافل من السفن كانت ، في مطلع ايلول من كل عام ، حين يبدأ الحر الشديد في الانحسار ، تغادر مرفأها الايطالي ، وبعد اربعة اسابيع او خمسة تلقي مرساتهـا فـي « المشرق » . ولا تنصب الاشرعة من جديد ، لرحلة العودة ، قبـل منتصف الربيع . وهكذا يقضي الباعة الشتاء كله في الشرق . وهـم يتجهون من سوريا وفلسطين الى بغداد ، بل حتى الخليج الفارسي ، الا ان يقصدوا مباشرة القاهرة او الاسكندرية ، حيث تفضي تجـارة التوابل الثمينة ، ينبوع الارباح الكبيرة ، قادمة من الهند ومدغشقر . (من اجل هذا يحاول الصليبيون فيما بعد ، بدورهم ، ان « يفتحـوا فلسطين لمصر ») .

اما الذي لا يكون متعاقدا للعودة على ظهر السفينة نفسها ، فقد كان احيانا يمدد غيبته بضعة أعوام . وأيا ما كان ، فلم يكن ثمة تاجر بندقي او جنوي الا ويقضي على الاقل ستة أشهر من العام بيـن العرب ، متعرفا في الوقت نفسه عـلى طريقتهم في العيش وعـلى حضارتهم . ولذلك ، فان هذا التاجر حين يصعد ثانية الى ظهـر سفينته ، يعود الى وطنه بأكثر من الحمولة المشتراة في تلك الاثناء ، بأكثر من قطن سورية ، ونسيج انطاكية ، وزجاج صور ، وخبز طرابلس السكري ، وبأكثر من الفلفل والقرفة وجوز الطيب والكافور والبخور والصبـر والنيلج وحجر الشب وخشب الصندل الذي تقدمـه الوكالات المصرية .

واذ تكون التجارة ، بفضل هذه السلسلة من الاحداث ، قـد استؤنفت مع « الشرق » ، يكون أوتون الاول من جهته ، بعد انتصاره على « الليش » عام ٩٥٥ ، قـد ابعد نهائيا تهديد غزو العشائـر « الماغيار » المستمر ، ورد الامن بذلك الى المدن والضواحي والـى طرق اوروبا . وآنذاك اصبحت شعاب جبال « الالب » طرقا مسلوكة جدا . ومنح الامبراطور حق اقامة الاسواق وسك النقود الى عدد من المناطق القائمة عند اقدام الالب وحول بحيرة « كونستانس » وعـلى طول المجرى الاسفل للران . فاذا الطريق مفتوحة ، بعد الان ، للبضائع المودعة في البندقية لكي تتجه نحو الشمال .

ولكن اذا كان الايطاليون يجتازون البورغوني وفرنسا والفلاندر ليبيعوا فيها بضاعتهم ، فانهم بالمقابل لم يكونوا يُرون في المانيا . واما اليهود ، فقـد كانوا يلتزمون اكثر فاكثر دور المرابين او السماسرة القيمين ، يشترون ويبيعون الخيل والمواشي والبضائع المستعملة . واذ ذاك يتولى الباعة الالمان دور الهجوم ، فيجتازون « السبتيمر » او « الفران ـ سان ـ برنار » ليدركوا وادي البو ، ويفتحون بذلك لبضائع الشرق سوقا هائلة .

والهدف الرئيسي للتجار الالمان هو طبعا جمهورية سان ماركـو . فسواء قدموا من « شافهاوس » او « رفانسبورغ » او « رجانسبورغ » او« نورمبرغ » ، أو « اوغسبورغ » أو « اولم » او حتى « كولوني » فانهم جميعا مجذوبون نحو اكبر مستودع للبضائع العربية الثمينـة . وكانوا يصلون باعداد كبيرة جدا ، حتى أن جمهورية البندقية كـانت ، على غرار السلطان المصري الذي كان بضع منذ وقت طويل تحت تصرف الباعة المسيحيين « فنادق » شخصية ، تحجز لهم مركزا يستطيعـون في وقت واحد ان يقيموا فيه ويمارسوا اعمالهم . وهذا النوع مـن المراكز في البندقية يحمل الاسم الذي كان العرب يطلقونه عليه في بلادهم . انه فندق الالمان « فونداكو دي تيداتشي » ، وهو بناء يخص الدولة ، ويتألف مـن خمس وستين حجرة سكن للرجال والدواب ، وفرن خاص ، والامكنة اللازمة للاشغال المهنية : من مستودعات وحوانيت للبيع . انه مستعمرة صغيرة بذاتها .

ان هذا المركز هو محطة البدء لجميع التجار المتنقلين . فحيـن يصل كونراد ايزفوجيل من نورمبرغ الى البندقية ، فعليه ان ينزل في « فونداكو دي تيداتشي » ، وبعد ان يدفع حق الدخول يبيع ادواتـه النحاسية والحديدية ، وفراءه واقمشته المجلوبة من « باربانسون » .

والاكثر من ذلك ـ على غرار ما يحدث عند العرب ـ انه لا يستطيع ان يجري معاملاته الا تحت رقابة مندوب الحكومة الرسمي ، الاخصائي بـ « تعرفات » البضـائع . وبالاضافة الى ذلك ، ينبغي لرجـل نورمبرغ ، بحضـور مندوب الحكومة ايضا ، ان يشتري بايـراده بضائع : توابل وعقـاقير من كل نوع ، وأقمشة وملابس مزدانـة بالذهب والحرير .

ذلك ان الحظوة العظيمة في الاتجـار مع البندقية لا يمكن ان تكتسب الا لقاء التقيد الدقيق بنظام شديد الصرامة . فلئـن كـان كونراد ايزفوجيل يستطيع ان يعود ببضائع الى نورمبرغ ، فانـه بالمقابل لا يستطيع ان يخرج أي مال من البندقية . واذا كان يحق له ان يراقب من حجرات فندقه صواري السفن التي تصل من صـور والاسكندرية ومقديشيو وسوتا ، فانه بالمقابل لا يسمح له قط بأن يقترب من مباني المرسى . ومن المحظور عليه ان يتبادل اية كلمة مع البحارة . كما انه لا يحق له ان يقترب ، حتى ولو لمسافة الصوت ، من تاجـر بورغوني او بوهيمي او ميلاني او فلورنسي . وبالمقابل ، تتعهد البندقية ألا تشتري بضائع المانية الا ضمن جدرانها والا تبيع بضائع بندقيـة في الارض الالمانية . على انها تحتفظ لنفسها في داخل امبراطوريتهـا الجزيرية وفي الادرياتيك بدور الوسيط ، دون سواها ، بين « الشرق » و « الغرب » . تلك هي اذن قاعدة التعامل ، وان البندقية لتسهر على ان يتقيد بها ضيوفها ، وهي لا تجهل ، في الواقع ، ان سر قوتها انما يكمن في هذه القاعدة .

اما جمهورية جنوى ، فتبدو ، بالمقابل ، أكثر حرية واوفر كرما . فبدلا من ان تكون تجارتها مع الشرق حكرا للدولة ، فهي ترتكز عـلى المبادرة الخاصة . وجميع اولئك الذين تلفتهم روح المشاريع نحـو اسبانيا وافريقيا الشمالية والمشرق ، يسعون اليها ايضا ، بصفتهـا مصرفا تجاريا هاما .

***

يبدو واضحا في اخر المطاف ان التوابل العربية هي في كـل مكان مصدر الثروة والقوة والنفوذ الاقتصادي . ومن المؤكد ان ازدهار الغرب يخرج مع الفلفل من السلال العربية .

وكانت غيبة بضائع « الشرق » قد سببت كساد التجارة واختفاء السلع وفي الوقت نفسه توقف انتقال الذهب . فمنذ اللحظة التـي انقطعت فيها العلاقات مع الشرق ، سقط الغرب مرة اخرى فيالوضع الفلاحي الريفي . ولهذا كانت عودة الفلفل وجوز الطيب والسكر مـن الشرق سببا لاكثر من جلب السرور للقصر وتتبيل حساء الملفـوف الذي يتناوله الغربيون . ذلك ان الاسواق الريفية الصغيرة التـي كانت من قبل كافية ، بحبوبها وبيضها واوانيها الفخارية والبستهـا المنسوجة في البيوت ، لتغطية الحاجات المحلية ، سوف تمحي ، عـلى اثر عودة البضائع من الشرق ، لتفسح المجال لاسواق ومستودعـات تستجيب لاشد المتطلبات طمعا ، تلك التي يتزاحم حولها فريق مـن

التجار القادمين احيانا من امكنة بعيدة جدا . ولن تكف الثروة عن التنامي ، ومعها يتنامى طفلاها المدللان ، الراحة والبذخ . ويعود المال الى التنقل ، محدثا ثورة اجتماعية حقيقية ، من غير اراقة الدماء .

ومن المؤكد اطلاقا ان البندقية ما كانت لتصبح ما اصبحت لولا تجارتها مع العرب . فلولا قرفتهم وكمونهم ، ولولا قرمزهم ونيلجهم ، لما استطاعت قط ان تحتل مكانها بصفتها اعظم قوة اقتصادية للغرب . ولنضف الى ذلك انها ستعرف ان تفيد افادة كبيرة من الظروف التي ستجلب لها القضية العظيمة ، قضية نقل محرري الارض المقدسة .

والواقع ان القبيلة التركية التي انقضت ذات يوم كالعاصفة على البلاد العربية ، انما وضعت ، بوحشية ، حدا لحكم المستنصر النبيل ، وفي الوقت نفسه ، أنهت المجاملة الكبيرة التي كان يعامل بها النصارى . وان سقوط القدس في ايدي السلجوقيين والتهديد الذي مارسه هؤلاء على امبراطورية الشرق ، دفعا الغرب المسيحي الى الانتقال للهجوم . وكان المسلمون والمسيحيون في فلسطين قد عاشوا بسلام جنبا الى جنب ، حتى تولى السلطة الحاكم ، الخليفة الفاطمي الثالث ، الذي كان متعصبا بقدر ما كان معتوها . ولبضعة قرون ، سيصبح هذا البلد ساحة قتال ، بينما كان نقل جيوش باتجاه « الاسلام » لا يني يشق مياه البحر الابيض المتوسط .

بيد ان الجمهوريات البحرية الايطالية لم تكف ، بسبب ذلك ، عن مواصلة تجارتها المربحة مع العرب ، الا في بضع سنوات قرر فيها حبر روما ان يعاقب اي اتجار ، ومهما كان ، مع اعداء الدين . والواقع ان المجامع والسينودسات ما فتئت تعلن ان الخشب والاسلحة والمعادن هي بضائع تهريب ، لان القصد منها كان مساندة الكفار في الحرب التي يشنونها على جنود المسيح . ولكن الاعلانات البابوية لم تؤد اية نتيجة . ألم يكن يُرى بحارة مسيحيون يتطوعون لامساك سكان سفن الحرب العربية ؟ وجنوى ، ألم تسجل صداقتها المفضوحة للمسلمين حين جهزت ، بناء على طلب سلطان مراكش ، ثماني عشرة سفينة كانت مرصودة لمساعدة « امير المؤمنين » ضد الصليبيين الذين لم يكونوا يفكرون الا بالسلب والنهب ؟..

ولماذا ترى يراد للجمهوريات الايطالية ان تحرم نفسها من بضائع الغرب ؟ اليس دور التاجر ان يتاجر ، وان يترصد جميع المناسبات الملائمة ويقبض عليها ؟ أليس نقل عشرين الفا ، ثم اربعين الفا من جنود الله الذين يتزاحمون في ساحة سان مارك بانتظار ان يُحملوا الى عكا ودمياط ، اسهاما كافيا في القضية المسيحية الكبرى ؟ لا شك ان تلك صفقة مربحة . كما ستكون صفقة مربحة ان يتمكن الصليبيون ، عام ١٢٠٣ ، تحت قيادة البندقيين ، من سحق بيزنطة التي كانت ما تزال مهددة بالاسلام . ولسوف يأتي كاتب مسيحي فيصف كاريكاتور الصليبية هذا الوحشي بأنه « اشد ما رؤي تخريبا منذ كان العالم عالما » . والواقع ان الفرسان كانوا يستسلمون لرغبات جنونية في الهدم والاتلاف - أسوأ من رغبات الاتراك فيما بعد - بين انقاض المكتبات القديمة والاثار الفنية . والذي حدث هو ان البندقية ومنافساتها الايطاليات ، هي وحدها ، في معسكر المسيحية ، التي ستخرج منتصرة من الكارثة الكاملة التي كانتها الحروب الصليبية .

« وفي نهاية الامر ، استنفد الجميع قواهم من غير ان يبلغوا هدفهم » : بهذه الكلمات يصف الراهب الفرنسيسكاني الاسباني « رامون لول » مجموع الجهود العابثة التي بذلتها المسيحية جيلا بعد جيل لتستعيد قبر السيد المسيح ، و « لتبيد الكفار او تحملهم على اعتناق دينها » ولتقيم سيادتها في الارض المقدسة .

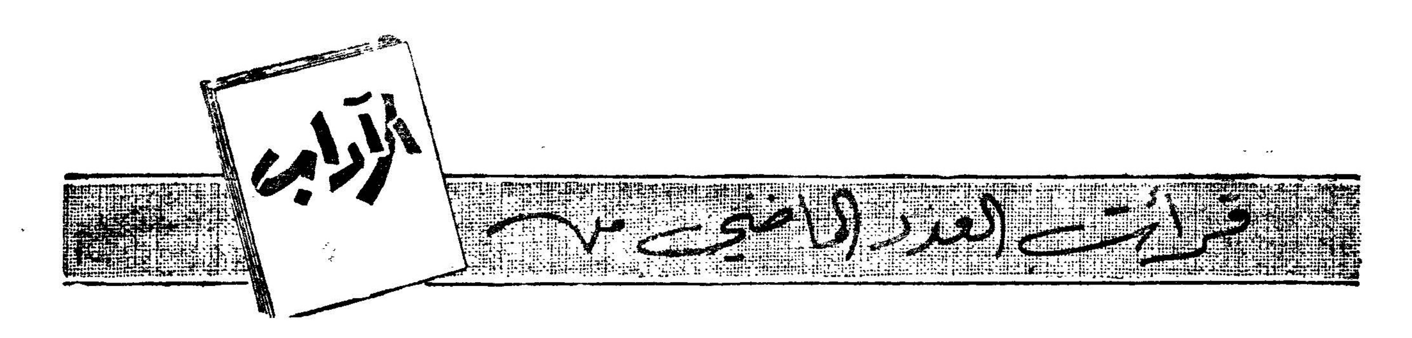
ولكن البندقية الحكيمة لم تستنفد قواها قط ! والحق ان شائعة كانت منتشرة في الغرب : ألم يكن في نية سكان البندقية ، بعد النهاية المخربة للحملة ، ان يتحالفوا مع الاسلام ؟ انه ليبدو واضحا على اية حال انهم قد احتفلوا احتفالا فائض الحيوية بالهزيمة المريعة التي أصابت ملك فرنسا القديس لويس !

حصاد شعب



زحفت مواكبنا .. فقل لصحائف المجد استعدي
هذا الذي غرسته كف الشعب ، في اليوم الاشد
هذا حصاد القـادرين ، علـى الارادة والتحدي
ولقد قدرنا ، رغـم بطش الاجنبي ، المستبـد
ولقد هدمنا ، كل ما في الامس من سجن وقيد
ولقد هزمنا ، كل ما في الارض ، من ضعف وحقد
ولقد عقدنا ، فـي طريـق نضالنا اكليـل ورد
يـا شعبنا .. وخطـاك اعصار ..
وصوتك صـوت رعـد
وبيارق الشهداء فوق ثراك مـن جـد لجد
والشمس حانية عليك ، تطل فـي تيه ووجـد
ترنو اليـك .. وانت ثـورة ثائرين لخير قصد
لحياة شعب .. وانتفاضة أمة .. وبناء مجـد
ولتصبح الحريـة الكبـرى ..
طريقـك دون حـد
يا ملهم الشعراء ، اروع شعرهـم يـوم التحدي
مـاذا أقدمه اليـك ؟
وانت كـل الشعـر عنـدي

محمد الفيتوري



القصص

بقلم الدكتور احمد كمال زكي

***

قدمت « الاداب » في العدد الماضي ثلاث قصص ، وهو عدد صغير اذا قيس بما اعتادت ان تقدمه كل شهر . ولكنها شاءت ان تنشر احدى صفحات تراثنا في عمل قصصي ، أقدم عليه الاستاذ رئيف خوري . وليس غريبا على هذا الكاتب ان يعنى بماضي العرب على ذلك النحو الكريم ، فكلما زادنا اتصالا بهذا الماضي ازداد فهمنا لواقعنا الوجداني كله . ومن ناحية اخرى فان المشاركة في بعث الماضي عن طريق مجلة تواكب احداث العصر ، لأجدى على فكرياتنا من تلك الكتب التي تدعو الدعوة نفسها ثم تنام فوق أحد الرفوف .

ومع ذلك فلن أناقش رئيف خوري في قصته ، لان المجلة أخرجتها من باب القصة فعلا ، ولانها فيما يبدو لم تعن كثيرا الا بما روته كتب الاخبار . فاستغنت عن تشريعات النقاد المختلفة ، واستعاضت عنها بربطنا الى قوميتنا من غير صخب ولا ضجيج .

وتبقى القصص الثلاث ، لثلاثة احدهم — على الاقل — دخيل على هذا الفن الشاق . وحين أقول الشاق ارجو ان اقف في سبيل كل من يظن ان كتابة القصة اسهل من قراءتها ، او انها اقصر طريق امام صاحبها كي يكون اديبا .

ان القصة تستمد مادتها من تجارب الانسانية ، ولا يحمل مسؤولية هذه التجارب الا الفنان الفاهم . وهو يتمثلها ليعيدها — حين يحس انها يجب ان تعود — في صورة تبدو كما لو كانت جديدة ، فتصبح من بعد محصلة فكر او مثار عاطفة ولا أقول مناط أمل . لان كل القاصين لا يبلغون مبلغ المبشرين ، او هم لا يحسنون حمل رسالة الاحتجاج بحيث يقدرون على تقويض الحواجز وازالة العوائق .

اقول هذا وفي يقيني ان واحدا على الاقل من ع. مطيع وانور قصيباتي وفتحي زكي يجب ان يتخلى عما نسميه في مصر « الحدوتة » لان هذه لم يعد لها كيان في القصة المعاصرة . بل هي ترجع الى تقاليد القرون الغابرة ، وتحول سير الفن الى طريق تنكبه وهو يصدر عن احساس رصين بروح التطور .

التحدي :

القصة الرسالة ظاهرة فنية أولع بها كثير من الادباء منذ لفت الى جدواها صمويل ريتشاردسون في القرن الثامن عشر ، وقد استغلت من بعده استغلالا رائعا في تحليل المشاعر بصورة تبدو فيها كأنها مجرد كشف لا زيف فيه ولا تمويه . وهي من هنا تنتمي الى ادب الاعترافات ، فتشبه الى حد ما رواية بول بورجيه « التلميذ » وتقترب من صنيع توفيق الحكيم في « زهرة العمر » .

واذا كان جيل الشباب لا يزال يغرى بها ، فلانها في كثير من الاحيان تبيح للقاص من المحظورات الفنية ما لا يرخص به في الاعمال الاخرى . وقد يصل الامر بها احيانا الى ان تخرج العمل الادبي كله من دائرة القصة ، فتكون من ثم مظهر تهرب اكثر منها مظهر مواجهة ، وتكون ايضا نقطة يؤخذ منها الاديب بما لا يحب .

ولست استطيع ان احدد تماما متى تصبح القصة الرسالة مجرد رسالة ، كذلك لا استطيع ان ابين الى أي حد تخضع مواقف الرسالة وايماءاتها لشروط القصة ، فالامر على هذا النحو معقد ، وفي امكان الكاتب الذي يواجه ناقده بعمله هذا المعقد ان ينكر كثيرا من الاحكام التي تصبح ضرورية جدا في الاعمال القصصية الخالصة .

اصدر عن هذا في سرعة وامامي قصة من المغرب بعنوان «التحدي» كاتبها آثر ان يخفي اسمه الاول — ولست ادري لماذا — واصطنع فيها اسلوب الرسالة ، فلم نحس الا ونحن امام مشكلة الناقد ازاء القصة الرسالة .

أترى « التحدي » قصة حقيقية أم هي رسالة ؟

ان شيئا فيها يؤكد انها قصة ، ولكن فيها أيضا اشياء تريد ان تسلبها صورة القصة . وأنا بين احتمالات القبول والرفض معجب بانطلاق الكاتب على رغم احساسي بأنه سجين شخصيته . ويدفعني هذا الاعجاب فجأة الى طرح القضية ، جانبا ، كي ألتفت الى ابعاد هذه الشخصية وهي تعيش فلسفة من ضاعت منه مقدساته .. الحقيقي منها والزائف على حد سواء !

المؤلف ع. مطيع — وهذا ما اقترح من اسمه — يشغله السأم والفراغ والعبث الذي يمارسه بكل موضوعية ، فيقدم في قصته او في رسالته رجلا يعيش ازمته .. بادئا به وهو يرد على كتاب وصله من صاحبته تبدي فيه استعدادها للحاق به مع انها زوج وأم ولد ، ولا نلبث ان نتبين بعد قليل من القراءة ان الرجل سجين منفي بجنوبي المغرب وان التهمة التي اخذ بها دينية ، وان تكن في الحق سياسية . فهو يكره الدخيل ، وهو يناوىء كل المتعاونين معه ، ولكن هؤلاء المتعاونين — وفيهم زوج صاحبته — لفقوا له الاتهام بعد ان وضعوه في صورة المواجهة بالالحاد .

فهل كان ملحدا ؟

انه يعترف لصاحبته بأنه لا يعرف التستر ولا المواربة ، وانه فعلا يتعجب لميتافيزيقيات البلهاء الذين يسامون بالانهزامية المطلقة . ثم لا يمنعه علمه بأن صاحبته من الصنف المؤمن فيقول « لا تندهشي لمصير ايماني فأنا لا زلت لم أجحد وجود الله ، الا انني أتساءل فقط عن فائدة وجوده » ويضيف انه ليس وحده في هذا الموقف ، وانما الكل ساخط لاعن .

وهنا نحس انه يصل الى جماع فلسفته .. السخط ، بكل ما فيه من انكار وعبث ، وقد تكون اللامبالاة حلا يلتمسه احيانا ، غير ان هذا الحل وقتي سرعان ما يذوب ليحس هو كأن حياته فقدت كل معنى — وهي تفقد الكرامة والاباء والاحساس بالحرية — فيؤذن له بالتفكير في الانتحار !

وتفكيره في الانتحار يتعارض مع تفكير صاحبته المؤمنة ، لانها ترى سبيلا الى الخلاص يسميه هو في رسالته بالمنفذ الشريف . ويرى ان مثل هذا المنفذ انتظار لا طائل وراءه ما دام أحد لا يأمل ان يتحرر التحرر الكامل ، بل ما دام أحد يعيش في سجن الرغبة في التحرر من كل سجن ، وما دامت النكسة تأخذ بتلابيب كل أهبة ويذوب فيها الايمان بحيث لا يبقى شيء يقود الى الحقيقة .

أهذه وجودية ؟

أن ع. مطيع يبسط مضمونا متأزما ، ولكنه لا يلبث أن يتعلق بلون عجيب من الرضى السلبي ، جذوره في قلبه الذي يعشق صاحبته . ومن اجل هذا الحب سيظل متمسكا بالحياة ، يسير ويسير ويسقط وينهض ويكافح الى ان يقضي . وليكن الفراغ كل ما يرى ، ولتكن اللامبالاة كل ما يستطيع عليه حتى وهو في سجنه الشاذ شذوذه والملائم مع « فراغية » نفسه . ولا بأس من أن يتأرجح بين اليأس والامل ، وليكن هذا التأرجح تعبيرا عن أزمته التي تحس التناقض وترى العبث او اللامعقول في كل شيء .

هذه اذن نزعة تجابه دائما بنشاز الحياة ، وان تكن تقبل عليه .. هذه نزعة الوجوديين ، ولا أعلم ان كان ع. مطيع واحدا منهم أم لا !

بقي شيء اخير هو :

أترى تحتمل القصة اسلوب المؤلف الذي قدم لنا فيه ازمته ؟ أشهد اني وجدت عسرا في فهم بعض ما يقصد ، وصرفتني اهتماماته اللغوية عن ان أعيش في يسر تجربته ، فضعت في عشرات من الفاظ اللامبالاة واللامعروف واللاوعي والسببية والفراغية والاكتفائية والحربائية والديمومة والحينونة والشساعة الزمانية واللامحدودية المكانية وهكذا ...

وتبلغ المعاناة أقصاها حين يكتب فيقول : « نقضي بها على الاعتلات والاكتفائية ... ونلتهب بها كهوف الحياة ممارق الحقيقة ... لطالما حبا هذا البئيس عله يقطع الطريق او زحف ساحبا مؤخره في قيظ الصحراء ورمضاء الهجيرة مستبلا أوارا ومستروقا لسانا » .

هذا لا يمكن ان يكون .. لان عهد المقامات انتهى منذ بعيد ، وان يكن ثمة من لا يزال يصطنع اسلوبها .

لا يمكن ان تكون مقامات الحريري وليالي سطيح وحديث عيسى بن هشام نموذج التعبير السهل الذي يريده عصرنا وهو يريد الايصال المباشر . واذا كانت فلول هذه المدرسة المتمثلة في محمود تيمور وعبد الحليم عبد الله — ناهلة من المنفلوطي ايضا — لا تزال تحظى باهتمامات البلاغيين ، فلا حاجة لمطيع أن يكون واحدا منهم .

بشارا :

بقدر ما ينقص « التحدي » من احداث تزدحم « بشارا » التي كتبها انور قصيباتي بما يجعلنا نسأل : أبكل هذه التفصيلات تكتب القصة القصيرة ؟

ذلك الرصد الدقيق للمواقف ، والذكريات المتشعبة المتقافزة ، والزمن الذي لم تختزله وحدة الشعور ، واللاحقات التي اصبحت اليوم نافلة في اكثر اعمال المحدثين .. أترى تحتملها قصة بشارا والمفروض انها ليست تلخيصا لرواية ما ؟

أنا شخصيا لا أميل الى هذا النوع من الكتابة ، ولكني اميل في الوقت نفسه الى ألا أفرض على القاصين الشكل الذي أحبه . وأدبنا ولله الحمد مليء بما لم يجزه أغلب النقاد ، وعدم رضاء واحد مثلي عنه لا يعني محوه من صفحات وجودنا الادبي .

واذن، فانا اناقش انور قصيباتي على هذا الاساس .. على اساس وجود محصلة باقية برغم تعارضها مع نظر النقاد ، وعلى اني لا ألزمه بتصوري الخاص للقصة . وقيمة عمله في هذه الحال رهينة بما قدمه هو داخل الاطار الذي اختاره ، في حدود شيئين : ماذا يريد ؟ وهل ما يريده يثري تجربة الانسان ؟

وتتلخص القصة — بعد حذف كثير من المواقف المفصلة — في التقاء شابين على هوى واحد سنة دراسية كاملة . الاول سوري يستغل فرص العطلات للانسياح في المناطق الاثرية ، والاخر ايراني اسمه « آية علي » اكثر منه شغفا بارتياد تلك المناطق .

وعقب السنة الدراسية تنقطع اخبار آية علي عن صديقه مدة ، ثم تصل اليه بطاقة دعوة منه تستزيره طهران ، وكان آية علي قد عين في وظيفة بمتحفها ، فأسرع الصديق اليه وتم اللقاء . ثم قاما برحلة الى كرمان حيث كان آية علي قد حلم بوجود مدينة أثرية فيها ، وقد تحقق حلمه !

وطرقا المدينة معا ، وفيها احس الصديق السوري بانفعال آية علي بمرأى المدينة ، ورأى كأن هناك سرا يجذبه الى ماضيها السحيق. وتأكد من وجود هذا السر عندما راح احد المحاضرين يسرد قصة المدينة مرتبطة بالأمير « زارا ط ابن حاكم جنوبي فارس المتقشف وزيارة « بشار ط أمير قندهار في وفد يمثل الثراء والجمال والأبهة . وقد بهت زارا وجذب الى الأمير بشار ولكن انجذابه كان في صورة مدينة فخمة أشار عليه معلمه الاغريقي ببنائها فورا ، حتى تليق بالأمير بشار متى زاره مرة أخرى .

وبنيت المدينة بعد سنوات في مرج خارج كرمان ، وأقيمت التماثيل الرائعة فيها ، وبلطت بالمرمر ارضها ، والحق بها مسرح وملعب رياضة وحوض سباحة . وهنا يبدأ زارا في السؤال عن بشار ، وكان قد انسي أمره سنوات . وعندما يعلم انه مات ينخلع قلبه ، ولكن مر بين الاغريقي يشير الى المدينة العظيمة ويقول مواسيا :

— هذا هو الامير بشار !

تلك كانت قصة المدينة الاثرية كما رواها المحاضر ، واما آية علي فلا يلبث بعد سماعها الا ريثما يستند الى أحد الاعمدة ، ثم يسقط فجأة جثة هامدة . ويعود الصديق السوري حزينا الى دمشق ليلح عليه خاطر غريب ، فيسأل : ترى من كان آية علي ، هل كان الأمير بشار أم كان الامير زارا ؟

وأسأله أنا بدوري تغريني فكرة التناسخ : واذا كان آية علي احدهما ، فهل يكون هو — الصديق السوري — الآخر ؟

ذلك النوع من القصص الذي يذكرني بألان كواترمن وهي أو عائشة والرجل الذئب وفرانكنشتين لا يمكن ان يكون ممثلا لروح العصر، لأن الانسانية اليوم صارت الى الايمان بالتجربة ونتائجها . وقد اصبح للأدب مهمة لايمكن أداؤها بالهروب الى الغيبيات ما كانت لتقدم شيئا، بل ثمة من يرى انه معاناة أية تجربة بمنطق يرفضه الواقع هو تدبير دونه عقم التجربة ان كانت عقيمة . واذا وضعنا في اعتبارنا أن على التجربة أن تزودنا بشيء ما ، فقد وجب اذن أن تعيش هذه التجربة تكاملنا الاجتماعي بكل اطرافه .

ولقد يمكن ان يقال ان ادب اليوم يلتمس حلول الازمة في اساطير الاولين ، والتناسخ على صعيد الأنتروبولوجيات شيء يمت بسبب الى هذه الاساطير . فأقول ان الاسطورة التي تعلق بها « حالة » الأديب هي دائما رفض او تحد أو رصد لضياع الانسان على مختلف العصور ، وليست كالتناسخ مجرد تقمص من أجل لا غاية .

في ضوء هذا نعود الى قصيباتي بسؤالينا : ماذا يريد ؟ وهل ما يريده يثري تجربة الانسان ؟ فنجيب انه لا يريد شيئا واضحا فيما يظهر ، وان كان يزعم انه يريد قضية التناسخ في حد ذاتها فيكفي لمؤاخذته بها انه لم يعرض لها الا في ابعادها القديمة .

عوض :

بهذا العنوان كتب فتحي زكي قصة . ويدهشني فتحي بشخصيته أكثر مما يدهشني بقصته ، لأنه فيما يبدو من حواره وروحه مصري ، وأنا لم أقرأ في مصر لفتحي أية قصة من قبل !

أنا المقصر لا هو ، فليس على الأديب أن يدور على النقاد ليقول : هاأنذا ، ولكن على الناقد ان يبحث عنه ولو في بلاد الواق الواق . ومع ذلك فلا اظن اني خسرت كثيرا لأني لم أقرأ لفتحي حتى الآن الا هذه القصة ، واذ يظهر أنه لا يزال في أول الطريق او على الأقل لا يزال يظن ان القصة مجموعة مفارقات تشد شفتي القارىء حينا وتدغدغ احساسه حينا آخر .

ولقد يكون من الطريف ان تكسب القصة واحدا كفتحي — وله

طاقة واعدة على السرد ـ ولكن الاطرف ان نسعى لأن نستجلي شخصيته من خلال عمل يبدو كما لو كان باكورة انتاجه الحقيقي . ولما كنا غير مستعدين لمناقشة الطريف والاطرف ـ لقصر الباع من ناحية وعدم تأكدنا من مسألة الباكورة ذاتها من ناحية اخرى ـ فقد يجمل بنا ان نعكف موضوعيا على قصته التي زحمها بالاحداث كما زحم قصيباتي قصته بها .

قال فتحي زكي انه لا يكره شيئا كما يكره العرس والجناز ، ولكن الظروف دفعته الى أن يشيع « عوض » الساعي في شركة « الافلام العربية » الى مثواه الاخير . وبين عملية الدفن واول لقاء بينه وبين عوض تمتهن آدميته في حوادث تجري على طريقة التداعيات ، فتتبين فيها كل التناقض الذي تتبناه الحياة . فعوض قبيح جدا ولكنه حلو الابتسامة دائما ، وهو خاوي الجيب ولكنه مليء بالحب والايثار ، وهو يسب ويرضى ، ويسجن من أجل زوج اخته ويرفض زوج الاخت ايواءه بعد خروجه من السجن فيعيش في حجرة عارية تماما ، ويغتابه زميله الحاج محمد ويقبل هو عليه وعلى اولاده .

وفجأة وبعد أن تكنس الارض كنسا بعوض تتغير ابتسامته ، ثم يختفي شهرا من مكتب الافلام العربية ليشيع بعد ذلك خبر موته !

ولا تنتهي القصة عند هذا فان الكاتب يؤثر أن يذهب بنا الى حجرته ، والى مكتب الصحة لاستخراج شهادة وفاة له ، والى مقابر الصدقة لدفنه . حتى اذا تم كل شيء ـ بعد قيل وقال وخذ وهات ـ وقدم ورقة الصحة للحفار تبين ان الورقة ليست له ، فكانت مفارقة غريبة تشبه المفارقة الكبرى التي تميز « عوض » عن غيره ، وهي انه كان دائما شخصا اخر او نمرة ٢ .. نعم فقد كان عوض « عوضا » حتى في دفنه !

ولا شيء اكثر من ذلك ...

بل ربما كان « هذا » أكثر تركيزا و « قصصية » من القصة نفسها، وفي رأيي أن عملا كهذا ـ وهو اشبه بان يكون ريبورتاج صحيفة او سيناريو فيلم ـ لا يمكن اخذه بأية مقاييس جديدة لأنه سيفقده ما يمتاز به من « تلفيقة » براقة . واكبر الظن ان فتحي زكي يوافقني على ذلك ، وعلى انه لم يقصد الى القصة بكل معاني القصة من حيث انها صورة لقطاع حياة معبر .

وفي شرط « التعبير » كل ما ندعو اليه من ايجابية تستهدف التبرير المنشود !

فهل تراه فعل ؟

ان معظمنا في الوقت الحاضر لا يحظى بمفاهيم حاسمة للاعمال القصصية ، ولكننا من غير شك نحس بشبه اجماع على أن تكون القصة احتجاجا من اجل قطاع حياتي يمكن تصويره برهافة الاديب الفنان . واحسب أن فتحي زكي لم يحاول أن يكون هذا الفنان ، وانما اكتفى بخفة الظل وبشاشة النكتة وكان الله يحب المحسنين .

وبعد .. فقد يمكن ان اقترح على فتحي زكي ان يدع ميدان القصة الى المخلصين لها ويتفرغ للسيناريو مثلا ، لولا قدرته على السرد ، وهي شيء لا يبعد أن تكون منه القصاص الموعود .

القاهرة **احمد كمال زكي**

القصائد

بقلم محيي الدين صبحي

***

اغنية عربية

الشاعر حسن النجمي يفضل ان يقدم شعره بتراتيل وثنية ذات رموز قريبة شفافة موحية . فهو يناجي اله الريح بعد ان قدم له قرابين الدم والنار ، ويشكره على أن قبل تضحياته وأعادها اليه مطرا وخصبا وثمارا .. غير ان البوم لا يكف عن الانذار بالشر ، في حين ان الشاعر لا يكف عن ترديد ابتهالاته ، حتى يحصل على بشرى بالمعاد الى الارض .. ويختم الشاعر قصيدته بوصفه للخصب وللامن الذي حال دون البوم وتعكير صفو الارض التي يعمل فيها صاحب الصوت .

ان القصيدة حسنة الصنع والمظهر ، فبالرغم من بنائها البسيط ، استطاعت ان تحدث في حيزها الصغير التأثير الفني الذي تبتغيه من خلق جو حولها خاص بها . وقد استطاعت قدرة الشاعر على التعبير بالصور ، ان ترسخ التأثير الذي يتطلبه هذا الجو البدائي من الصراع بين الخير والشر .. غير ان هذه الميزات كلها ليست اكثر من بوادر.. انها ملامح شخصية أصيلة لم تكتمل قسماتها بعد ، اذ ما يكاد التأثير يبدأ حتى تنتهي القصيدة ، وتترك القارىء يبحث عن المزيد .. انها جزء من قصيدة طويلة في نفس الشاعر ، نرجو أن ترى الضياء في يوم ...

اغنية اخاء

منذ حوالي اربعة أعوام ، أذكر انني كلفت بنقد الشعر في مجلة « الاداب » ، وكان فيها قصيدة للسيدة ملك عبد العزيز ، وجاءت خلاصة تحليلي للقصيدة سلبية ، فاذا بالناقد الكبير الدكتور محمد مندور يسخر قلمه للدفاع عن تلك القصيدة ، بل للاشادة بها . وقد طبع نشرة عن الشعر الحديث ، لعل اسمها « فن الشعر » اذا أسعفتني الذاكرة ، فاعتبر تلك القصيدة نموذجا للشعر الحديث . وكتب دراسة عنها في أحدى مقالاته ايضا . وقد اعتزمت يومئذ ان اهيىء دراسة للرد عليه وتوضيح تجنيه على الشعر الحديث ، وأجرؤ على القول انه لم يكهم تمام الفهم اصطلاحاته الفنية والروح التي يجب ان تمثلها القصيدة الحديثة عند الناقد حين يريد ان يطبقها على الشعر الحديث .

لكن دوامة الحياة في دمشق ، والحرص على عدم تفسير اختلاف الرأي تفسيرا غير أدبي ، دفعاني الى الصمت آنذاك ثم اهمال الموضوع وانني اذكره الان لتسجيل تلك البادرة على الدكتور مندور لمن يريد الرجوع اليها .

تتصف قصيدة « اغنية اخاء » بأنها مباشرة وفاقدة للتركيز وواعية اكثر مما يجب . وهذا كله يقربهـا من النثر ، ويضيع بعض الصور المعبرة بين اكوام التعبيرات النثرية المباشرة .

تتحدث الشاعرة في قصيدة من خمسة مقاطع عن الاخاء الانساني، وكيف انه لا يقوم على اللون بل على المحبة . وتتحدث الشاعرة ان هذا الاخاء يزيد في ثقتها بالناس ويجعل العالم رحبا امامها وبه يسود السلام والامن الحياة البشرية لبناء مستقبل احسن . وقد سلكت الشاعرة في طريقها الى صوغ هذه الافكار شعرا ، مسلك التعبير المباشر عن الفكرة مع ترجمتها الى صور تلونها وتضفي على جوهـا الصبغة الادبية لكي تخرج بها من حيز المقالة السياسية الى حيز الشعر . ولكي نبين طريقتها في الاداء ، سوف نقتبس من القصيدة المقطع الثاني ، وفيه تتحدث عن ان الاخاء يزيد ثقتها بالناس ويجعل العالم جميلا وادعا :

يا اخي
عندما ألقاك في بحر الحشود الزاخره
وأرى الايمان في وجهك كالفجر الطل
ثقتي بالناس ترتد الى قلبي فتعطيه الفرح
وأرى العالم حلوا ، ونديا ، وجديدا ،
كالنبات الطفل في نضرته
كالربيع الطفل في زهوته
كالصباح الطفل فوق الموج يلهو بالضياء ..

فقد مهدت للفكرة الاساسية ببيتين من الشعر تتحدث فيهما عن اللقاء الاخوي ، ثم عرضت فكرتها في البيت الثالث عرضا مباشرا بجملة مغرقة بالنثرية ، ثم عمدت الى تصوير الفرح في الابيات الاربعة التي تلت . وبذلك صار في هذا المقطع فكرتان : اللقاء والفرح ، والثانية نتيجة للاولى . وبذلك وقع العقل في حيز التسلسل المنطقي الذي يزيد من وعي القارىء ويبعده عن الذهول الذي يحدثه الشعر ، ويفقده الاحساس بالامتلاء او بالرعشة التي يبعثها الشعر في النفس حين ينتزع الروح الانسانية من واقعها الى عالمه المكثف الزاخم . وفقدان القصيدة للتوتر ، هو الذي عنيناه بقولنا آنفا انها (مباشرة ، وفاقدة للتركيز ، وواعية اكثر مما يجب) . ان منطق الشعر هو الانسجام الداخلي في الرؤية الخاصة للعالم ، وليس المنطق الفكري . كما ان التوتر الفني هو الذي يحدد نوعية الصور المتداعية واشتراكها في التأثير . اما المنطق العقلاني الذي يسود هذه القصيدة فانه يفقدها توترها العاطفي ويجعل القارىء قريبا من العالم اليومي العادي بدلا من ان يضعه ـ قسرا عنه ـ في غمار يوتوبيا يسودها الاخاء الانساني .

ان هذه القصيدة بحاجة الى اعادة صهر في النفس التي انتجتها، لكي تعود الى الظهور وقد زال عنها الوهن العصبي والتقسيمات المنطقية السطحية ، فتغدو معبرة عن عالم شعري حقيقي ، لا عن انشاء شعري يتمرن فيه الشاعر على نظم افكاره دون ان يجعل عاطفته تصهرها وتعيد تركيبها برؤيا جديدة عن العالم . وعند ذلك يصبح التقسيم الموسيقي هو الذي يفرض على الشاعر اماكن الوقوف ، وبداية اللحن من جديد كلما استنفد طاقته النغمية .

كومة من زجاج

هذه القصيدة عالم وصورة عن العالم . لقد ذكرني الشاعر ، الحق ، عبد العظيم ناجي في لوحاته الخمس التي صورها للمدينة وللحياة في المدينة ، بصور الفنانين المعاصرين حين يعرضون الحياة المعاصرة وبؤس الانسان فيها ، وعزلته وهزيمته . بل انه اتبع طريقتهم في انتقاء الالوان الكامدة من رمادية وزرقاء ، ورسم الصور المشوهة للمصابيح والاشجار ، ثم تقديم الانسان الهزيل الذي مسخته الحضارة وسباق الحياة وجوفت نفسه . كما انه ، مثلهم ، استخدم الطيور والجرذان والاطفال رموزا لفساد الحياة والظلم المحيط بالناس واليأس حتى من المستقبل ..

تبدأ القصيدة بصورة الفجر الرمادي وانسانين متعبين من النقاش والضجر والتشرد . غير ان الانسانين متمزقان ، والفجر مثل الدمل المزروع دودا . وبذلك تتشوه صورة العالم من اللحظة الاولى ، ويأتي بعد ذلك الذهول والقلق الاخرس :

نرسم الصمت على اعيننا
ونشد الزرد المفتول في اضلعنا ..

في المقطع الثاني يتحدث الشاعر عن هرم الحياة والزحام وخيبة الامل ، سوى ان البراءة تظل في بحث فطري عن الجمال مهما كانت شروط حياتها سيئة ، والحدس البريء صادق :

فعلى منحدر الصمت الكبير
استراحت سندريلا
في سرير من هزال ، وقميص من ألم
فالحياة ..
لم يكن فيها مكان لندم .

بعد ان جرب الشاعر الفكر والامل ، انطلق الى الشهوة لعله يجد فيها راحة من يأسه وقلقه . خرج من غرفته وأبخرة الجنس تغشي عينيه . فيرى المصابيح كأثداء النساء . أو كنساء عريت أفخاذهن .. وبما انه سئم فقد أضاف صفتي « المنتنة » و « العفنة » الى الصورتين حفاظا على وحدة الجو في القصيدة ومهـد للنهاية المؤسية . تحت شجرة الدردار ـ وهي رمز للشهوة في الادب الحديث ـ تتلقاه يد ناحلة وعيون جمدت فيها الحياة :

فترنحنا .. تهالكنا .. تشبثنا طويلا
واستحلنا غثيانا .. وامتقاعا .. وذهولا

في المقطع الرابع يجرب الشاعر العزلة في غرفة « عارية الحيطان تقتات السأم » فيبصر وجهه ويلمح اثر الايام عليه .. وتتوالى في ذهنه صوره وهو يكر في الذكرى الى ايام صباه ويرى آثار الشقاء تنطبع على قسماته في مختلف مراحل حياته وحين يذكر نفسه طفلا ، يسجل آثار الشر الذي هدم حياته ، فقد :

أهوت على الطفل الوديع
حدأة راعفة المنقار شوهاء الجناح
نقرت عينيه .. عضت وجنتيه ..

فتشوه وجهه وتشوهت نفسه ولم يعد يعرف للحياة طيبا ولا أمنية : اذ ماذا يستفيد الانسان اذا ربح العالم وخسر نفسه ..

لكن الشاعر يثور .. يهيجه الالم .. فيحطم المرآة ، وتتهاوى صور حياته فوق الشظايا : كومة من زجاج .. ويخرج من غرفته الى المدينة غير الواعية ، التي توحي بالضجر ، وتثير الشهوة ، وتلقي بالانسان في زحمة الحياة ...

ـ التتمة على الصفحة ٦٥ ـ

تائه ... على الخليج

عند المدى المسدود ألقينا الرحال
جمحت مراسينا ..
لوت أعناقنا ريح الزوالْ ..
ماذا .. وأطرقت العيونْ
وتحدر الصمت الحزينْ
وامتد من خلف الظلالْ
شيء يشد الراحلين
يلقي بهم في هوة المجهول في رعب المحال ..
شيء كخطوهمو سجين
لم يبق غير صدى لهاث .. وقع أيام ثقالْ
وعزيف لحن خافت .. عبر المفاوز .. فاستحال
بعض اصطبار .. بعض تأساء .. وحشرجة ابتهال
يا عابرين متاهة النسيان من خلف الليالْ
يا راكضين مع الشعاب مضرجين بلا ملالْ
الهاربين اذا رؤى الماضي تمطت في العيونْ
أنا بعض رحلكمو على ظهر السفينْ
لو انها طافت على البلد الامين ..
يا جانحين الى الخليج كأن فردوس السنين
هبطت به الدنيا على قاع التلالْ ..
فاذا الذي يوما ظنناه ينال ..
وهم خريفي .. تسرب في الرمال

***

هذا المسجى .. شاحبا أبدا أراه
في وجهه الزيتي شيء قد تقلص في الشفاهْ
شيء يغيم .. ولا يبين ..
وكأنه ثأر قديم كم تنوء به يداهْ
وأمر .. تلطمني صواه .. كأن كفيه سؤال
أو لعنة جمدت على وجه تسربل بالضلال ..
جمدت وأدركها الملال ..
هذا المسجى .. تحت مجذاف السفينْ
في صمته اللجي قاع سرمدي كالخيال
مخرته أحزان الرجال .. طوته أنياب القرون
يعطي ويمنح لم يزل .. دنيا من الرزق الحلال
الا بقايا قصة هو بانتفاضتها ضنينْ
يا ويحه .. خطوى المهين ..
وأنا أشد اليه ايامي .. فيدركها الكلال ..
هيهات ترتعش الحياه ..
وهنا .. وترتفع الجباه ..
عن حفرة عبر الطريق .. تشد أعناق الرجال

***

يا تائها عند الخليج .. يكاد يلفظك الخليج ..
أبدا تهاتي بالحكايات الطوالْ
وتظل تهرف .. والاكف تشير نحوك بالجنون
فاذا الحقيقة في عيونهمو خبال
واذا التغني في قلوبهمو نشيجْ ..
والهفتا .. لو انقذتك يد السنينْ
وعرفت ان البعض شيء لا يقال
. . . .
الوهم يعصف بالرجالْ !

فاروق شوشه

عائم في لندن

قصة بقلم يوسف شرورو

أكلت عيناه الصغيرتان ، التقاطيع التي كانت نضرة في وجهي ثم قال بغضب :

ــ الى أين ؟؟

قلت بصوت كسول : ــ محطة ((سويس كوتج)) من فضلك .

غاب قليلا ، ثم عاد ليقذف امام وجهي ، تذكرة كرتونية صغيرة . لم يبتسم . لم يقل شكرا كعادته . ألقيت نقودا انكليزية ثقيلة على حافة الشباك ، وهرولت ليحملني السلم المتحرك ويلقي بي في داخل النفق العميق في محطة ((اكسفورد سركيس)) .

عيون الناس تدور بحركات رتيبة لا حياة فيها . شاب اسود يقف في ركن معتم ، ويغني اغنية افريقية حزينة . الاعلانات الملونة الجميلة، تدعو الناس لشراء زجاجات الويسكي والبيرة . امرأة عجوز تتأملني وتبتسم لي من بعيد . شاب صغير لم ينبت الشعر في ذقنه الاملس ، دفن وجهه ، وراح يقبل فتاة شعرها احمر مصبوغ . أحد السكارى يتقدم نحوي ويقول بلهجة حزينة جدا :

ــ أعطني سيجارة أرجوك .

صوت القطار الرمادي يهدر من بعيد . انه قطاري الذي سيضعني في جوفه عما قليل . العالم يحتضر ويموت . لندن ليلها مخيف لانسان حالم . القطار يقف امامي ، اخترت مقعدا وجلست . في جيبي الداخلي تنام رسالة عربية فيها نقود وكلمات حب . كم أحببت صباح هذا اليوم . ساعي البريد سأل عن اسمي . وزعقت ((جين)) بصوت رجولي : ــ ياسين لك رسالة مسجلة من دمشق . وغمرتني موجة دافئة ، شلال حنان تدفق من بين جدران غرفتي الورقية الملونة . السؤال في فمي يرتجف خائفا . من ارسل الي هذه الرسالة ؟ لقد نسيني الجميع . لم يكتبوا لي منذ زمن طويل . النور الضئيل الذي كان يتسرب الى حياتي من شقوق صغيرة ، مات وتوارى خلف بيوت عربية في بلادي . الغربة أكلت النور من عيني ، وجعلتني أقف الساعات الطوال في معمل انكليزي للاسمنت ، لادفع اجرة غرفتي الصغيرة ، وقسط الكلية السنوي ، ولاشتري كتابا وجريدة ورغيفا كبيرا يكفي لعدة ايام . لم يرسلوا لي اية رسالة حلوة ، عريشة كلماتهم الخضراء ، جفت وذبلت وابتلعتها الارض . لم استطع ان ارش لهم ابتسامات متألقة .

وعادت ((جين)) لتصرخ بصوتها الخشن : ــ ياسين ، الرسالة فيها نقود .

يدي كانت ترتعش ، الرسالة قارب ازرق صغير ، حمل الي الامل والحب ، رائحة كوجه فتاة دمشقية تسير حالمة في شارع بغداد المظلل بأشجار خضراء ، لم لا اقبلها ؟ ففيها رائحة من بلادي .

ــ افتح الرسالة بسرعة ، انك تقتلني بهذه الرومانسية الشرقية .

خمسون جنيها ، لم لا أرقص ؟ احتضنت ((جين)) وطفت بها داخل المطبخ الصغير . قلت بصوت فرح :

ــ سأدفع لك اجرة الغرفة ، وسنأكل دجاجة نصف كبيرة ، وسأشتري قميصا جديدا . رسم الامتحان سأدفعه غدا . لن اذهب الى المعمل البغيض لمدة اسبوعين . وسأحضر معي علبة دخان كبيرة ، تنام داخلها عشرون سيجارة ، والان أعطني سيجارة يا ((جين)) .

ابتسمت اللعينة ، وقدمت لي السيجارة الفاخرة . قالت وهي تبتسم :

ــ أنا أفهمك جيدا ايها العربي .

الشيك لم اصرفه ، فالبنوك مغلقة ، والساعة بعد العاشرة ليلا . سيدة انكليزية تقتعد الكرسي المقابل لي . نقلت فخذها الايمن وأراحته على الفخذ الاخر ، الشعر الاسود يتطاول بحلاوة في رجليها . المحطة الثانية ، محطتي . الاحرف اللاتينية الكبيرة كانت تعلن عن محطة ((سويس كوتج)) . سرقت نظرة قصيرة الى فخذي السيدة الانكليزية ، وسرت نحو سلم متحرك اخر ، قاذفا بي هذه المرة الى سطح الارض . أعطيت التذكرة لامرأة زنجية بدينة ، ابتسمت لي بشفافية حنونة كبسمة طفل رضيع .

الشارع العريض يغسله مطر منعش خفيف . النقود في جيبي لا تكفي ثمنا لفنجان قهوة . الشيك سوف أحوله الى جنيهات غدا في الساعة التاسعة صباحا . بيتي في ضاحية قريبة من لندن ، اخترتها لرخص الحياة فيها . ثمن تذكرة العودة لا أجده . سأقضي ليلتي هذه في مقهى ((الروليتا)) حيث اقتل الوقت بالحديث مع الشباب المتمرد . أعرف صديقا عربيا يسكن في هذه المنطقة ، ويدرس الاقتصاد السياسي في جامعة لندن ، ولكن الدخول الى غرفته يجب ان يكون قبل العاشرة ليلا . لندن مقرفة في قانونها الكئيب حول الزيارات الليلية . بائع الجرائد الليلية ينادي بصوت معتق كالخمر الذي شربه . سيارة جاكوار بيضاء حاولت سحقي ، وأطل صاحبها المصاب بالشذوذ الجنسي ليعتذر ، ويدعوني الى حفلة شراب في حانة ((الكلب الاسود)) قلت له بجفاف :

ــ صوتك ممطوط بارد لا احبه .

أضواء ((الروليتا)) الشاحبة ، تقترب مني . الباب الخشبي بلا زجاج . حلقات صغيرة ، من الشباب الانكليزي يتحدثون عن اخر كتاب أخرجته المطبعة لكولن ويلسون .

قال شاب وجهه كبوز كلب :

ــ ويلسون انتهى ، التزم الدفاع عن المصابين بالشذوذ الجنسي، ودار حوله في كل كتبه . ويلسون مات كواحد منا . انه يسكن في فيلا انيقة في ((هامستيد هيث)) وقد باع خيمة التشرد .

وقام ((أريك)) ليرحب بي بوجه ضاحك أحب فيه استقامة أنفه وقال بسرعة :

ــ أيها العربي ، بلادك أعطتني شحنة من حياة ، بلادك ما زالت تصنع الثورة ، وتكتب الشعر البطولي الجميل . اليوم قرأت قصيدة عربية ، جعلتني أرتجف ، وأتحول الى حشرة سوداء .

وابتسمت له . ((اريك)) يدرس الادب الانكليزي في جامعة لندن ، ويرخي شعره الاشقر القذر ، ويربي قذارة متعفنة تحت اظافره الطويلة . قال معرفا افراد حلقته .

ــ ((لوسي)) من اكسفورد تدرس الفلسفة ، وتكره المساحيق النسائية . ((باري)) تعرفه منذ القديم ، انه متقاعد عن العمل ، والحكومة تدفع له ثمن القهوة والسجاير . ((فكتور)) يسرق لنا الطعام، ويكتب القصص القصيرة عن حياتنا . وهذه ((باتريشا)) صغيرة من ((مانشستر)) تعمل في أحد البنوك ، وتصرف لنا ثمن الحليب

الصباحي .

ثم قال بلهجة خطابية : ياسين ، عربي ، يؤمن بالثورة ، ويدرس القانون الدولي ، ويحفظ اشعارا عالية يرف لها انسان العين .

وجلست بينهم ، وجاءني صوت فيه طفولة محببة قائلا :

ـ الحياة هي أن تعيش . ت.س. اليوت ، متعجرف لا يفهم ما يكتب . أنا لن انسى بأنني امرأة وجسدي شبق . الخجل يعيش في النصف الثاني من الكرة الارضية . سأدعو كل انسان تجذبني رجولته الى سريري .

وضحكت وجوه ، وتطايرت نقاط فنجان قهوة ، وذهب شاب ليحرك اسطوانة حب همجي .. وجاءت فتاة جسمها لوحة سريالية وسألتني عما اريد . قلت وأنا أتفرس في وجهها الجميل :

ـ قهوة سوداء .

البوليس الطويل ، يحوم بخفة حول المقهى ، وينظر بعينين ثعلبيتين الى الوجوه . الشارع خارج المكان ، خامد لا حياة فيه ، زخات المطر لم تنقطع . الليل في لندن يرعبني ، ويشل حركة دمي . لندن أحبها وأنام متسكعا على مقاعد محطاتها . السماء التي ترتفع فوقها ، كئيبة حزينة ، تبكي باستمرار ، ونوافذ بناياتها تحجبها عن العالم الخارجي ستائر سميكة تقتل الضوء ، وتمنعه من التسرب .

فتاة المقهى السريالية تحضر القهوة ، وتأخذ « شلنا » مدورا . لوسي طالبة الفلسفة تسأل بصوت ناعم :

ـ ماذا تفعل هنا أيها العربي ؟

وصدمني السؤال ، وحملني بعيدا الى بلادي النيسانية الرائعة ، حيث يصنعون الايام ، ويبتسمون بحب اخضر ، ويشربون الشاي الاحمر الغامق ، ويأكلون الكبة النية ، ويرشون زيت الزيتون على صحون الفول . أمي هناك تبكي ولدا لم تره منذ سنين ، والاصدقاء يمضغون الهواء في مقهى « الهافانا » ويحلمون بالمجد العريض ، وأنا أعيش وحيدا كنبتة صحراوية مرة لا حياة فيها . الحياة تتقاذفني ، تركلني كل يوم جديد ، الى مدينة اوروبية جديدة ، الى وجوه جديدة ، أعيش متفرجا ومراقبا وحالما بعودة زاهية ، كعودة الابطال .

وجاء السؤال مرة ثانية :

ـ ماذا تفعل هنا ايها العربي ؟ هل انت بخير الان ؟

ـ أحمل في داخلي ، أملا صغيرا قد ينمو فيتطاول كسهول القمح الخضراء في بلادي ، وأحيانا أعيش أياما متشابهة كأيام سجين أبدي . أحاديث لا لذة فكرية فيها . وجوه مارة كمرور يوم شتوي . لندن يا « لوسي » تذكرني بكل الوجوه التي أحبها وسأبقى أحبها . لندن صنعت مني غريبا لا يعرف الاستقرار .

علامات الاستفهام الغريبة ، ارتسمت بوضوح على وجوههم الشابة . تبرع « أريك » بالحديث وقال ويده تلعب بعلبة كبريت فارغة :

ـ ياسين عربي ، والعرب احاديثهم عميقة ، تحمل عدة معان . الفلسفة هم أول من شرحها وكتبعنها . ياسين يشعر بالتمزق وبالحزن لانه يعيش هنا . وفي بلاده يعيشون حياة ثورية جديدة ، يقودها كل الشباب . انها ـ كما قال لي ـ خطوة ثابتة وجديدة نحو مدينته : ياسين ، من فلسطين التي تسمى الان « اسرائيل » . وهو يدرس القانون الدولي الان .

الدائرة الحضورية لم أعد أعيشها في « الروليتا » المدن الكثيرة التي عشت فيها برزت أحرفها امام وجهي وعلى جدران المقهى . أنا فقدت كل شيء يجذبني للحياة ، كنت اعيش في مدينة صغيرة ، رائعة بستانية المظهر ، اناسها طيبون لا يأكلون بعضهم بألسنة حادة . ثم حدثت هجرة جماعية كهجرة اسراب من الطيور الصغيرة الخائفة ، وذهبت الى مدينة تاريخية قديمة ، أناسها قلوبهم خضراء حلوة كأوراق الشجر . المدينة كانت دمشق ، وكانت لي فيها حيوات ، واصدقاء ، وبلاطات رصيف نظيف ، ومقبرة اقضي فيها اوقاتي مع صديق يكتب القصص المغلفة بالحزن ، ويؤمن بان العالم سيغرق . واخذت شهادة ، وذهبت لاعمل في بلاد جافة أعطتني المال الكثير . وحملتني باخرة ، ثم طائرة الى مدن اوروبية مخيفة ، أطعمتني الغربة الرمادية الكئيبة ، وزرعت في داخلي ، حنانا وشوقا وحبا لبلادي المستلقية خلف البحار الزرق الداكنة .

وسمعت فكتور يقول :

ـ كل صباح أيها الاصدقاء اسأل الحشرة البشعة التي تعيش في داخلي ، ماذا فعلت البارحة ؟؟ وتبتسم الحشرة بسمة فيها سخرية قاتلة ، وتجيب « سأبقى طيلة عمري حشرة » . كيف اقتل هذه الحشرة ايها الاصدقاء ؟

واقترب مني وهمس :

ـ قل لي كيف أقتلها فهي تمتص حياتي بشراهة مرعبة !

ـ اقرأ رواية كافكا المسماة « المسخ » وعندها ستموت حشرتك اللعينة .

وانتفضت باتريشا التي تسجل الارقام في أحد البنوك قائلة :

ـ أنا لا أثق بأي وجه يتوسطه أنف غير مستقيم . كافكا يهودي أنفه أقنى لا يبعث الثقة في نفسي . كافكا كان حشرة قتلته بشاعته .

أجاب « باري » المتقاعد الابدي :

ـ باتريشا . انك تحملين لسانا حادا كحجر صوان كما قال لوركا . وانت ايضا حادة وعقيمة كأشواك الصحراء .

ـ أنا أعرف لماذا تطلق علي لقب « عقيمة » ! قلت لي بأنني فتاة بدون خبرة . انت الذي كنت تبكي كالطفل الاخرق عندما ماتت رجولتك في سريري . أنت لا تنفع لمضاجعة الفتيات ، أنفك غير مستقيم لا أثق في حامله .

وضحكنا . وماتت الابتسامة على وجه « باري » وقام ليحضر

سجائر جديدة من آلة البيع . وذهب « اريك » ليدخل حديث الجنس ليدلل على رجولته فقال وهو ينصب قامته الطويلة :

ـ أنا اذكرها دوما ، كانت من جنيف . كان فمها شهوانيا . عيناها كبيرتان ضائعتان في البعيد البعيد . أطبقت بعنف مؤلم على شفتي ، ذكرتني « بالمركيز دي ساد » ، انتزعت من داخل فمي لسانها. ذقت عسل فمها ، كانت مغمضة العينين . أحسست بأنني أموج كالبركان . قمت ، اغتسلت ، دخنت لفافة تبغ ، ثم سمعنا موسيقى . كانت امرأة تعرف أين يختبىء الرجل الفحل !

قلت بصوت حزين :

ـ اسمعوا يا جماعة . عندما كنت أعيش في بلادي فكرت بأن المطر والضباب والحياة الاوروبية ، سوف تزيل الادران العالقة في جسدي ، ولكن بعد ان عشت هنا ، أعتقد بأن الشمس التي تحتضن بلادي هي خير من يغسل الادران التي حملتها من اوروبا ، لذا أفكر الان بالعودة .

وقال صوت لرجل عجوز كان يجلس خلفنا ويستمع الى احاديثنا :

ـ أنتم تعيشون في شفافية كالفراشات الملونة . ومن بلادكم سوف تنطلق الحضارة الحديثة . أما نحن فنعيش كأسراب الجراد التي تأكل كل الحيوات . نحن نعيش في بلاد السردين المعلب .

قال فكتور بصوته العميق :

ـ لا تقرأ قصصا اميركية المحتوى ، اقرأ عن النمل البشري الذي ينظم صفوفه في محطات « الاندر غراوند » اللندنية .

أجاب العجوز بسرعة :

ـ وجهك منتفخ كوجوه الكسالى . وداعا يا كسول .

البوليس الطويل ما زال يحوم حول المقهى ، والحلقات بدأت تتبعثر في شوارع « سويس كوتج » و « فنشلي رود » . موعد الاغلاق اصبح قريبا . الساعات في أيديهم قديمة ولكنها جيدة ، الواحدة بعد دقائق و « أريك » ما زال يقول بلهجة جامعية مثقفة :

ـ الحياة ماذا ؟؟ هل سألتم أنفسكم هذا السؤال الضخم الذي يحمل سخفا عميقا في داخله ؟ الحياة ماذا ؟؟ قال لي احد الرجال يوما بأن الحياة شجرة نبتت ميتة . ولكن لضعف فينا وضعنا لها سمادا ، سقيناها ماء ، وسيجناها عنبا ، ووضعناها تحت بصرنا . الله نحن الذين أوجدناه . الاخلاق كتبنا عنها الكثير حتى نحفظ انفسنا من الانهيار . القانون وضعناه حتى نوجد المحاكم والقضاة والمحامين .

وجدت نفسي اجيب :

ـ الحياة ماذا يا « أريك » ؟؟ أنا أعرف بأن الدنيا والناس هم الحياة . أنتم هنا تهرولون كدواليب مهترئة نحو نهاية الممر دون التعمق او النظر . الحياة ممر ضيق ، على جانبيه أبواب ماونة بالوان مختلفة . حاول ان تطرق جميع هذه الابواب . ادخلها . اكتشف أسرارها . عش مع اناسها . وعندما تصل نهاية الممر ، تكون قد رأيت الحياة .

وهمست فتاة المقهى السريالية :

ـ وهنا انتهت ساعات أحاديثكم . سنغلق .

الليل في الخارج ممطر ، وأعمدة كهربائية تلقي ضوءا ذابلا وبوليس طويل ، وحلقات تتبعثر ضاحكة تبحث عن أمكنة اخرى لتقضي فيها وقتا عابثا بلا محتوى .

وسرت وحيدا ، مرة ثانية ، لا احمل نقودا لانام في فندق رخيص، وأصدقائي نيام في غرفهم الفقيرة العارية ، وغرف الانتظار في محطات القطار تستقبل امثالي ممن لا يجدون أمكنة فيها فراش ومخدات . المسافة بين « سويس كوتج » وأقرب محطة قطار ، تأخذ مني سيرا على قدمين طويلتين ، أكثر من ساعة زمنية .

ورسمت خطة . السير الى « بيكر ستريت » ثم الى محطة « بادينكتن » . عربات التاكسي السوداء ، تمر مسرعة كتوابيت مغلقة. أبي كان طويلا ، وفمه يشرق ببسمة صباحية .. أذكره ذاك الصباح . قالوا لي : « قم لقد مات ابوك . انت يتيم . انتم ايتام » . كنا صغارا ، السنوات العشر لم نعرفها . كان لنا اخوة يعملون .. قالوا بأنهم سوف يضمونا في عيونهم . اخي الكبير جاء وقال لي : « خذ هذه النقود ، واذهب لتمسح نعليك » . وذهبت . الحزن لم اعرفه ، فانا لا افهمه . ومرت سيارة مستشفى بيضاء مفسولة تحمل ميتا . كانت تحمل جثمان والدي. وسأل ماسح الاحذية : « من الميت أيها الصغير ؟! » قلت وأنا أبتسم : « كان ابي » .

وبعد ابي عرفت معنى الحزن واليتم . لندن زرعت حزنا وغربة في نفسي . انا يتيم من حب الناس الذين يعيشون في بلادي . لِمَ أتألم ؟ فهم الان ينامون مع زوجاتهم النظيفات . يتنفسون بهدوء مريح . وبائع الحليب القادم من جوبر او دوما يطرق أبوابهم في الصباح الباكر قائلا بلهجة جميلة : « صباح الخير خانم » . لِمَ أتألم ؟ وصديقي الذي يكتب قصصا حزينة ، يكرع العرق الحليب ، ويهمس للفتاة التي تجالسه بحزن أصيل : « قصتي القادمة ستكون عنك أيتها القرنفلة الحمراء » . لِمَ أتألم والجامعات في بلادي تخرج مئات المثقفين الذين يجلسون حول الموائد ويثرثرون حول معنى الحياة ، ويقذفون بكلمات مسجلة من ماركة السأم ، الضياع ، اللاجدوى ، اللاانتماء ، التمزق ، الغثيان ، الوجع . سارتر أيها الثرثار الكبير ، لونت الشباب في بلادي . لِمَ أتألم والشباب في بلادي يعملون ويعملون ، ولا يلتكون الى عشاق السأم والضياع ؟!

امرأة انكليزية تتبخطر من بعيد .. انها الان تحدثني قائلة :

ـ من المحزن ان تقضي ليلتك وحيدا مع أعمدة الكهرباء ، ورجال البوليس . غرفتي هنا ، سريرها واسع عريض ، وبابها خارجي لا يتصل بأحد . ستشتري قهوة تدفع ثمنها أنت .

ضحكت لها وقلت : ـ هل معك سيجارة ؟ أنا لا احمل نقودا .

تابعت سيرها ، وتركتني .

كم من الليالي الطويلة الباردة قضيتها مشردا ، أضرب في شوارع اوروبية متشابهة لا نهايات لها . الغربة تلازمني كقطع جليدية لا تعشق الذوبان . اخي الكبير يقود سيارته الاميركية الطويلة ، ويحمل ألعابا لاطفاله ، تكفي لان تمدني بحياة طويلة هنا. الرسالة التي وصلتني لم تكن منه .. كانت دينا قديما على انسان عمل معي اجيرا في مدرسة صباحية . ولادب فيهم اطلقوا علينا اسم « مدرسون » .

أذكر انني قابلت فتاة عربية كانت تدرس الرسم الزيتي في جنوا . وتعشق لوحات « فان غوخ » وتحب ألوان « غوغان » . قالت لي وهي ساهمة : « ياسين في عينيك ضباب كثيف لن تمحوه الايام » . وقبل ان تنفلت يدي من بين يديها ، قالت لي والبهجة تشرق من عينيها الواسعتين : « ياسين . يجب ان تبقى على اتصال معي ، فالحديث بيننا ممتع . لن اجد غيرك يحدثني عن الالوان . أنت جعلتني أحس بنفسي خفيفة كفراشة . الحياة كما قلت ، الوان . اليوم الذي نعيشه معا ، سألونه ، باللون البرتقالي الذي يشع بالحياة . الحياة كما قال « رامبو » يجب ان تعاش . الموت سيكون حلوا للانسان الذي يفكر ان القضية الاساسية في الفلسفة هي الانتحار ، كما كتب «كامو» . احيانا يا ياسين افكر بالمغادرة . ولكن أنا أحس الان بأن للحياة استمرارية متدفقة كجريان الانهار » .

وغادرت نهى الى جامعتها في بيروت ، وجئت انا الى لندن ، وكانت رسالتها الاولى قصيرة وحلوة « لِمَ سافرت ؟ كم كان رائعا ان نتحدث معا . الدراسة في الفلسفة مبهجة . ولكن أحاديثنا كلها بهجة وفرح » .

أذكر انني كتبت لها « يا نهى ، من نافذتي الكبيرة ، ذات اللون

الزجاجي المكسور ، ياتيني قمر هرم كسيح ، أنا هنـــا كئيب غريب . أفكر دوما ، بأن الانسان تنفلت منه الحيـــاة ، كالماء الذي يتسرب الى شقوق الارض اليابسة . كنت قد قلت لك ، بأن حياتي ثقوب ، ومـن هذه الثقوب تسربت الحياة » .

ومنذ سنة ، لم أعد أجد في عيني ظلا من شمس . ذهبت نهى . لم تعد تكتب الي كالاخرين . الحيـــاة أفرغت مني . فأنا كالزجاجـة الفارغة القابلة للانكسار كل لحظة . النور مات . لماذا مات يا نهى ؟؟

المقاعد في غرفة انتظار المحطة خالية .. اخترت مقعدا في ركـن بعيد وجلست لانـــام . امرأة زنجية اخرى تقـوم بتنظيف المكان . المراحيض هناك تجلب دفئا أكثر . غسلت وجهي ، ورأيت عيني لاول مرة . الصفرة بقع كثيرة تحيط بالوجه العربي الذي أحمله . قصاصات من الورق ، تتطاير في ساحة المحطة المسقوفة بألواح زجاجية سميكة . اخذت جريدة قديمة من سلة شبكيـــة ، وذهبت لاقرأ . النوم ثقيل ولذيذ . السرير سيكون هذه الليلة ، طاولة قذرة عليها آثار قهـوة بالحليب . المرأة الزنجيـــة حملت لي فنجان شاي . ابتسمت لها بدفء . كانت أما .

نمت . كانت الدنيا ليلا شاحبا كوجه مريض . العيون كلهـا ، عيون المسافرين في قطار الساعة السادسة صباحا ، كانت تنظر الي . وانطلق الصفير ، وجاء بوليس شاب ، وبدأ يسأل السبعة أشخاص ، ممن قضوا الليلة معي في غرفة الانتظار ، عن نقود . وقد رأيته يعطي اكثر من واحـــد منا ، سيجـــارة وثمن كوب من الشاي الساخن . نظر الي طويلا ، وأحس بخجل أحمر . لم يوجه الي سؤالا ، ملابسي كانت جيـــدة ، ووجهي كان باسما ، وأمامـي تستلقي جريدة المساء السابق . ابتسم وذهب .

مرة ، عندما كنت في دمشق ، قالت لي أختي الصغيرة : ـ هل تدري يا ياسين ان عمتنا أخبرتني يوما ، بأن الناس منذ خمسين عاما كانوا يبكون بحرارة عندما يحل الليل .

ـ لماذا يا أخت ؟؟

ـ لان نهارا آخر مات من عمرهم .

في هـــذا الصباح ، عندما ذهبت لاغسل وجهي فـي مراحيض « بادينكتن » بكيت طويلا ، على خمس سنوات ، تسربت قطرة قطرة ، في مجاري المدن الاوروبية . وكنت أقف مع عامل المصعد في شـــارع « ريجنت » ، انتظر الساعة التاسعة .

قال لي أمين الصندوق :

ـ لم نرك منذ زمن طويل .

ـ لقد مت في غرفـــة صغيرة . ثم جـــاءتني رسالة فيها هذا الشيك . فأخرجتني للحياة مرة اخرى .

النقود في جيبي الان ، كثيرة . أوراق زرقاء طبعت عليها صـور الملكة ذات الفم الكبير . المعدة فارغة ، فارغة ، والمطعم الهندي يقدم لي طعاما عربيا شهيا .. كم هو جميل حقا ، ان تشعر بأن في جيبك نقودا كثيرة ! اشتريت جريدة « الاوبزرفر » ودجاجة كبيرة ، وأخذت طريقي الى محطة فكتوريا .

قلت لقاطع التذاكر وأنا أبتسم له :

ـ تذكرة ذهاب الى برايتون من فضلك .

وفي القطار ، لا أدري كيف جاءت كلمات « فكتور » تموج كحرارة استوائية داخل عقلي . فقـــد سألت الحشرة البشعـة التي تعيش فيه قائلا :

ـ ماذا فعلت البارحة ؟؟

قالت بسخرية قائلة : ـ سأبقى طيلة عمري حشرة .

لندن — يوسف شرورو

أزمة التطور العربي

بقلم برهان غليون

بانبثاق التكون الشعبي للمجتمع المعاصر ، ترسمت في الافق ، خطوط منطلقات واهداف ثورية جديدة ، بما تشتمل عليه من مقومات فكرية وثقافية وما تحمله من نوازع تاريخية ، وسياسية ، أكدت من جديد ، اهداف التطور الحديث ، وشبكته بمنطق الاحداث الاجتماعية المتصاعدة في نسغ الازمنة ، مكونة الواقعة ، طفرة لانبثاقة آنية ومستمرة بنفس الوقت ، واقعة تشتق من التاريخ ، القيمة والمقياس ، باحتضانها الماضي والمستقبل ، الامكانية والخلق ، الفعل والحركة . ومن ذلك التكون يمكن للثورة ، ان تكتسب مضامين اجتماعية اخصب ، تغني تجربتها وحسها الحضاري ، وتفتح للتاريخ اطلاقية قيمها الحرة ، ومنها يمكن للثوري ان يتابع ازمة نشوئه وتطوره .

وان الشك في جدوى الحاضر ، المتضمن صوت الامكان ، يعطي المستقبل قيمة الواقع الثوري ـ واقع الصيرورة ـ الدائم ، الوجه السرمدي لكل تحول ، حين يبدأ الزمان الخلق ، فيعمق التجربة ، ويبني المأساة ، يوحد العاطفة في معركة الخلق بلانهاية ، على امل التحقيق الكلي ، والاكيد ، الذي هو امل فحسب ما دامت الثورة تعني الاستبطان البدئي لمشاكل الفرد ، ـ كمرحلة للوعي الداخلي ـ من خلال تبعية غيبية لجماعية اولى تمثل عمل واقعات العصور البائدة التي يتمثل الفرد آياتها ، دونما شك او يقين ودونما اختيار .

انها تعني تطهير الشخصية ، ومن ثم ادخالها في التاريخ بفكرة جديدة واقع جديد ، امل جديد ، ومنهج لفهم هذا الواقع يختلف تمام الاختلاف عن سابقه فيما يحمله من حلول جذرية مخالفة في اهدافها التطبيقية لحلول العهد القبلي ـ للمشكلات الاجتماعية والحضارية عامة . وخلقية تكوينية تمهد لانبثاق الانسان ، من جديد وما هيته ، انسان العصر . ومن هنا يمكننا القول ، بان الثورة كانقلاب فكري ايديولوجي ، وفي محاولتها ابداع صيغة جديدة للوجود ، امكانية للكشف عن طبيعة التاريخ بصورة عامة ـ كظاهرة مدركة من خلال مشاركتها في التحقق الحضاري ، مشاركة فعالة ورئيسية ، تؤسس للواقعة وتربطها بحدودها الطبيعية ، في كل جماعة ثورية معلنة بذلك عن ما هيتها الاصيلة في علاقاتها تلك .

والثورة بالتالي ، كانقلاب حضاري ، مرتبط بالتاريخ ككل ، هي محاولة لايجاد عنصر التوازن بين التطور من جهة والقيم من الجهة الاخرى . ذلك التوازن تفقده الثورات اثناء سقوطها فتفقد بذلك محورها الذي تشتق من خلاله النموذج ، تشتق ـ مبرر وجودها ، مما يعرضها في النهاية الى صدمات عنيفة ، والى اضطراب مستمر ، حتى يعود الحوار مرة اخرى بين التطور والقيم، هذا الحوار الذي يعتمد بالدرجة الاولى على بقاء التوتر المخصب والايجابي بينهما في عمق الشخصية الثورية .

هكذا كانت الثورة ، انبثاق من داخل ، يستقطب الملامح البكر ، الوجوه الجوهرية ، ويبدد الازمة ، يفادي تربة الخلق البدئية ، بمعطيات الحرية والواقع ، في حدود التاريخ المتأصل ، كصيغة اساسية لنمو العلاقات المختلفة لكل جماعة ، مع ارتباطها بتربتها الحقيقية ، التي تحدد قيمة الواقعة من التكون الاجتماعي ، ومدى اصالة ذلك التكون ، في جميع مراحل التاريخ ، المندفع نحو تكامله ، في ثورة الحرية ، رغم تعرضاته لتشكلات خادعة تفرضها ملابسات ظرفية ، في بقعة ما من العالم ، تنشر بعض الضباب الذي ما يلبث حتى يتمخض عن تربة اصيلة . تلك هي حقيقته ، ومدار تكوينه .

هذه المحاولة للوعي الداخلي ، يطلقها الفكر الثوري ، كخطوة اولى نحو الوصول الى ماهية التطور الثوري للمجتمع ، والى خط نضاله الشامل والمتكامل خلال مراحل التاريخ . ثم انها تشتمل على النزوع الاصيل الى اعادة الجدل من اجل التكون والخلق ، بين الواقع والامكان ، الفرد والتاريخ ، حيث يمكنه استشراف ذرى جديدة في بنية التحقق الانساني ، في براءته وطهره ، في ملامحه البدائية الانقى والاخصب . ذلك الاستشراف الذي سيبدع فيما بعد شواطئه اللاهبة ، كميدان جديد لتحققات جديدة ، تعيد للانسان الحر وجهه المتمثل مرارة التجربة، وحرية الخلق . !

لهذا كان العمل الثوري ينطوي في ذاته ، على اعتراف ضمني ، حتى بالواقع الفاسد الذي يضعه هدفا له في مرحلة الرفض ، مرحلة التدمير . وهو الى جانب ذلك ، صيغة فكرية تحتوي على سر تبرير هذه الاعمال الثورية . . انه الفداء الحقيقي لها ، بما يقدمه للوعي الثائر ، من دوافع متجددة وبما يعكسه من معان خصيبة ، تبني تجربته ، فيتوهج بعمق الفرح والمأساة . عمق الفكرة والعاطفة .

واذا كان لا بد للثائر من هذا المبرر ، الا انه قد يمضي من اجل التبرير ، الى مدى ابعد ، في طريق ، الارهاب من جهة والقتل الجماعي من جهة اخرى . فاذا كان لا بد من الثورة حقا ، فاية قيمة للواقع ؟ ومن ثم الى اى مدى يمكن لجزئيات هذا الواقع ان تتضمن قيمة ، او مغنى في الحرية والاستقلال ، والكينونة نفسها ؟. . .

ان المشكلة تتخذ صيغة ، ما دام الواقع الفاسد ، لا يملك اي مبرر ، فانه لا يملك الحق في الوجود ، وان وجودي كثوري ، مرتبط بالغائه كواقع فاسد . ومن هنا يبدأ محور جديد في التكون الثوري ، تحت اعتبارات مسبقة عن مكونات الواقع ـ حيث يمكن للقتل نفسه ان يبرر .!

ويمكن للفرد الثوري ان يصبح جلادا ، بمعنى من المعاني ، الا ان المقياس القيمي لكل ثورة ، لا يوجد في الواقع ، وانما هو مرتسم في اهداف الثورة . ومن اجل الوصول الى تلك الاهداف لا بد من السير فوق جماجم البشر حتى يتحقق القانون . في هذا السير نفسه ، وبهذه الطريقة التي يتبعها من اجل ذلك ، يفقد العنصر الثوري مبرر وجوده ، ويصبح بالنسبة للثورة ذاتها واقعا فاسدا ، لا بد من هرسه ، بعد أن فقد مبرره في الغاية الثورية ، ففي الثورة لا يمكن فصل الهدف عن التطبيق ، وفي اي مرحلة من مراحل الثورة ، اذا كان في الثورة ارادة التبرير الاجتماعي ، والغاية القانونية .

ان الثورة هي المطهر . وهي التلوث باختيار ، حين يقبل الانسان التحدي ، ساعة قبول العالم . وهي بالتالي أنكار مبدئي ، يتضمن في نهايته الاقرار بالقيمة ، والاعتراف . والفرد الباحث عن الاعتراف غالبا ما يجد في القتل ازمته ، فالحقيقة انه ـ وكمرحلة مبدئية ـ يعمل لاخضاع العالم ، للسيطرة الكلية . والبديل هو في ذلك الخضوع الذي يعني في ظاهره الاعتراف بالقيمة ، بالوجود الاخر ـ وجود الثوري ـ الا انه يتضمن الى جانب ذلك ، نوعا من الانكار ، الذي يتسلح به الثوري تجاه العالم ، والاخرين ، لكنه ما يلبث أن يكتشف فجأة ، وحدته، وغرابته ، انه وحيد وبلا مبرر تجاه كل العالم ، فالقتل وان تضمن ظاهريا نوعا من الشعور بالخطورة ، والقيمة ، الا انه لا يعني اخيرا ـ الا القضاء على عنصر من عناصر الاعتراف المدعوة بطريق العالم . فالقضاء على الاخر لا يعني في الحقيقة سوى القضاء على الانا ذاتها ، وتضييق مجالها الوجودي ، وبشكل انعكاسي ، حيث لن يستطيع الانسان ان يكون حرا لحظة واحدة . وحيث يجد نفسه وجها لوجه أمام مصيره .

ان انطلاق الثورة من مقدمات صحيحة ومنطقية ، لا يمنعها من السقوط في منتصف الطريق ، عاجزة حتى عن حماية نفسها من نفسها . انها تبدأ بالتفتح ضمن أطرها الفكرية المثالية ، ثم لا تلبث ان تنتهي الى الارهاب ، او التسليم ، او القتل ، وبذلك ينطوي الثوري على الجلاد والضحية معا ، ويبدأ من تلك اللحظة ، في التنقيب عن مصيره كانسان في العالم ، الشيء الوحيد الذي بقي له .

انها نفس الأزمة التي يواجهها النمو العربي ، حيث يضطر غالبا بعد بذل جميع الجهود لاعادة النظر والتبرير ، الى التقهقر والتراجع أمام منشآت الواقع الفاسد . ومن هذه الحركية ، تنشأ معظم مشاكل التطور العربي ، حيث سيضطر للبدء دائما من الصفر وبلا نتيجة ، يحاول ان يلتقي بذاته المشتتة ، ويلم شعثه . لقد فقد ذاته ففقد وعيه تزمنه ، حسه القيمي، واقعه ، ثم فقد اهم خطوط المعركة المصيرية ، التي يخوضها تجاه الواقع الفاسد ، في حين اتخذ الصراع الثوري جسد حرباء سياسية ، لا يمكن للشعب استشفاف اي من خيوطها الحقيقية ، وبذلك انعدم اخر يقين له في استرجاع سيادته ، قيمة ووجوده بالذات .

وهكذا تكون نموذج ثوري جديد ـ في واقعنا ـ يشتمل على بعض القياديين تجاه هدف مجهول غالبا ، ومعروف في احيان قليلة ، عبر الصراع المصيري . وفي الجانب الاخر توجد الجماهير التي بدأت في البحث عن ذاتها ، تجمعها تجربة ثورية اخرى وفي اتجاه مختلف غامض المعالم . وكنتيجة لذلك تضخمت الهوة بين الجماهير والقياديين الذين اضطرتهم الظروف اخيرا الى مخاطبة هذه الجماهير من خلال الشعارات المرددة دائما والمحملة باكبر زخم ثوري جدير بالثقة ، والتأييد . وبدلا من ان يستطيع الثوري توجيه دفة مصيره فان الظروف تساعد على تغطية اهدافه الحقيقية ، وتضطره في اكثر الاوقات الى الاتجاه المعاكس . وأن عدم توضح خط الصراع الحقيقي ، للجماهير ، فكريا ، وسياسيا ، يرمي هذه الجماهير في الظل ، بعيدا عن كل صوت ثوري حقيقي ، بين يدي التوجيه العميل احيانا ، والرجعي في الاحيان الاخرى .

وان مرحلة التعليب الثوري التي تعانيها بعض الجماهير المؤيدة ، جعلتها تتجه بأنظارها نحو الانقلاب المصلحي ، كل لحظة ، معمقة بذلك جذور المأساة التي تعاني فوضاها ساعة فساعة .

ان تلك الازمة التي تستمد جذورها وتتغذى من مآسي المجتمع العربي هي في الحقيقة ، ازمة كل ثورة ، لا تعي خط نضالها الحقيقي ، بكافة جماهيرها وقادتها ، وهي مأساة الثورة ، حينما تفقد ارتباطاتها الجماهيرية ، وتسير بعيدا عن مصالح الشعب باجمعه .

ان النموذج الثوري الذي غذته الاحقاد ، والذي رافق تكونه حركة مريبة ، عادت بكثير من الانقلابيين الى افكارهم العتيقة ، والمحزنة في مداخل غامضة ، من التاريخ ، الذي تخطاها في سبيل الحضارة ، ـ هذا النموذج لا يمكنه سلاحه ، استرجاع حلم ضائع يفصل الجماهير عن احداثها ومصالحها ليعمي في عينيها الطريق، نحو الحرية الكاملة ، وليحاول فصلها نهائيا عن مصيرها ، بالغاء مستقبلها التاريخي المتطور ، وزرع مستقبل اخر هو في الحقيقة ، أقل من واقع فاسد . وسيكون للتحقق الثوري الفعال صيغته اللانهائية في المعركة من اجل الالتقاء مرة اخرى مع الحضارة ، فحين تنفصل الثورة عن التاريخ، اي معنى ثوري يبقى لها ؟.

ان ارتباط الثورة بالتاريخ، مشكلة المرحلة الحضارية، هو ارتباط الفعل بالقيمة ، ذلك الارتباط الذي يمهد لصياغة الثوري والانسان بعدئذ صياغة جديدة تنطوي على الاعتراف بالتطور ، كما تساعد الفرد على فهم ارتباطاته بالعالم ، بالزمان ، والحضارة من الجهة الثانية . فاذا انتهت الثورة الى ان تعيد مرحلة من مراحل التاريخ البائد ، فانها لا تقرب بذلك الا نهايتها ، حين تسلخ عن ذاتها ، كل معنى او تبرير ثوري اطلاقا .

فالثورة تفهم ، من حيث هي ارتباط تاريخي بعنصري ، الفكرة والواقع ، وان محور هذا الارتباط هو التاريخ ذاته ، خلال تحولاته ، كحبل رئيسي يشد مصير الانسان في العالم . ونحن بانطلاقنا من هذه النقطة يمكننا استنتاج كل مقياس للتقييم الوجودي ، من هذا الارتباط ككل . ومنه ايضا نستطيع ان ندرك ونرى ، كما يجب حدود وطبيعة الظاهرة ، فنعاني مرارة الخلق ، وحرية التحقق . فهل يتفجر الخلق مرة اخرى من السقوط مسيجا بحلم الثورة الحقيقية ، الثورة المنبثقة عن ازمة المصير الذاتي ، والنابعة من الضمير العربي نفسه . انها لا تحلم بالخلاص ، لانها لا تؤمن بسقوطها ، كمرحلة فاسدة، وبؤرة للشر ، لكنها تقدسه وتتجاوزه الى مرحلة التقييم الثوري ـ وايجاد قيمة ، مرحلة التكون الحقيقي ، معانقة من جديد خلال التاريخ ، مصيرها الفعلي ، وملتحمة من

خلال الواقع بتربة مأساتها واصالتها ، تربة خلقها ، وكينونتها . فالثورة تبدأ من المعاناة ، وهي في تصاعدها عبر الوجود تحلم بأن تكون ، حرية وعدالة واخاء .

والثورة التي تستنفد كل طاقاتها في الهدم ، ثم مرحلة التعمية الدينية بطقوس تقديس تلك المنجزات ، دون ان تحلم بالتأصيل الايجابي لدى وعي الجماهير ، والتحول الى منجزات اكثر ايجابية ، تمس كيان الفرد ، فتبدع قيمه في المستوى الاخلاقي ، والاجتماعي والثوري — لا تلبث أن تتهافت الى وضع محافظ ، وضع يجمد التاريخ عندما يحاول ايقافه ، للمحافظة على وجوده هو ، ومن ثم تقع في عداء التطور الثوري الحقيقي ، فتضطر الى معاكسة اهدافها الاولى ، وبالتالي معاكسة الجماهير ، رصيدها النضالي ، وهي اخيرا بحاجة للثورة على نفسها ، من داخل تقتحم العقبة ، لتتابع مجراها الحقيقي ، بالتصاقها من جديد بجماهيرها ، بلحمهم ، ودمهم . فالثورة ، ليست غاية في ذاتها ، وليست حقيقة الانسان ، انما الانسان هو الحقيقة الاولى وهو الهدف . اما حينما تصبح الثورة هدفا في ذاتها ، فان القتل نفسه يصبح مبررا .

وحتى الحقيقة لا يمكن ان تكون غاية في ذاتها الا عندما تنتفي الثورة ، فالثورة تزيل الحدود بين الغاية والوسيلة ، انها تجعل منهما شيئا واحدا ، والا فانها ستقع في الارهاب والتقديس الديني ، المرتبط لهدم حرية الفرد، وكيانه .

ومن هذه النقطة يمكننا ان ننطلق في فهم قضية الثورة، والقيم النابعة منها ، فالقيمة الاساسية للثورة ، هي حقيقتها ، كتجربة لاعادة الحوار بين التطور والقيم في بنية التحقق الاجتماعي ، ذلك الحوار الذي هو ، تأسيس للوجود بالدرجة الاولى . وعلى جميع القيم الثورية الاخرى ان تتخذ نفس الاتجاه والا فسوف تنتهي من حيث ابتدأت .

وما دامت ذلك الحوار فهي في الحركة، في العمل الايجابي. فمباشرة العمل سوف تقضي على كل مفهوم تجريدي مرتبط بمعان ليست واقعية لكل قيمة ، او حقيقية انسانية وأرضية . فحقيقة الوجود وقيمته تكمن في الوجود نفسه ولا يمكن ان يبررها سواه .

من هنا كان علينا ان نعيد التأسيس الحقيقي ، لاخلاقية الثورة ، فالحقيقة هي اولا مصلحة المجتمع ، وعلى كل قيمة اخرى ان تلتزم وجودها بالنسبة ، له ايضا . فلقد امتصت دماء الجماهير ، القرون الطوال ، تحت راية الحقيقة ، ولقد قتل مئات الشهداء تحت نفس الراية . كما صلب اخرون من مفكرين واحرار ، وكانت الحقيقة ، نيرفانا هائلة من السم والحراب ، وسلاحا ضد التطور والانسان معا . ذلك لانها لم تكن سوى عطاء يمكن للاقوى التحافه ، او لوحة يكتب عليها كل عراف مصيره .

وبامتلاكها لتلك المرونة اقنعت جميع البشر بشرعيتها ، وكان عليهم ان يصوموا حتى يتبين لهم الحكمة منها ، الا انهم لم يفطروا الا حقيقة ، وقليلا من طقوس الخضوع والطاعة . وفي صيحة حكمة الحقيقة ، يرتبط ملايين البشر في معاناة وجودهم اللاشرعي ، كعبيد وخدم ، ثم حديثا كعمال فكيف يمكن للثورة ان تنطلق من نفس المنطلق اذا كانت حقا ، تنبع من ارادة التأسيس الايجابي للوجود الانساني المنخرط في مدار التطور اله العصر .

وهكذا فان قيم الثورة المعاصرة يجب ان تتخذ من الانسان هدفها لا من الحقيقة المجردة ، عندئذ نتوقع دائما للثورة عدم الانحراف ، لاننا حفظنا لها بذلك حرية الخلق المستمر ، والولادة ، حرية الثورة على ذاتها ، دون التفكير لحظة بالتراجع ، لان التحقق سوف يبدد الوقت وسيكون حتى النضال السلبي تحققا ايجابيا ، يعطي فقط وهو في ذلك العطاء يحقق ذاته خطوة فخطوة ، وساعة فساعة .

فمصدر الثورة هو الشعور بالقيمة الذي يدفع العبد والعامل ويجبر السيد على الاعتراف ، وسيكون دفع الثمن غاليا ، لكن الكلمة الاخيرة في المعركة هي للثائر : لانه عندما بدأ من الشعور بالقيمة ، فقد اصبح سيدا ، وسيد ذاته الفعلي . وان نجاح الثورة مرتبط بمدى ما تحققه من هذه السيادة ، حين تضع جماهير الشعب دفعة واحدة امام حريتهم ومستقبلهم ، ووجودهم . اما حينما تنحصر انجازات الثورة في المعركة النضالية ، والمادية ، فانها لا تلبث ان تنتكس ، لانها فقدت محورها الاساسي بفقدانها القضية الاولى في الثورة ، وهي محاولة الجماهير تقييم وجودها على اساس مختلف عن ديالكتيك السيد — العبد في الواقع الفاسد . فالثورة اذن ضد قيم السيادة بمفهومها الاستغلالي والطبقي المهترىء .

انطلاقا من هذه الحقيقة ، نجد انه لا بد من ايديولوجية ، تربط شعارات الثورة ، وتوجهها نحو الهدف الكامن وراءها . فمشكلة وجود ايديولوجية لا تقل خطورة عن مشكلة طرح الشعارات المبدئية للثورة . لانها لا تعني سوى الكشف عن الاتجاه الذي يمكن القوى الشعبية من الالتفاف حوله لترى مستقبلها . ولتبني الطرق التي تمكن الثورة من المضي نحو التكامل ، ونحو فهم ظاهرات التطور العربي .

فأزمة التاريخ العربي عامة ، تنبع من الفصل بين التطور والقيم في المستوى التاريخي ، والحضاري . وان على الثورة المعاصرة ان تعيد لهذا التاريخ ايجابيته ، ووحدته الفعلية باعادة الحوار من جديد على الشكل الثوري والبناء بارتباطه ، ارتباطا فوريا ومباشرا باهداف ومصالح الجماهير . حتى نرى في غبش الواقع الحضاري للمجتمع العربي ، جذور ثورة عارمة وحضارة تنطلق بمكوناتها جميع فئات الشعب في سيره نحو فهم نفسه ، والعالم .

حمص — برهان غليون

الهروب الى الله

بقلم ستيفان زفايغ
ترجمة ابو العيد دودو

نهاية اكتوبر ١٩١٠

خاتمة لمسرحية تولستوي «والنور يسطع في الظلام»

في سنة ١٨٩٠ بدأ ليو تولستوي بكتابة ترجمة درامائية لحياته، اتيح لها فيما بعد ان تنشر وتعرض على الشاشة كقطعة من مخلفاته تحت عنوان « والنور يسطع في الظلام » . هذه الدراما الناقصة ليست (والمشهد الاول ينم عن ذلك سلفا) سوى تشخيص لجوهر مأساته المنزلية ، وواضح انها كتبت كتبرير لمحاولة الهروب المبيتة واعتذار لزوجته في الوقت نفسه ، بمعنى عمل موازنة خلقية في غمرة التمزق الروحي الرهيب .

ان تولستوي نفسه قد تقمص شخصية نيكولاي ميشيلايفتش سارنتسيف المعبرة عنه في شفافية . وأقل ما في المأساة يمكن ان يعتبر موضوعا . ولا شك ان تولستوي لم يبدعها الا لينظم سلفا الحل الحتمي لحياته ، غير ان تولستوي لم يجد جراة وصيغة القرار والختام لا في الاثر ولا في الحياة ، لا في ذلك الحين ، ١٨٩٠ ، ولا بعد عشر سنوات ، ١٩٠٠ . فبسبب خضوع الارادة واستسلامها ظلت المسرحية قطعة ناقصة ، تنتهي بحيرة تامة تستحوذ على البطل فيرفع يديه الى الله ويتوسل اليه ان يساعده وينهي صراعه .

ولم يكتب تولستوي الفصل الاخير من المسرحية فيما بعد ايضا ، ولكن الاهم : لقد عاشه . ففي الايام الاخيرة من اكتوبر سنة ١٩١٠ تتمخض رجة ربع قرن عن قرار ، عن ازمة تحرير : بعد اصطدام درامائي عنيف يهرب تولستوي في الوقت المناسب ليجد ذلك الموت المثالي الرائع الذي يمنح مصيره القداسة والشكل النهائي .

والان لم يبد لي شيء أنسب من ان اضيف النهاية المعاشة الى المأساة . لقد حاولت هذا ، وهذا وحده ، بكل أمانة وصدق واخلاص للحقائق والوثائق التاريخية . ولست اتجاسر بذلك على الادعاء باني اريد ان اتمم عقيدة لتولستوي واتحكم فيها بصورة مكافئة ، انني لا انضم الى الاثر ، وانما اريد ان اخدمه . ولهذا لا ينبغي ان يعتبر ما احاوله هنا كتكملة ، بل كخاتمة مستقلة لاثر ناقص ونزاع قائم ، ولست اريد بذلك الا اعطاء تلك المأساة الناقصة مخرجا صحيحا .

ولاجل ان تكون هذه الخاتمة جديرة بالعرض يجب ان اؤكد هنا انها تقع ، من حيث الزمن ، متاخرة عن « والنور يسطع في الظلام » بست عشرة سنة ، فمن الضروري اذن ان يظهر ذلك على ليو تولستوي عند دخوله الى المسرح . ويمكن ان تتخذ كمثل صوره الجميلة التي اخذت له في سنواته الاخيرة ، وخاصة تلك الصورة التي تظهره عند اخته في دير شمردينو ، ثم صورته وهو على فراش الموت . وكذلك ينبغي ان يرسم المكتب بكل بساطته المؤثرة طبقا لما هو معروف وثابت تاريخيا . واود ، من اجل المشهد التمثيلي فحسب ، ان تضم هذه الخاتمة (التي تذكر تولستوي باسمه الصريح ، ولم تخفه خلف هيئة سارنتسيف المستعارة) الى الفصل الرابع من القطعة بعد استراحة كبيرة . وليس في نيتي تقديمها في عرض مستقل .

اشخاص الخاتمة :

ليو نيكولايفتش تولستوي (في ٨٣ من عمره) .
صوفيا اندرييفنا تولستوي ، زوجته .
الكسندرا لفوفنا (تدعى ساشا) ، ابنته .
الكاتب .
دوشان بتروفتش ، طبيب تولستوي وصديقه .
ناظر محطة استابوفو ، ايفان ايفانوفتش اوسولنغ .
رئيس شرطة استابوفو ، سيريل غريغوروفتش .
الطالب الاول .
الطالب الثاني .
ثلاثة مسافرين .

تقع حوادث المشهدين الاول والثاني في الايام الاخيرة من شهر اكتوبر سنة ١٩١٠ في مكتب ياسنايا بوليانا ، والمشهد الاخير في ٣١ اكتوبر سنة ١٩١٠ في غرفة الانتظار بمحطة استابوفو .

ـ المشهد الاول ـ

نهاية اكتوبر ١٩١٠ في ياسنايا بوليانا

مكتب تولستوي على بساطته وخلوه من الزينة ، يشبه اللوحة المعروفة تماما .

(يدخل الكاتب طالبين ، يرتدي كل منهما قميصا اسود مزرورا على النمط الروسي . الاثنان شابان ذوا وجهين حادين . يتحركان في اطمئنان تام ، في تكبر اكثر منه خوف) .

الكاتب : استريحا في غضون ذلك ، فان ليو تولستوي لن يدعكما تنتظران طويلا . وكل ما ارجوه منكما هو ان تفكرا في كبر سنه . انه مغرم بالمناقشة الى درجة انه كثيرا ما ينسى تعبه .

الطالب الاول : ليست لدينا اسئلة كثيرة نوجهها الى ليو تولستوي ـ سؤال واحد فقط ، طبعا سؤال حاسم لنا أو له . واعدك باني ساوجز كلامي ـ ان جاز لنا ان نتكلم بحرية !

الكاتب : لكما تمام الحرية . وكلما قلت الصيغ كان ذلك افضل . ولا تخاطباه قبل كل شيء بلقب حضرة ـ انه لا يريد ذلك .

الطالب الاول : لا تخش منا هذا ، كل شيء الا هذا .

الكاتب : ها هوذا يصعد الدرج !

(يدخل تولستوي بخطى سريعة متزنة . يبدو ، رغم كبر سنه ، نشيطا عصبيا . وحين يتكلم غالبا ما يدير قلما في يده او يلف ورقة جزعا ألا يكون دوره في الحديث قد جاء . يتقدم من الاثنين بسرعة ويصافحهما وهو ينظر الى كل منهما نظرة حادة نافذة . ثم يجلس

قبالتهما فوق كرسي كبير مشمع) .

تولستوي : انتما اللذان أرسلتهما اللجنة الي ، أليس كذلك ؟.. (يبحث في رسالة) . اعذراني ان كنت قد نسيت اسميكما ...

الطالب الاول : اننا نرجوك ألا تقيم لاسمينا وزنا . فما جئناك الا كاثنين من مئات الآلاف .

تولستوي : (ناظرا اليه في حدة) هل لديك سؤال توجهه الي ؟

الطالب الاول : سؤال واحد .

تولستوي : (للثاني) وانت ؟

الطالب الثاني : نفس السؤال . لدينا جميعا سؤال واحد نوجهه اليك ، يا ليو نيكولايفتش تولستوي ، نحن جميعا ، كل شباب روسيا الثوري ـ ليس هناك غيره : لماذا انت لست معنا ؟

تولستوي : (بكل هدوء) لقد شرحت ذلك ، كما آمل ، شرحا واضحا في كتبي وزيادة على ذلك في بعض رسائلي التي نشرت فيما بعد ـ لست أدري هل قرأتما شخصيا كتبي ؟!

الطالب الاول : (منفعلا) هل قرأنا كتبك ، يا ليو تولستوي ؟! يا له من سؤال غريب ! قرأنا ـ اذاً لكان ذاك أقل ما يكون . لقد كنا نعيش من كتبك منذ طفولتنا ، وحين صرنا شبانا أيقظت قلوبنا في صدورنا . فمن علمنا اذاً ، اذا لم تكن انت ، ان نرى هذا التقسيم الجائر لخيرات الانسان كلها ؟ كتبك ، هي وحدها التي نفرت قلوبنا من الدولة والكنيسة والحاكم الذي يدافع عن ظلم الانسان عوض حماية الانسان . انت ، انت وحدك الذي رسمت لنا ان نضحي بحياتنا كلها الى ان يتحطم هذا النظام الفاسد بصورة نهائية .

تولستوي : (يقاطعه قائلا) ولكن لا عن طريق استعمال العنف ..

الطالب الاول : (متجاهلا كلامه في وقاحة) اننا ، منذ ان تكلمنا لغتنا ، لم نثق بأحد مثل ثقتنا بك . وحين تساءلنا ، من سيزيل هذا الظلم ، قلنا لانفسنا : هو ! وحين تساءلنا ، من سينهض يوما ويطوح بهذه الدناءة ، قلنا : هو سيفعل ذلك ، ليو تولستوي . لقد كنا تلاميذك ، خدمك وعبيدك . أعتقد انني كنت آنئذ مستعدا ان أموت باشارة من يدك . ولو اتيح لي قبل سنوات ان أدخل هذا البيت لانحنيت أمامك كما أنحني امام قديس . هكذا كنت لنا يا ليو تولستوي ، لمئات الالاف منا ، للشباب الروسي بأكمله ، الى ما قبل سنوات قليلة . وأيا كان الامر ، فاني أتأسف ، نحن جميعا نتأسف لكونك ابتعدت عنا منذ ذلك الحين وكدت تصير عدونا .

تولستوي : (أهدأ) وماذا تعني ، هل كان علي ان اعمل لاظل مرتبطا بكم ؟

الطالب الاول : لست أجرؤ على تعليمك . فأنت نفسك تعلم ما الذي أبعدك عنا ، نحن الشباب الروسي بأجمعه .

الطالب الثاني : لم لا نصرح بذلك الان ؟ ان قضيتنا اهم بكثير من المجاملات : يجب عليك اخيرا ان تفتح عينيك وألا تظل خامدا ، مدة اطول ، تجاه الجرائم الفظيعة التي ترتكبها الحكومة ضد شعبنا . يجب عليك اخيرا ان تغادر مكتبك لتقف بجانب الثورة وتساندها علنا ودونما سند . انك تعلم ، يا ليو تولستوي ، بأية قسوة وضراوة أخمدت حركتنا . ان عدد الذين يتعفنون الان في السجون يفوق عدد اوراق بستانك . وانت ، انت ترى كل هذا ، وتكتب ، كما يقال ، بين حين وآخر ، مقالا ما في جريدة انكليزية تتحدث فيه عن قداسة الحياة الانسانية . لكنك ، انت نفسك ، تعلم علم اليقين ان الكلمات لم تعد اليوم تقف ضد هذا الارهاب الدامي . انك تعلم تماما مثلما نعلم نحن انه لا بد من انقلاب جذري ، من ثورة عارمة شاملة . وفي وسع كلمة واحدة منك ان تعد ، وحدها ، للثورة جيشا بأكمله . لقد جعلت منا ثوارا . والان ، اذ دنت ساعة الثورة ، تراجعت عن موقفك وانحرفت في حذر ، وبذلك أصبحت تساند العنف .

تولستوي : لم اساند الارهاب والعنف ابدا ! لقد تخليت عن عملي منذ ثلاثين سنة ، وما ذاك الا لاكافح ضد جرائم الحكام . منذ ثلاثين سنة ـ وأنتم لم تولدوا بعد ـ وانا اطالب ، اكثر تطرفا منكم ، لا بالاصلاح فحسب ، بل بايجاد نظم كاملة لتحسين الاوضاع الاجتماعية ...

الطالب الثاني : (مقاطعا) وماذا تم من ذلك حتى الان ؟ وهل حققت مطالبك ؟ وماذا نلنا منذ ثلاثين سنة ؟ المقرعة التي سلطت على أتباعك الذين آمنوا برسالتك ، وسبع رصاصات في الصدر ! اي تحسين أدخلته على روسيا كتبك وبياناتك واصرارك المائع ؟ واخيرا ، ألا تدرك انك تساند الطغيان حين تعلم الشعب على الصبر والاناة وتمنيه بامبراطورية الالف سنة ؟ لا ، يا ليو تولستوي ، لن يجديك ان تدعو هذا الشعب الابي باسم الحب ولو تحدثت بالسنة الملائكة ! ان عبيد القيصر لن يخرجوا من جيوبهم روبلا واحدا من اجل مسيحهم، ولن يتنازلوا عن ضريبة واحدة قبل ان تمتد أيدينا الى رقابهم . لقد انتظر الشعب حبهم الاخوي بما فيه الكفاية ! لن ننتظر بعد الان طويلا . فقد دقت ساعة العمل .

تولستوي : (بشدة) اعرف انكم ، الى هذا ، تسمون ذلك « عملا مقدسا » في بياناتكم الجديدة ، و « اثارة الاحقاد » في نظركم عمل مقدس ايضا ! ولكني انا لا اعرف الحقد ، ولا اريد ان اعرفه . لست أحقد حتى على اولئك الذين يرتكبون الجرائم ضد شعبنا ، ففاعل الشر أشقى في دخيلته من ذلك الذي يعانيه ـ ارثي له وانما لا احقد عليه .

الطالب الاول : (حنقا) اما انا فاحقد على كل الذين يظلمون الانسانية ـ أحقد على كل واحد منهم ، بدون استثناء ، كما أحقد على الوحوش الدامية ! لا ، يا ليو تولستوي ، لن تعلمني ابدا الشفقة على هؤلاء المجرمين .

تولستوي : مع ذلك فالمجرم أخي .

الطالب الاول : لو نال الانسانية عذاب من اخي وابن امي لن اتردد في قتله كما لا أتردد في قتل كلب مسعور . لا ، لن نشفق على القساة ! ان هذه الاراضي الروسية لن يقر قرارها ولن تهدأ قبل ان تثوي تحتها جثث القياصرة والامراء ، ولن تكون ثمة نظم اخلاقية وانسانية ما لم نفرضها بالقوة .

تولستوي : ليس هناك نظم اخلاقية يمكن ان تفرض بالقوة ، لان كل قوة لا بد ان تخلق قوة مضادة . انكم تخلقون ظلما جديدا بمجرد رفعكم السلاح ، فأنتم بذلك تخلدوه عوض ان تقضوا عليه .

الطالب الاول : ليست هناك وسيلة اخرى لمحاربة الاقوياء غير تحطيم قوتهم .

تولستوي : هذا حق ، ولكنه لا يجوز لنا ان نستعمل وسيلة نذمها نحن انفسنا . صدقني ، ان القوة الحقيقية لا ترد على القوة بالقوة ، بل تنتصر عليها بالاستسلام . لقد ورد ذلك في الانجيل ...

الطالب الثاني : (مقاطعا) اوه ، دعك من الانجيل ! لقد اتخذه القساوسة خمرا معتقة لفرض تخدير الشعب . لقد اعتبر ذلك قبل الفي سنة ، ولم يساعد احدا آنذاك ، والا لما طفح العالم اليوم بالبؤس والدماء . لا ، يا ليو تولستوي ، ان كلمات الانجيل لم تعد اليوم تسد الثغرة بين المستغِلين والمستغَلين ، بين السادة والعبيد : ان بين هاتين الضفتين بؤسا شديدا . فهناك مئات ، بل آلاف من المؤمنين الاتقياء يعانون اليوم آلام الجوع والعطش والحرمان في سجون سيبيريا، وغدا سيصبحون آلافا ، عشرات الالاف . واني لاسالك ، هل يجوز حقا ان يستمر عذاب الملايين بسبب حفنة من المجرمين ؟

تولستوي : (موجزا) افضل ان يتعذبوا على ان تراق الدماء مرة اخرى . فالعذاب البريء نفسه خير وقوة ضد الطغيان .

الطالب الثاني : (ثائرا) أتسمي العذاب خيرا ، عذاب الشعب الروسي منذ آلاف السنين ؟ اذهب الى السجون ، يا ليو تولستوي ، واسأل المجلودين ، اسأل جياع مدننا وقرانا ، هل العذاب حقا خير ؟

تولستوي : (غاضبا) من المؤكد انه احسن من عنفكم وارهابكم . هل تعتقدون حقا ان في وسعكم ان تزيلوا الشر ، نهائيا ، من العالم بواسطة قذائفكم ومسدساتكم ؟ لا ، ان الشر يعمل في نفوسكم ذاتها .

واعيد عليكم ، ان العذاب من اجل عقيدة احسن مائة مرة من القتل في سبيلها .

الطالب الاول : (غاضبا ايضا) حسنا ، اذا كان العذاب مفيدا وخيرا ، يا ليو تولستوي ، حسنا ـ لم لا تتعذب انت نفسك ؟ وما بالك تمجد دوما تضحية الاخرين ، في حين تجلس انت نفسك في غرفة دافئة بمنزلك وتأكل في أوان فضية ، بينما يرتدي فلاحوك ـ لقد رأيت ذلك ـ الاسمال المهترئة ويكاد الجوع والبرد يقضيان عليهم في الاخبية الصقيعة ؟ لم لا تعرض نفسك للجلد عوض أتباعك الذين يتعذبون من اجل تعاليمك ؟ وبالتالي لم لا تترك هذا البيت الاميري وتنزل الى الشارع تتعرف بنفسك على روعة الفقر المزعومة وسط الرياح والثلوج والامطار ؟ فلماذا تكتفي بالحديث فقط ، عوض ان تعمل انت نفسك بتعاليمك ؟ واخيرا لم لا تجعل من نفسك مثلا يحتذى ؟

تولستوي : (يتراجع . فيثب الكاتب نحو الطالب ويهم بتأديبه ، ولكن تولستوي يستعيد اطمئنانه ، ويدفعه جانبا في رفق) دع ذلك ! ما أعظم هذا السؤال الذي وجهه الشاب الى ضميري ... انه سؤال سديد ، رائع ، ممتاز ... سأحاول الاجابة عليه بكل امانة وصدق . (يخطو خطوة صغيرة ، ويتردد ، ثم يسوي حاله بسرعة . يغمض صوته ويبح) انك تسألني لم لا احتمل العذاب في سبيل كلماتي وتعاليمي ، واني لاجيبك على ذلك في خجل شديد : اذا كنت قد تخليت عن اداء واجبي المقدس حتى الان ، فذلك ... ذلك ... لا ني ... جبان جدا ، ضعيف أو غير امين ، لاني انسان وضيع مذنب لا قيمة له ... فالهي لم يمدني بالقوة ، حتى هذا اليوم ، على فعل ما لا يؤجل . انك ، ايها الشاب الغريب ، تخاطب ضميري بكلام رهيب . اعلم انني لم افعل الجزء الالف مما يفعله الضيق والبؤس . اعترف ، بكل خجل وحياء ، انه كان علي ، منذ مدة طويلة ، أن أتخلى عن ترف هذا البيت وأغير اسلوب حياتي الشقية التي أعتبرها خطيئة ، وأنزل ، كما تقول انت تماما ، الى الشارع كحاج . ولست أعرف جوابا على ذلك سوى ان اخجل من اعماق نفسي وأركع امام شقائي ذاته . (يتراجع الطالبان ، مندهشين ، ويلزمان الصمت . برهة ، ثم يستمر تولستوي بصوت أوطأ) لكني ربما ... ربما أتألم وأتعذب رغم ذلك كله ... ربما اتعذب من انني بالذات لا أجد النزاهة والطاقة الكافية على تحقيق كلمتي والوفاء بوعدي مع الناس . لعل عذاب الضمير نكسه أشد وأعنف من آلام الجسد الرهيبة . لعل الهي طرق لي هذا الصليب وضاعف عذابي في هذا البيت ، فعانيت منه اكثر مما لو كنت في السجن أرسف في القيود ... لكنك على صواب ، فهذا العذاب لا يجدي ، لانه يخصني وحدي ، واني لاترفع عن التفاخر به .

الطالب الاول : (خجلا نوعا ما) ارجو المعذرة ، يا ليو نيكولايفتش تولستوي ، اذا كنت قد صرت شخصيا في فورة حماس ...

تولستوي : كلا ، كلا ، بالعكس ، انا اشكرك ! ان من هز ضمائرنا ، ولو بقبضة اليد ، فقد أحسن الينا . (صمت ، ثم يواصل تولستوي حديثه بصوت هادىء) هل لديكما سؤال اخر توجهانه الي ؟

الطالب الاول : كلا ، لقد كان سؤالنا الوحيد . أعتقد ان رفضك الوقوف الى جانبنا يعد من سوء حظ روسيا والانسانية جمعاء . فلن يقف احد في طريق هذا الانقلاب ، هذه الثورة . واني لأحس انها ستكون رهيبة ، افظع من اية ثورة على وجه الارض . والذين سيقودونها سيكونون رجالا قساة ، رجالا سادرين في عزمهم وتصميمهم ، رجالا دونما شفقة او رحمة . فلو وقفت في طليعتنا لحذا حذوك الملايين ولكانت الضحايا أقل .

تولستوي : لو تسببت في قتل نفس واحدة ، فاني لن استطيع تحمل مسؤوليتها امام ضميري .

(يدق الجرس في الطابق الاسفل) .

الكاتب : (لتولستوي ، لفرض انهاء الحديث) لقد دق جرس الغداء .

تولستوي : (في مرارة) اجل ، اكل ، ثرثرة ، نوم ، راحة ، ثرثرة ـ هكذا نعيش حياتنا العطلة ، بينما يشتغل الاخرون ويتقربون الى الله بأعمالهم (يلتفت من جديد الى الشابين) .

الطالب الثاني : اذن ، لن نحمل الى اصدقائنا شيئا اخر غير رفضك ؟ ولا كلمة تشجيع منك ؟

تولستوي : (ينظر اليه في حدة ، مفكرا) قولا لاصدقائكما باسمي ما يلي : اني احبكم واجلكم ، يا شبان روسيا ، لانكم تشعرون بآلام اخوانكم وتضحون بحياتكم في سبيل اخصاب حياتهم . (يتصلب صوته ويشد ويتوتر) ولكني لا استطيع ان اسير في ركابكم ، واني لارفض ان انضم اليكم بمجرد ان تتنكروا لحبكم الاخوي والانساني لجميع الناس .

(يسكت الطالبان . ثم يتقدم الطالب الثاني في عزم ويقول بشدة :)

الطالب الثاني : اننا نشكرك على استقبالك لنا ، كما نشكرك على صراحتك . من المؤكد اني لن اواجهك مرة اخرى مدى الحياة ـ ومن ثم ، دعني افول لك ، انا اللاشيء المجهول ، كلمة صريحة اودعك بها . اقول لك ، يا ليو تولستوي ، انك مخطىء في ظنك ان الروابط الانسانية لا تصلح الا عن طريق الحب : قد يصح هذا بالنسبة للاثرياء والمغفلين ، اما اولئك الذين عرفوا الجوع منذ طفولتهم وتألموا تحت سياط أسيادهم ، مدى حياتهم كلها ، فقد سئموا انتظار نزول الحب الاخوي من سماء المسيح ، وسيفضلون الثقة بمجامع ايديهم . هكذا اقول لك في عشية يوم موتك ، يا ليو نيكولايفتش تولستوي ، ان العالم سيغرق في الدماء ، ولن يقتل السادة فحسب ، بل سيقتل صغارهم ايضا ويمزقون ، وذلك لكيلا تنتظر الارض بعد منهم ما هو أنكى وأسوأ وأفظع . ونرجو ان تعفى من رؤية عاقبة خطئك ـ أتمنى لك هذا من كل قلبي ! أماتك الله ميتة هادئة !

(يتراجع تولستوي ، فزعا من حماسة الشاب ، ثم يستعيد هدوءه ويقترب من الشاب ويقول له في بساطة :)

تولستوي : اشكرك بصورة خاصة على كلمتك الاخيرة . لقد تمنيت لي ما كنت اشتاق اليه منذ ثلاثين سنة ـ ميتة هادئة مع الله والناس جميعا . (ينحني الاثنان وينهبان . يشيعهما تولستوي بنظراته مدة ، ثم يأخذ في الذهاب والمجيء في انفعال ، ويقول لكاتبه متحمسا :) يا له من شباب ساحر ، كم هو شجاع شهم ، قوي أبي ، هذا الشباب الروسي ! هكذا عرفته امام « سيباستبول » قبل ستين سنة . كان شباننا يتحدون الموت ويجابهون الاخطار بنفس النظرة المتحررة الوقحة كانوا مستعدين ان يموتوا ، نبلا ، مبتسمين من اجل لا شيء ، ان يضحوا بحياتهم ، حياتهم اليافعة الطرية الرائعة في سبيل جوزة جوفاء ، كلمة لا مضمون لها ، فكرة بلا حقيقة ، لمجرد فرحة التضحية . ما أروع هذا الشباب الروسي الخالد ! يدعو الى اثارة الاحقاد والقتل وكأنه يدعو الى قضية مقدسة ! ورغم ذلك فقد احسنا الي ، هزا ضميري ، هما الاثنان ، حقا لقد كانا على صواب . يجب علي ان انبذ ضعفي وخوري وتخاذلي وادافع عن كلمتي ! خطوتان قبل الموت ثم أتردد بعد ! حقيقة ، لا يسعنا ان نتعلم سداد الرأي الا عن الشباب ، وعن الشباب وحده .

(ينفتح الباب . فتدخل الكونتيسة كهبة ريح حادة . تبدو عصبية ، تائهة . حركاتها غير ثابتة . تنتقل عيناها من شيء الى اخر باستمرار . وحين تتكلم يشعر المرء انها تفكر في شيء اخر . يمزقها اضطراب داخلي . توجه الخطاب الى زوجها فقط ، متجاهلة وجود الكاتب . وتدخل خلفها ابنتها ساشا مسرعة ، يخيل للمرء انها تبعت امها لتقوم على حراستها) .

الكونتيسة : لقد دق جرس الغداء مسبقا ، ومحرر « دايلي تلغراف » ينتظرك تحت منذ نصف ساعة بسبب مقالك ضد الحكم بالاعدام ، فكيف تدعه ينتظر من اجل فتيان من هذا النوع ! يا له من شعب وقح وضيع ! عندما سألهما الخادم تحت عما اذا كانا قد اخبرا الكونت بزيارتهما ، اجاب احدهما : لم يخبر بزيارتنا اي كونت ،

ليو تولستوي هو الذي طلب حضورنا ! ثم تعاشر انت هؤلاء المغرورين الفضوليين الذين يتمنــون ان يضطرب العالم اضطراب ادمغتهــم ! (تشمل الغرفة بنظرة مرتبكة) كل شيء مبعثر هنا ، فالكتب فــوق الارضية ، وكل شيء مختل مغبر ! فاية فضيحة لو جاء من هو أرقى منهم منزلة ؟ (تتجه نحو المتكأ وتلمسه) لقد تمزق المشمع تمامـا ، يجب ان يخجل المرء من هذا ، كلا ، انه لم يعد جديرا بالرؤية ! لحسن الحظ ان النجاد سيصل غدا من ((تولا)) . لا بد ان يصلح الكنفة في الحال . (لا احد يرد عليها . توزع نظراتها هنا وهنــاك ، قلقة .) ارجوك ، تعال الان ! لا يجوز ان ندعه طويلا !

تولستوي : (يشحب فجأة ويشتد اضطرابه) سآتي حالا ، لا يزال لدي هنا فقط ... شيء أرتبه... ستساعدني ساشا في ذلك... اجلسي مع السيد واعتذري لي ، سآتي حالا . (تنصرف الكونتيسة بعد ان تلقي على الغرفة نظرة شاملة مضطربة . ما تكاد تترك الغرفة حتى يرتمي تولستوي نحو الباب ويدير المفتاح) .

ساشا : (وقد افزعتها شدته) ما بك ؟

تولستوي : (في اهتياج عارم ، متلعثما ، وهو يضغط يده على قلبه) النجاد غدا ... الحمد لله ... لا يزال ثمة متسع من الوقت... الحمد لله .

ساشا : لكن ماذا اذاً ؟..

تولستوي : (منفعلا) الي بسكين ، بسرعة ، سكين او مقص ... (يتناول الكاتب مقصا من فوق المكتب ويسلمه له بنظرة مستغربـة . يبدأ تولستوي ، في سرعة عصبية ، بتوسيع مكان الفتق في الكنفـة المهترئة ، وهو يتطلع ، خائفا ، بين وقت وآخر ، الى الباب المغلق . ثم يبحث بيديه ، مرتبكا ، في شعر الفرس الناتىء ، ثم يخرج فــي النهاية رسالة مختومة) هنا ـ أليس كذلك ؟.. شيء مضحك ... مضحك وغير محتمل الوقوع ، أشبه ما يحدث في رواية فرنسيــة تعسة عن حياة بائع جوال في الارياف ... فضيحة لا نهاية لهـا ... هكذا وجب علي ، مع سلامــة قوتي العقلية ، في بيتي وفي الثالثة والثمانين من عمري ، أن أخفي اهم أوراقي ، لان اشيائي كلها تفتش ، فهناك من يقف ورائي ، وراء كل كلمة وكل سر ! اواه ، اية فضيحـة واية حياة ، هي حياتي الجهنمية هنا في هذا البيت ، واي بهتــان ! (تخف حدة ثورته . يفتح الرسالة ويقرأها ، لساشا) : قبل ثلاثعشرة سنة كتبت هذه الرسالة ، وذلك عندما قررت آنئذ هجر امك ومغـادرة هذا البيت الجهنمي . لقد ضمنتها وداعي لها ، هذا الوداع الــذي لم أجد الجرأة على تنفيذه فيما بعد . (يفك الرسالة بين يديــه المرتعدتين ويقرأ لنفسه بصوت نصف عال) : ((... لــم اعد اطيق الاستمرار في هذه الحياة التي احياها منذ ست عشرة سنة ، انهـا حياة اكافح فيها ضدكم من جهة ، واشعر بضرورة استفزازكم من جهة اخرى . لهذا اقرر الساعة فعل ما كان علي ان افعله قبل وقت طويل، يعني ان اهرب ... لو قمت بفعل ذلك علنا لكان ثمة ألم ومرارة ... فلربما كنت اضعف واتراجع واتخاذل عن تنفيذ قراري ، بينما كان يجب اتمامه . فأرجوك ان تعذريني اذاً ، اذا كنت قد اتخذت خطوة تؤلمكم ، وقبل كل شيء أنت يا سونيا ، اطرديني من قلبك تلقائيا ، لا تبحثي عني، لا تشتكي مني ولا تحكمي علي .)) (يتنفس بجهد) : آه ، لقد عذبت نفسي طوال ثلاث عشرة سنة ، ورغم مضي ثلاث عشرة سنة فلا تــزال كل كلمة صحيحة كالسابق . وحياتي اليــوم كذلك ضعيفـة جبان . فها أنذا لا زلت هنا ، لم اهرب بعد ، ولا ازال انتظر وانتظر ولا ادري ماذا ؟ ان معرفتي لكل شيء كانت صحيحة ، ومع ذلك كانت تصرفاتي خاطئة . كنت دوما ضعيفا امامها ، مجردا من ارادتي ! هكذا أخفيت الرسالة هنا كما يخفي التلميذ كتابا وسخا عن معلمه . لقد سلمتاليها الوصية التي رجوتها فيها انذاك ان تهدي حقوق مؤلفاتي كلها الــى الانسانية جمعاء ، وذلك لمجرد ان اجد راحة البيت عــوض راحــة الضمير .

(برهة)

الكاتب : وهل تعتقد ، يا ليو نيكولايفتش تولستوي ـ أظنك تسمح لي بهذا السؤال ، ما دامت هناك فرصة غير منتظرة ـ هل تعتقد ... انه ... عندما ... عندما ينقلك الله الى جواره ... انــه ... انه ستتحقق أمنيتك الاخيرة ، رغبتك المستعجلة هذه في التنازل عـن حقوق مؤلفاتك ؟

تولستوي : (فزعا) طبعا ... يعني ... (مضطربا) لا ، لكني لست ادري ... ما رأيك يا ساشا ؟

ساشا : (تلتفت بعيدا عنه وتسكت) .

تولستوي : يا الهي ، اني لم افكر فــي ذلك . اولا : ها انذا ، من جديد ، لا اصدق كل الصدق : ـ لا ، لم ارد ان افكر في ذلك لقد تخاذلت ، مجددا ، كما اتخاذل دوما امام كل قرار واضح سديـد . (يرمق الكاتب بنظرة حادة) لا ، اعرف ، اعرف يقينا ان احترام زوجتي واولادي لارادتي الاخيرة سيكون أقــل من احترامهم اليوم لمبادئــي وواجباتي الروحية . انهم سيتجرون بمؤلفاتي ، وبالاضافة الـى هذا ، فسأكون ، بعد موتي ، في نظر الناس كاذبا في كلامي ! (يقوم بحركـة مقصودة) ولكن ، لا ينبغي ، لا يجوز ان يحدث ذلك ! اخيرا تجلت لي الحقيقة ! ماذا قال اليوم هذا الطالب ، هذا الانسان الصادق الامين ؟ ان العالم يطلب مني عملا ، اخيرا كلمة مخلصة ، يطلب مني قـرارا واضحا نزيها ـ كان ذلك اشارة ! لا يجوز لامرىء في الثالثة والثمانين ان يغمض عينيه امام الموت ، بل يجب عليه ان ينظر في وجهه ويحدد مصيره بدقة . اجل ، لقد وعظني هذان الشابان وعظا حسنا : كــل بطالة لا تخفي وراءها الا جبن النفس . على الانسان ان يكون واضحــا صدوقا مخلصا . وهذا ما اريد ان اكونه اخيرا ، الان في ساعتــي الثانية عشرة وفي الثالثة والثمانين من عمري . (يلتفت الى كاتبــه وابنته) يا ساشا وفلادمير غيورغوفتش ، سأكتب غدا وصيتي بكــل عزم ونزاهة واصرار وحتمية لا تقبل الرجوع ، سأهدي فيها عوائــد مؤلفاتي ، كل النقود القذرة التي تزيد فيها ، الى الكل ، الى النــاس جميعا ـ لا يجوز الاتجار بكلمات انتزعتها من ضيق دخيلتي وتعاسـة ضميري وكتبتها من اجل الجميع . تعال غدا قبل الظهر واجلب معك شاهدا ثانيا ـ لا يجوز ان اتردد مدة أطول ، فقد يعوق الموت يــدي عن ذلك .

ساشا : لحظة اخرى يا ابي ـ ليس ذلك لاني اريد ان اصدك عن عزمك ، وانما لاني اخشى الصعوبات التي قد تجابهنا ان رأتنــا امي هنا في اربعة اشخاص . انها ستشك في الحال ، ولربما تحاول ، في اللحظة الاخيرة ، ان تثنيك عن عزمك .

تولستوي : (مفكرا) انت على صواب . لا ، لست استطيع انهاء عمل حميد في هذا البيت ، انهاء شيء معقول : كم تغدو الحياة زورا في هذا البيت ! (للكاتب) دبر الامر واحرص على ان نلتقي صباح غد في الساعة الحادية عشرة في غابة ((غرومونت)) الى اليسار عنــد الشجرة الكبيرة خلف حقــول السلت . وسأعمل انا كما لــو انـي اقوم بركوبي المعتاد . أعدا كل شيء ، وثمة سيمدني الهي اخيـرا ، كما آمل ، القدرة على الخلاص من القيد الاخير .

(يدق جرس الغداء بشدة للمرة الثانية) .

تولستوي : (متنفسا بصعوبة) ما افظع ان يلزم الانسان دومـا بالتظاهر ، ان يختبىء باستمرار . اريد ان اصدق مع الناس ، اريد ان اصدق مع الهي ، اريد ان اكون صادقا مع نفسي ، ولكني لا استطيع ان اكون كذلك مع زوجتي واولادي ! لا ، يستحيل علي ان اعيش حياة كهذه ، لا ، لا استطيع العيش هكذا !

ساشا : (فزعة) امي !

الكاتب : (يدير مفتاح الغرفة بسرعة . يخطو تولستوي نحــو المكتب ليخفي ثورته عن العيون ، ويدير ظهره للمرأة الداخلة) .

تولستوي : (مهمهما) الزيف في هذا البيت يسممني ـ أواه ، لو يتــاح لي مرة ان اصدق ، ان اصدق مرة واحدة عـلى الاقـل قبل موتي !

الكونتيسة : (تدخل بسرعة) لم لا تأتون ؟ يعوزك دوماً وقت طويل !

تولستوي : (يلتفت اليها وقد هدأت تعابير وجهه . يتحدث ببطء وبلهجة يفهمها الاخرون) اجل ، معك حق . يعوزني دوما وقت طويل . ولكن المهم هو شيء واحد : ان يجد الانسان متسعا من الوقت لفعل الخير في حينه .

ـ المشهد الثاني ـ

نفس الغرفة . هزيع ليلة اليوم التالي .

الكاتب : ينبغي لك ان تنام مبكرا ، يا نيكولايفتش ، فلا شك انك قد تعبت من الركوب وكثرة الهيجان .

تولستوي : لست تعبا على الاطلاق . هناك شيء واحد يتعب الانسان : الحيرة والقلق . ان كل عمل خلاص ، والعمل السيء نفسه أحسن من البطالة . (يسير في الغرفة جيئة وذهابا) لست ادري اذا كنت اليوم قد تصرفت تصرفا حسنا ، يجب علي أول بدء ان اسأل ضميري . ان ارجاع آثاري الى الجميع قد خفف عن روحي ، ولكني اعتقد انه ما كان يجوز لي ان اكتب وصيتي سرا ، بل كان يجب ان تكتب علنا وبصورة تتجلى فيها ، بالدرجة الاولى ، بطولة العقيدة . لعلي لم اكن جديرا بعمل كان حقه ان يؤدى اخلاصا للحقيقة وحدها ـ لكني احمد الله ، فقد حدث ذلك ، ارتقيت درجة اخرى في الحياة ، درجة اقرب الى الموت . ولم يبق الان الا اصعب شيء ، اخر شيء : التسلل الى الدغل ، كالحيوان ، في الوقت المناسب . عندما تدنو النهاية ، فموتي في هذا البيت سيكون زيفا كحياتي . اني في الثالثة والثمانين من عمري ، ومع ذلك ، مع ذلك لم اجد بعد القدرة على تحرير نفسي من الملذات الدنيوية . لعلي ضيعت ساعتي المناسبة .

الكاتب : ومن يعرف ساعته ؟! فلو عرفها الانسان لكان كل شيء على ما يرام .

تولستوي : لا ، يا فلادمير غيورغيوفتش ، ما كان ذلك يكون على ما يرام . ألا تعرف اسطورة قديمة ـ لقد رواها لي مرة فلاح ـ تروي كيف انتزع المسيح من البشر العلم بالموت ؟ قبل ذلك كان كل واحد يعرف ساعة موته ، وحين نزل المسيح مرة الى الارض لاحظ ان بعض الفلاحين لم يزرعوا حقولهم وعاشوا كالمذنبين . فعاتب واحدا منهم على كسله ، غير أن اللص لم يزد على ان قال : لمن يزرع الارض اذا كان عمره لا يمتد الى وقت الحصاد ؟ اذ ذاك عرف المسيح انه ليس من المصلحة ان يعرف البشر شيئا عن اجلهم قبل حينه . وهكذا انتزع منهم العلم به . ومنذ ذلك الحين لزم على الفلاحين ان يزرعوا حقولهم الى آخر يوم كما لو انهم سيعيشون ابدا . وهذا حق ، فالانسان لا ينال حظه من الخلود الا بالعمل . وذاك ما اريده انا اليوم (يشير الى مذكراته) بعد زراعة حقلي اليومي .

(خطوات صارمة في الخارج . تدخل الكونتيسة مرتدية منامتها ، وترمي الكاتب بنظرة حانقة) .

الكونتيسة : هكذا ... ظننت انك ، اخيرا ، وحدك ... اردت ان احدثك ...

الكاتب (منحنيا) انا ذاهب !

تولستوي : مع السلامة يا عزيزي فلادمير غيورغيوفتش .

الكونتيسة : (لما يكد الباب ينغلق خلفه) انه يلازمك دوما ، يتعلق بك كسلسلة ... اما انا فانه يكرهني ، يحقد علي ، يريد ابعادك عني ، هذا الانسان الوضيع النذل .

تولستوي : انك تظلمينه يا سونيا !

الكونتيسة : لا اريد ان اكون منصفة . لقد فرق بيننا ، سرقك مني وأبعد اولادك عني . لم يعد لي اعتبار منذ دخوله بيتنا ، وانت نفسك تخص العالم كله ، ولا تخصنا نحن ، أقرب الناس اليك .

تولستوي : لو أمكنني ذلك حقا ! لقد اراد الله ان اكون ملكا للجميع ولا احتفظ بشيء لنفسي واهلي .

الكونتيسة : اجل ، أعلم انه يقنعك بهذا ، هو الذي سرق اولادي . انا اعلم انه يؤلبك علينا جميعا . ولهذا لا احتمل رؤيته ، هذا المؤلب الوغد ، لا اريده !

تولستوي : ولكنك تعلمين ، يا سونيا ، اني في حاجة اليه لعملي .

الكونتيسة : ستجد مائة غيره ! (في اصرار) لا اطيق قربه ، لا اريد رؤية هذا الانسان بيني وبينك .

تولستوي : يا سونيا الطيبة ، ارجوك ، هدئي من روعك ! تعالي ، اجلسي ها هنا ، فلنتكلم بهدوء ـ تماما كما كنا في الزمن الماضي عندما بدأت حياتنا ـ فكري ، يا سونيا ، كم قليلة هي الكلمات والايام الجميلة التي بقيت لنا ! (تنظر الكونتيسة حولها في ارتباك وتجلس مرتجفة) انظري ، يا سونيا ، اني في حاجة الى هذا الانسان ـ لعلي احتاج اليه لمجرد اني ضعيف العقيدة ، لاني ، يا سونيا ، لست قويا بالدرجة التي كنت أصبو اليها . كل يوم ازداد تأكيدا من ذلك . ان هناك آلافا من الناس ، المنتشرين في بقعة ما من بقاع العالم البعيدة ، يشاطرونني عقيدتي ، فافهمي ، يا سونيا ، ان قلبنا الدنيوي في حاجة الى انسان واحد على الاقل ، وذلك ليتأكد من نفسه ، في حاجة الى حبه الحي ، المنظور ، المحسوس ، المدرك ! لعل القديسين استطاعوا ان يعملوا في صومعتهم دونما مساعد ، ولم يتهاونوا بذلك ايضا رغم فقدان الرقيب ، لكني انا ، انا لست قديسا ، يا سونيا ـ ما انا الا رجل ضعيف هرم . ولذا يجب ان يكون قربي من يشاطرني عقيدتي ، هذه العقيدة التي هي الان اثمن شيء في حياتي المسنة الوحدة . من الطبيعي اني كنت احظى بالسعادة الكبرى لو انك انت ، المرأة التي اجلها ، شاكرا ممتنا ، منذ ثمان واربعين سنة ، أردت مشاركتي في عقيدتي الدينية ، ولكنك ، يا سونيا ، لم تريديها قط . انك تنظرين الى ما قد غدا بالنسبة لروحي اعز شيء واثمنه نظرة خالية من الحب ، واخشى انك تنظرين اليه بكراهية ايضا . (تقوم الكونتيسة بحركة) لا ، يا سونيا ، لا تسيئي فهمي ، فلست اشكوك . لقد منحتني ومنحت العالم ما امكنك منحه ، منحتنا حب الام وفرح عنايتها ، فيف يمكنك ان تضحي من اجل عقيدة لا أثر لها في اعماق ذاتك ، وكيف يسعني ان اشو من انك لا تشاطرينني اعمق افكاري ـ حياة الانسان الروحية وافكاره الاخيرة تبقى على الدوام سرا بينه وبين الهه . انظري ، يا سونيا ، لقد حل ببيتي اخيرا انسان ، اخيرا انسان ناله في السابق عذاب قاس في سيبيريا من اجل عقيدته ، وها هو الان يشاطرني عقيدتي ، يحل ضيفا عزيزا علي ، فيساعدني ويخصب حياتي الداخلية ـ فلم لا تريدين ترك هذا الانسان لي ؟

الكونتيسة : لقد ابعدك عني ، وهذا ما لا اجد القدرة على احتماله . لا اطيقه ، انه يخنقني ، يثيرني ، يسقمني . فانا اعلم ان كل عمل يصدر عنكما موجه ضدي . لقد فاجأته اليوم ظهرا من جديد ، فاخفى ورقة بسرعة ، ولم يستطع احد منكم النظر في عيني : لا هو ولا انت ولا ساشا . انكم تخفون عني شيئا ، اجل ، اني اعلم ذلك . لقد تآمرتم علي ..

تولستوي : ارجو ان يكون الهي قد حفظني ، وبيني وبين الموت شبر ، من ذنب ارتكبته على علم مني .

الكونتيسة : (في كلف .) اذا فانت لا تنكر انكم قد فعلتم شيئا في السر ... شيئا ما ضدي . آه ، انت تعلم انك لا تستطيع ان تكذبني كما تكذب الاخرين !

تولستوي : (غاضبا .) انا اكذب الاخرين ؟! اتقولين لي هذا انته انت التي ابدو بسببك كاذبا امام الاخرين ؟ (يهدىء من روعه .) آمل ، ارجو الان الا اكون قد ارتكبت خطيئة الكذب على علم . لعلي لم اجد القدرة احيانا ، انا الانسان الضعيف ، على قول الحقيقة بكاملها ، ولكني لا اعتقد اني كنت بذلك قد كذبت الناس وخدعتهم .

الكونتيسة : اذا ! قل لي ماذا فعلت ـ اية رسالة كانت ، اية ورقة ... لا تعذبني طويلا ...

تولستوي : (يقترب منها ، في رفق) لست انا الـــذي اعذبك يا صوفيا اندرييفنا ، بل انت التي تعذبين نفسك ، لانك لم تعـــودي تحبينني . فلو كنت تحبينني لوثقت بي ايضا ـ وثقت بي حتى هناك حيث تعجزين عن فهمي . ارجوك ، يا صوفيا اندرييفنا ، انظري فـــي ذلك قليلا : اننا نحيا حياة مشتركة منذ ثمان واربعين سنة ! فلعلك تجدين ، عبر هذه السنوات الكثيرة ، في مكان ما من الزمن المنسي في خفايا ذاتك ، شيئا من الحب لي : ثم خـــذي ، رجاء ، هذه الشرارة واضرميها ، حاولي أن تكوني لي مرة اخرى كما كنت لي طوال الزمـــن الماضي ، متحببة واثقة ، عطوفة مخلصة ، فانــي ، يـــا سونيا ، كثـــيرا ما تفزعني معاملتك لي الان .

الكونتيسة : (متأثرة ثائرة) لم اعد اعـــرف كيف انا . اجـــل ، الحق معك ، لقد اصبحت قبيحة ، اصبحت امرأة سوء ! ولكـــن مـــن يستطيع احتمال رؤيتك وانت تتعذب من اجل ان تكون اكثر من انسان ـ هذا الميل المفرط الى الحياة مع الرب ، هذه الخطيئة . خطيئـــة ، اجل ، انها خطيئة ، كبرياء وترفع وجبروت ، فليس ورعا وخضوعـــا وتقوى ان تلاحق الرب وتبحث عن حقيقة منعت عنا . في الماضـــي في الماضي كان كل شيء واضحا وعـــلى ما يرام . كنا نعيش كبقيـــة الناس ، نحيا حياة طاهرة مستقيمة . كانت لنا اعمالنا وسعادتنـــا . فنما وشب اطفالنا وبدأنا نحتفي بشيخوختنا قبل اوانها . وفجـــأة حدث هذا ، آنذاك قبل ثلاثين سنة ، حدث لك هذا ، اعتـــراك هـــذا الوهم الكبير ، هذه العقيدة التي أشقتك وأشقتنا . فما هو ذنبي انـــا اذا كنت لا افهم بعد معنى تنظيفك الموقد وحملك الماء وانتعالك سوقاء مهترئة ، انت الذي يجلك العالم كأكبر فنان ! لا ، انـــي لا ادرك بعـــد لم تغدو حياة خيرة ، موفرة مدبرة ، لم تغدو ، فجأة ، حياة كحياتنـــا خطيئة في حق الانسان ؟ لا استطيع فهم هذا ، لا استطيع ، لا استطيع ذلـــك !

تولستوي : (مترفقا) انظري ، يا سونيا ، هذا ما قلته لـــك بالضبط : هناك حيث تفقد القدرة على الفهم والادراك ، هناك بالـــذات يجب علينا ان نثق بقوة حبنا ونعمته . وليس هذا بالنسبة للنـــاس فحسب ، بل بالنسبة لك ايضا . هل تعتقدين حقا اني أدعي عـــلم ما هو حق وصواب ورشاد ؟ لا ، اني لا أثق الا بما ينوي الانســـان عمله وينال في سبيله العذاب المر . ان شيئا كهذا لا يمكن ان يكـــون عديم المعنى والقيمة في نظر الله والانسان . فحاولي انت ايضـــا ، يا سونيا ، حاولي ان تؤمني هناك حيث لا تستطيعين فهمي ، ثقي على الاقل برغبتي في عمل الخير ، وسيعود كل شيء ، مجددا ، الى ما كان عليه ، سيكون كل شيء على ما يرام .

الكونتيسة : (مضطربة) اذن ستقول لي كل شيء .. ستخبرني بكل ما فعلتموه اليوم .

تولستوي : (في هدوء) سأخبرك بكل شيء ، ولن اعمل بعـــد شيئا في السر شبر خياني المتبقي ! ولسوف انتظر عودة كل مـــن سريوشكا واندري ، وعندها سأقف امامكم جميعا واخبركم بما قررتـــه في هذه الايام . فاتركي ، يا سونيا ، عدم الثقة خلال هذا الاجـــل القصير ولا تتجسسي علي ـ هذا رجائي الوحيد القلبي ، يا صوفيـــا اندرييفنا ، فهل تريدين تحقيق رجائي ؟

الكونتيسة : اجل ... اجل ... مؤكد ... اكيد .

تولستوي : أشكرك . انظري ، أرأيت كيف ان الصراحـــة والثقة تجعلان كل شيء أخف وأهون ! فما أروع ان نتحدث في جو مـــن الهدوء والصداقة ! لقد بعثت الدفء في قلبي من جديد . فانظـــري ، عندما دخلت كان الحذر يعمر قسمات وجهك ، حتى اني استغربـــت ما كان يجول فيه من اضطراب وحقد ، فلم أعرف انك انت التي كانت في السابق . اما الان فيبدو جبينك واضحا من جديد . وها أنذا اعرف ، ثانية ، عينيك ، يا صوفيا اندرييفنا ، وأنت لا تزالين فتـــاة يافعة ، أعرف العينين اللتين كانتا رحيمة بي ، عطوفة علي شفوقة . والان ، اذهبي واستريحي ، يا حبيبتي ، فقد مضى الوقت وتأخـــر . واني لاشكرك من كل قلبي . (يقبل جبينها . تنصرف الكونتيسة . وعند الباب تلتفت مرة اخرى في ارتباك) .

الكونتيسة : ولكنك ستخبرني بكل شيء ؟ كل شيء ؟

تولستوي : (لا يزال على هدوئه) كل شيء يا سونيا . ولا تنسي انت وعدك .

(تبتعـــد الكونتيسة ببطء وهي تلقي عـــلى المكتب نظـــرات قلقة مضطربة) .

تولستوي : (يذهب ويجيء في الغرفة عـــدة مرات . ثم يجلس الى مكتبه ويرسم بضع كلمات في مذكراته . ينهض بعد لحظة ويـــذهب ويجيء . يعود مرة اخرى الى المكتب ويورق ، مفكرا ، صفحات مـــن المذكرات . يقرأ ما كتب بصوت نصف عال : « انني اجهـــد نفسي ان أبدو هادئا مصمما ، قدر الامكان ، امام صوفيا اندرييفنا ، وأعتقد اني سوف انجح في تهدئتها ... لقد ظهر لي اليوم ، لاول مرة ، ان فـــي وسعي حملها ، بالحب والعطف والشفقة ، عـــلى التسليم ... آه ، لو ان ... » يضع المذكرات ، ويتنفس بصعوبة ، وبالتالي ينتقل الـــى الغرفة المجاورة ، ليشعل الضوء فيها . يعود مرة اخرى ويخلع ، فـــي جهد ، عـــن رجليه حذاء الفلاح الثقيل ، وينزع السترة ، ثـــم يطفىء الضوء ويذهب الى فراشه في الغرفة المجاورة ، ولم يرتد ســـوى السروال الواسع وقميص العمل) .

(تظل الغرفة ، لمدة وجيزة ، هادئة مظلمة جـــدا . لا يحـــدث شيء ، ولا يسمع نفس . فجأة ينفتح الباب المؤدي الى المكتب بهدوء وفي حذر السارق . شخص ما يجوس ، حافي القدمين ، في المكـــان الحالك الظلام ، وبيده مصباح يلقي على الارض خيطا رفيعا مـــن الضوء . انه الكونتيسة . تنظر حولها في خوف وتنصت الى بـــاب غرفة النوم ثم تتسلل ، مطمئنة على ما يظهر ، الى المكتب في الناحية المقابلة . ضوء المصباح ينصب بالدرجة الاولى على مكان المكتب الغارق في الظلام . تلتقط الكونتيسة التي لا يرى منها غير يديها المرتعشتيـــن في دائرة الضوء ـ تتناول اولا ورقة مهملة ، ثم تبدأ ، في اضطـــراب عصبي ، بقراءة المذكرات ، وبالتالي تخرج الاوراق ، الواحدة تـــلو الاخرى ، من درج المنضدة ، وتبحث في الاوراق بسرعة متنامية دون ان تجد شيئا . اخيرا تتناول المصباح بحركة مرتجفة وتخرج . محياها شارد كأنه وجه سائر متكلم في النوم . وما يكاد الباب ينغلق خلفهـــا حتى يفتح تولستوي باب غرفة النوم برجة واحدة ، وفي يده شمعـــة متأرجحة . كانت الثورة تهز الرجل العجوز بصورة رهيبة : لقد كان متربصا بزوجته . يجري وراءها بسرعة ويشد مقبض الباب ، غير انه يستدير بقوة . يضع الشمعة فوق المنضدة في هدوء واتزان وعـــزم . ثم يتجه نحو باب غرفة في الجهة الاخرى ، ويدق في حذر وبصـــوت خافت جدا) .

تولستوي : (بخفوت) دوشان ... دوشان ...

صوت دوشان : (آتيا من الغرفة المجـــاورة) هل انت هـــو يا ليو نيكولايفتش ؟

تولستوي : لا ترفع صوتك يا دوشان ! اخرج في الحال ...

دوشان : (يقبل من الغرفة المجاورة ، مرتديا نصف ثيابه ايضا)

تولستوي : أيقظ ابنتي الكسندرا لفوفنا ، عليها ان تحضر فـــي الحين ! ثم اذهب بسرعة الى الاسطبل ومر غريغور باعداد الخيـــول ، وليفعل ذلك في هدوء حتى لا يلاحظ احد شيئا . وكن انت نفســـك هادئا ! لا تنتعل حذاءك ، وكن حذرا فان الابواب تصر . يجب أن نذهب بدون تأخير ـ لم يبق لنا وقت نضيعه .

(يخرج دوشان مسرعا . يجلس تولستوي وينتعل جزمته وقـــد اتخذ قرارا قاطعا . يلتقط سترته ويرتديها بسرعة . ثم يبحث عـــن بعض الاوراق ويقوم بجمعها . حركاته عصبية وأحيانا مرتعدة . يرتج كتفاه وهو جالس الى المكتب يسطر بعض الكلمات في ورقة) .

ساشا : (تدخل في هدوء) ماذا حدث يا ابت ؟

تولستوي : سأسافر ، سأهرب ... اخيرا ... اخيرا اتخذت

قراري النهائي . قبل ساعة حلفت لي انها ستتق بي . وها هي الان تدخل في الثالثة صباحا الى غرفتي لتبحث في اوراقي ... لكن ، كان ذلك حسنا ، حسنا جدا ... لم يكن ذلك بارادتها هي ، بل بارادة اخرى . كم كنت ارجو الله ان يمنحني اشارة حين يحين الوقت - وها هو يمن بها علي الان . ولي الحق في هجرها الان كما هجرت هي روحي .

ساشا : ولكن الى اين تريد ان تذهب يا ابي ؟

تولستوي : لا اعرف ، ولا اريد ان اعرف ... الى مكان ما . حسبي ان اهرب من هذا الوجود المزيف ... الى مكان ما ... ان فوق الارض شوارع كثيرة . هناك في مكان ما ينتظر تبن او فراش ان يموت فيه رجل عجوز ، في هدوء .

ساشا : سأرافقك ...

تولستوي : لا . يجب ان تبقي هنا لتهدئتها وادخال الطمأنينة على نفسها ... انها ستجن ... اواه ، اي ألم سيصيبها هي المسكينة !.. وانا ، انا ذلك الذي يعذبها ... لكني لست استطيع غير هذا ... والا سوف اختنق هنا . انت تبقين هنا الى ان يصل اندرى وسيريوشكا . ثم الحقي بي . سأسافر اولا الى دير شمردينو لاودع اختي ، فأنا اشعر ان وقت الوداع قد قرب .

دوشان : (يعود مسرعا) لقد أعدت الخيول .

تولستوي : اذن فاستعد انت نفسك يا دوشان . خذ أخف هذه الاوراق عندك .

ساشا : يجب عليك يا ابي ان تأخذ المعطف الفرو ، فالبرد قارس جدا في الليل . سأجلب لك بسرعة ثيابا دافئة ...

تولستوي : لا ، لا ، لا شيء اكثر . يا الهي ، لا يجوز لنا ان نتردد بعد ... لا اريد ان انتظر بعد ... لقد انتظرت هذه الساعة ، هذه الاشارة ستا وعشرين سنة ... استعجل ، يا دوشان ... فقد يؤخرنا احد ويعوقنا . هنا ، خذ الاوراق ، كتب المذكرات والقلم ..

ساشا : واجرة السفر ، سأجلبها ...

تولستوي : لا ، لا نقود بعد ! لا اريد ان المسها بعد . انهم يعرفونني في المحطة وسيقطعون لي البطاقة ، وفيما عدا ذلك فان الله سيساعدني . انه عملك وتعال يا دوشان . (لساشا) : سلمي اليها أنت هذه الرسالة : انها وداعي لها . فلتغفر لي عنها . واكتبي لي كيف احتملت ذلك .

ساشا : وكيف اكتب اليك يا أبي ؟ فلو ذكرت اسمك وعنوانك في البريد لعرفوا ذلك وطاردوك . يجب عليك ان تأخذ اسما مستعارا.

تولستوي : آه ! الكذب ! البهتان دوما ! ان الاسرار تنزل روحي دوما الى الحضيض ... لكنك على صواب ... تعال يا دوشان ! كما تريدين يا ساشا ... ما هي الا نية حسنة ... اذن كيف اسمي نفسي ؟

ساشا : (تفكر لحظة) سأوقع البرقيات كلها باسم فرولوفا . اما انت فتتسمى باسم ت. نيكولاييف .

تولستوي : (وقد نفد صبره) حسنا ... حسنا . ت. نيكولاييف ... والان وداعا . (يعانقها) . قلت لي ينبغي ان أتسمى باسم ت. نيكولاييف . اذن كذبة اخرى ! واحدة اخرى ! الان ، اذا أعانني الله ، فانها ستكون اخر كذبة اكذبها على الناس .

(يخرج مسرعا) .

ـ المشهد الثالث ـ

(بعد ثلاثة ايام (٣١ اكتوبر ١٩١٠) . غرفة الانتظار بمحطة استابوفو . الى اليمين باب زجاجي كبير يفضي الى افريز المحطة . والى اليسار باب يفضي الى مسكن ناظر المحطة ، ايفان ايفانوفتش اوسولنغ . تحتوي غرفة الانتظار على مقاعد خشبية ومائدة ، جاس حولها بعض المسافرين في انتظار القطار السريع القادم من « دانلوف » : فلاحات نائمان وقد تلفعن بأرديتهن ، وتجار صغار يرتدون معاطف صوفية ، وبالاضافة الى هذا بعض اثرياء المدينة ، لعلهم موظفون او تجار .

المسافر الاول : (يقرأ جريدة ، فجأة بصوت عال) : ان تصرفه هذا لممتاز ! عمل نادر قام به العجوز . ما كان احد ليتوقع ذلك منه !

المسافر الثاني : وماذا هناك اذن ؟

المسافر الاول : لقد هرب ليو تولستوي من بيته . ولا احد يعرف الى اين ؟ نهض في الليل ، وانتعل جزمته وارتدى المعطف الفرو وسافر هكذا دون متاع ودون وداع ، ولم يرافقه غير طبيبه دوشان بتروفيتش.

المسافر الثاني : وترك زوجته العجوز في البيت . ليس هذا مزاحا بالنسبة لصوفيا اندرييفنا ! من كان يتوقع منه ذلك ، والى اين ، تقول ، انه سافر ؟

المسافر الاول : هذا بالضبط ما يود معرفته اهل البيت ورجال الصحافة . انهم الان يرسلون البرقيات الى جميع انحاء العالم . وقد ادعى بعضهم انه رآه عند الحدود البلغارية ، ولكن البعض الاخر يتحدث عن سيبيريا . ولا احد يعرف شيئا على التحقيق . لقد احسن صنعا ، هذا العجوز !

المسافر الثالث : (طالب شاب) ماذا تقولان ؟ لقد هرب ليو تولستوي من بيته ، ارجوك ، أعطني الجريدة ودعني أقرأ ذلك بنفسي . (يلقي نظرة عليها) آه ، مرحى ! كان حسنا وجميلا منه ان ينهض اخيرا !

المسافر الاول : ولم يكون ذاك جميلا منه ؟

المسافر الثالث : لان الحياة التي كان يحياها كانت متناقضة لتعاليمه . لقد طالما أرغموه على تمثيل دور الكونت وخنقوا صوته بالتملق والمداراة . اخيرا اصبح في وسع ليو تولستوي ان يخاطب الناس بحرية ومن اعماق روحه . نرجو الله ان يوفقه في اطلاع العالم على ما يحدث لشعب روسيا . اجل ، لقد أحسن صنعا ، انه لنعمة على روسيا وشفاء لها ان يكون هذا القديس قد تحرر اخيرا ونجا بنفسه .

المسافر الثاني : لعل هذا مجرد ثرثرة لا اساس لها من الصحة ، لعل (يلتفت ليرى ما اذا كان هناك من ينصت ، ثم يهمس) : لعلهم كتبوا ذلك في الجرائد ليخدعوا الناس فقط ، بينما هم في الحقيقة قد اعتقلوه ونفوه .

المسافر الاول : ومن نكون له مصلحة في نفي ليو تولستوي وطرده ؟..

المسافر الثاني : هم ... كل اولئك الذين يعترض سبيلهم ، هم كلهم ، الكهان والشرطة ورجال الجيش ، كل اولئك الذين يخافونه . لقد اختفى بعضهم في السابق بهذه الطريقة ، الى الخارج ، هذا ما قيل فيما بعد ... لكنا نعلم ماذا يقصدون بالخارج ...

المسافر الاول : (بصوت واطىء ايضا) هذا ممكن ...

المسافر الثالث : لا ، انهم لا يتجاسرون على هذا . ان هذا الرجل بكلامه فقط يفوقهم قوة ، هم جميعا ، لا ، انهم لا يتجاسرون على ذلك ، لانهم يعلمون اننا سنخرجه بقبضات ايدينا .

المسافر الاول : (بسرعة) حذار ... انتبه ... ان سيريل غريغوروفتش قادم ... اخف الجريدة بسرعة ...

(يدخل رئيس الشرطة سيريل غريغوروفتش ، في بذلته الرسمية، عبر الباب الزجاجي قادما من افريز المحطة . يتجه في الحال الى غرفة ناظر المحطة ويدق) .

ايفان ايفانوفتش اوسولنغ : (ناظر المحطة ، من داخل غرفته ، وفوق رأسه قبعة العمل) آه ، انت هو يا سيريل غروغوروفتش ...

رئيس الشرطة : يجب ان اتحدث معك في الحين . هل زوجتك معك في الغرفة ؟

ناظر المحطة : نعم .

رئيس الشرطة : اذن فالاحسن هنا ! (للمسافرين بصوت آمر

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

الطفلة العجوز

ما بالها الريح الجنوبية ؟
تطحن في أنيابها البروق والرعود
وتزرع السموم والحقود .
تحمل في أردافها تنينها العجوز
مهشم الاحلام والعيون
الجرح في جبينه ينز بالصديد
والنار في ضلوعه مسعورةالحريق
هل تعلم الرياح والبروق
بأن أرضا ثرة العطاء
تفتحت مسامها
واحتضنت سهولها
مراشف الانداء
والصبوة المؤبده
ترش درب الحب بالضياء .
والشعر أفق أخضر
ألحانه نهود
ضجت حنينا وهوى
لشرفة الخلود .
من جرّح القصيده
وصب في حروفها الدمار ؟
وخاط جفن المقلة الشهيده
بابرة من نار ؟
من رام سحق الدرة الفريده ؟
وقوقع النهار ؟
من شق قبر العزة العنيده
ليعبر الغزاة
ليصبغوا الحياه
بالعار ، باحتقار
ماذا دهى الطغاه ؟
ما بالهم قد هربوا ؟
ما بالهم قد خلفوا
عتادهم في ساحة تتوق للدماء ؟

. . .

لو جسّد الفخار
لأترع الرمال قهقهات
تبصق في ظهورهم
تقيىء في أصلابهم
ذلا مدى الحياه
الطفلة العجوز لن تموت
لانها تفجر الرغاب
ترقص كل ليلة
عارية الاهاب
على ضفاف الانهر الحبيبه
والنغمة الحبيبه
تهدل للصباح
وتكسف الشموس
برقة الرموش

. . .

لو صحت الظنون يا حبيبتي
لمت من زمان
خلف الكوى المخضبة
بالتبغ ، بالصديد .
ولاستراح النبع في العروق
وعشش الغراب
في الرئة المحببه
وأورقت دموع
في جبهة القمر
وانغرزت أظافر القرصان
على شذى الصخور
وديست العيون
بأرجل شعورها مخارز ، قد شربت
سموم
وانفرطتأغنيةعلىشفاه حاصد قديم
يقدس التراب
ويعشق البذور .
واحترقت في الافق غيمتان
يا طالما قد أعطتا الندى
للورد ، للشذى

. . .

لو صحت الظنـون يا حبيبتـي
لانفرط الزيتون
في غابة الزيتون .
والسرج فيأفراحنا تغص بالغبار .
وانتحر النهار .
والنمل يجني الشوك والصوان
والملكة المبرجة
وحيدة يمضغها القرف
ولن يعيش الدر في الصدف
لكن ظنون السادة العبيد
ماتت كما يموت الدود فيالجليد.

دمشق

مصطفى البدوي

بين اليازجي والشدياق

أول معركة في النقد العربي

بقلم انور الجندي

يمكن ان تعد المعركة الادبية بين اليازجي والشدياق التي وقعت عام ١٨٧١ أول معركة ادبية في الادب العربي المعاصر ، فما نعلم ان هناك معركة سبقت هذه المعركة ، وكنا قد أصدرنا مجلدا كاملا عن المعارك الادبية ضمن موسوعة معالم الادب العربي المعاصر تناولنا فيها اكثر من ستين معركة وكان أقدمها معركة رسالة منصور فهمي عام ١٩١٤ عن حالة المرأة في التقاليد الاسلامية وتطوراتها ..

أما قبل هذا التاريخ فقد أشرت اليه اجمالا حين ذكرت ان هناك معركتين أولاهما بين ابراهيم اليازجي وفارس الشدياق ، ومعركة كتاب تحرير المرأة لقاسم امين عام ١٨٩٨ ولما كانت الاخيرة معركة اجتماعية في الاغلب حيث تدور حول مفاهيم السفور والحجاب وتعليم المرأة ، فقد رأينا ان نستعرض معركة اليازجي والشدياق باعتبارها معركة ادبية دارت حول اللغة أصلا .

وكان أحمد فارس الشدياق قد رثى المرحوم ناصيف اليازجي في مجلة الجوائب (العدد ٥٤٩ – عام ١٨٧١) بقصيدة من الشعر « صدرها بكلام طويل اشار به الى مودة قديمة بينهما أوجب عليه رثاءه ، متمنيا له طول البقاء » ثم اشار الى ان مرجع ذلك الوطن والجيرة وأن الرسائل الحبية قد استمرت بينهما كما استمرت المطارحات الادبية ، ثم اشار الى انه كان قد وجه اليه قصيدة شعرية فلما طبعها في ديوانه رفع اهداءها ثم اشار الى انه كتب له في أحد خطاباته عبارة (الفحطل) وعاب عليه هذا الخطأ وقال ان وجه الانتقاد فيها ان الحاء فيها مقدمة على الطاء والعكس هو الصحيح وان يقال الفطحل بتقديم الطاء .

وهذه عبارة الشدياق في الجوائب ٤ ماي (ايار) ١٨٧١ :

« قد كان بيني وبين الشيخ ناصيف اليازجي مودة قديمة لانا كنا جيرانا في ساحل بيروت فكان مقره في كفرشيما ومقري في حارة الحدث ولما كنت في مالطه جرت بيننا مراسلات ادبية فأرسل الي قصيدة من الجناس العاطل . وكان قد ارسل الي قصيدة « لا تبك ميتا ولا تفرح بمولود » ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحب بيننا ، ثم أرسل الي كتابا ذكر فيه انه بلغه ان احد سكان الاستانة يريد ان يطبع مقاماته ولا يكون ذلك على وفق رضاه فان في نيته زيادة شيء عليها وتغيير شيء منها فأجبته بأني استقصيت عن هذه القضية فلم أقف لها على اثر فاذا علمت شيئا بعد ذلك أنهيته اليه ، وكان أول ما خطر ببالي من التغيير الذي نواه لفظة الفحطل المذكورة في المقامة الانطاكيه ثم قال في تفسيرها هو زمن قبل ان يخلق الناس ويمكن ان يكون المراد به زمن الطوفان لان الفحطل هو المطر الشديد ، وهو وهم فان حق اللفظة القديمة الطاء على الحاء قال في القاموس الفطحل (كهزبر) وهو لم يخلق فيه الناس بعد . ولا شك ان قول الشيخ ناصيف في المتن والشرح فحطل بتقديم الحاء على الطاء هو من غلط الوهم الذي يغتفر للشاعر ... »

وقد رد « ابراهيم اليازجي » على « فارس الشدياق » مدافعا عن والده في مجلة (الجنان – ١٥ حزيران ١٨٧١)

قال مشيرا الى قصيدة الشدياق وما صدره بها ثم قال : غير انا وجدنا في اثناء كلامه من الانتقاد عليه رحمه الله ما حملنا على الاستغراب والعجب ، وقد وددنا ان نحمل كلامه هذا على مقتضيات المودة ، وان كنا لا نجد لذلك وجها سديدا .

ولما كان ما أورده من الكلام لا يخلو من فطنة جاهل واهم أو من نقد عالم بصير ، رأيت من باب الوجوب ان اتصدى لاجابته ردا لاوهام الواقفين عليه الى كنه الصواب والحقيقة .

وقد ذكر « صاحب الجوائب » في صدر كلامه مقدمات اشار بها الى مودة بينه وبين ابي رحمه الله ، كان منشأها الوطن والجيرة ، ثم استمرت بالمراسلات الحبية والمطارحات الادبية ، والامر كذلك فان أبي بعث اليه بقصيدة عزاه بها عن اشياء له مطلعها :

لا تبك ميتا ولا تفرح بمولود   فالميت للدود والمولود للدود

وقد اجابه عنها بما مطلعه :

ما في يوم وليل دهر تنكيد   فما البقاء وان تحرص بمحمود

وقد اشار في اثناء كلامه غير ما ذكرت الى قصيدته ، يقول :

ان ابي اجابه باحداهما عن قصيدة له وبعث اليه بالاخرى .

ثم استدرك يذكر موجدة قديمة وعتب لعدم تصريحه باسمه في عنوان القصيدة التي عزاه بها في حين طبعها في ديوانه وقال : ولا ادري ما منعه من التصريح باسمي مع صفاء الحب بيننا ، اقول والعجب من هذا فان ما عنده من صفاء الحب قد اضمر له ما اضمر الى ما بعد وفاته . ولعل في ذلك سرا يدركه اولو الالباب ، ولا ادري ما ضره عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدح له وانما هي حكم وامثال يعزيه بها ، ومن الغريب ان امرأ كهذا قد اثقل منكبي الامام واقلق وقاره حتى نشره في جريدة سيارة والقى به نفير العتاب في الاقطار وأعمل الافكار في البحث عن سبب ذلك .

ثم استطرد الى ذكر كتاب قال ان أبي بعثه اليه من الاستانة (عن طبع مقاماته) ثم قال : وكان أول ما خطر ببالي من التعبير الذي نواه لفظة « الفحطل » المذكورة في المقامة الانطاكيه الى آخره ...

والظاهر ان هذا هو الذي دعاه الى ذكر الكتاب فجعله تمهيدا لما نواه سامحه الله ، وأعجب كيف لم يدرج هذا في جوابه له حينئذ ، وقد كان المقام أليق به من كل الوجوه ، وشهد الله اني منذ اليوم لم أكن اتوقع مثل ذلك من الصديق القديم اذ لم يقع بيننا ما يبعث عليه كما يقرر في كلامه ، ولا كان عندي انه ممن يحاول النضال عن فطنة الانفراد ، وقد كان ما في نفسه ممكنا على وجه أليق وأجمل به .

اما وجه الانتقاد على اللفظة المذكورة فهو ان الحاء فيها مقدمة على الطاء في الواقع والحق العكس وان يقال « الفطحل » بتقديم الطاء .

(ثم أورد احكاما نحوية كثيرة) .

والشيء بالشيء يذكر ، فما مر الكلام عليه من الخلل في الاحكام الفاصلة هو على حد قوله في كتابه سر الليال .. « ولكنهم عدلوا عن هذه الجادة الى جادة اخرى جاهدة » ومثله قوله بعد ذلك « فظهرت أسارير حسنها وتباشير فنها وحكمة وضعها وبهجة مطلعها ، فان الجادة لا توافق جاهدة ووضعها لا توافق مطلعها وانما تكون الجادة بازاء النادرة مثلا وجاهدة بازاء شاردة وهلم جرا .. » ومن ذلك قوله ... ومن ذلك قوله الخ ..

(حتى أورد خمسا أو ست اعتراضات عليه) .

ثم قال : وهنا أمسك عنان القلم اكتفاء بما ذكر عما لم يذكر ، على انني ما علقت ما علقته من غير اختيار مني كما أشرت فيما سبق ولكن قد جرى القلم ولعلي في جانب الغدر .

كما انني في ما تداركت على سر الليال لم أتجاوز الصفحة الواحدة ...

ومضى يقول : ولا بد من ملاحظة ما ذكره صاحب الجوائب مرارا في اثناء انتقاده من الاعتذار عن أبي رحمه الله في ما احتسبه خطأ منه ، وكأني به وراء ذلك يقصد بسط العذر لنفسه ايضا في وجه ربما خيل له الواقع ان الذمم عنده تموت بموت اصحابها والعياذ بالله. وذلك مما تأباه اخلاقه ولا يرضى به من تحلى بشعائر الكرم والشهادة، فانه قد حفظ له ذلك العهد زمنا ينيف عن ستين سنة وبينهما مسافة من الارض . فمن اصعب ما يخال التسليم بأنه قد تنازل الى نكتة معه حين اصبح ولا مطالب به الا امانته وذمته ..

٢ ـ رد الجوائب على ابراهيم اليازجي

« لا يخفى أن سيدي الوالد (فارس الشدياق) وكان قد رثى المرحوم الشيخ ناصيف بقصيدة بليغة في عدد ٥١٩ منالجوائب وصدرها بمقدمة أشار فيها الى ما كان بينهما من المكاتبة والمودة التي اقتضت ان يرثيه ثم لم يمض علينا ايام الا وقد طالعنا جرنال الجنة صورة رسالة ارسلها الخواجا ابراهيم لتطبع فيه يقول فيها ان ما صدر من محرر الجوائب مردود من وجوه شتى (وكأنه عنى بردها في رأيه اما في الواقع فهي ثابتة)

وذكر انه علق عليها ردا قياما بما عليه من الحقوق نحو والده اقول فلما أن علم الخواجا المومأ اليه حقوقا لوالده توجب قيامه في رد ما لا يرد عنه فكذلك لوالدي علي حقوق تقتضي ان انتدب لذكر ملاحظة نيابة عنه في مدة غيابه وسيظهر الحق الحكم المنصف فأقول ان ما ذكره سيدي الوالد فيما يتعلق بالمكاتبة التي وقعت بينهما امر ثابت لا يمكن نكرانه لوجود الرسالات التي وردت من الشيخ ناصيف المذكور الى سيدي الوالد . ان الرد الذي طبعه في الجنان كلام لا يصدر ممن له تمكن في الادب بل كله حشو وتخيلات (يقصد ما ذكره عن سر الليال) وانما صار يتكلم بما لا يجدي حين اخذه الغضب، فعوضا عن ان يسير القلم بما اراد سار به القلم بالتضاد » .

٣ ـ ثم كتب فارس الشدياق في الجوائب (٣٠ اغسطس ـ آب ١٨٧١) يقول :

لا يخفى ان الخواجه ابراهيم اليازجي كان قد كتب في صحيفة « الجنان » مقالة خطأني بها فيما أوردته على لفظة « الفحطل » و « المرابض » ثم انتقل منها الى تخطئة بعض الفاظ وردت في مقدمة « سر الليال » وأطال لسانه بالتهكم والتنديد مكافأة لي على كوني رثيت أباه ، وحيث كان وصول مقالته الي وأنا أطوف في البلاد لتبديلالهواء، وكان اعتنائي بصحتي اذ ذاك أوجب علي من معارضة السفهاء ، فلم يهمني الرد عليه وتخطئته فيما خطأني به ، ولا سيما ان تخطئته كانت ظاهرة في عين كلامه ، لانه مبني على المغالطة والتمويه ، وهو صفة كثير من امثاله الذين زببوا من قبل ان يحصرموا فاذا قالوا شيئا فانما يقصدون به اعجاب جيرانهم ومعارفهم من الاغبياء المسفسفين لا ارضاء العلماء ، الا اني لما استقر بي المقام بالاستانة ، رأيت الجواب على سفسطة المذكور أولى من السكوت لكي يعلم الناس اني لم ازل مراعيا لحقوق العربية التي تقضي علي بأن أردع كل سفيه عنها ، فأقول ان قوله (ولا ادري ما ضره عدم التصريح باسمه وليس في القصيدة مدح له وانما هي حكم وأمثال يعزيه بها محض مواربة فان أباه صرح بمدحي) .

فهل ذلك الا من العمى او التعامي . أما قوله الظاهر أن هذا هو الذي دعاه الى ذكر الكتاب فجعله تمهيدا لما نواه ، فالجواب انني لم أنو طعنا في مقامات أبيه ، ولو كان في قصدي ذلك لم أقتصر على لفظة الفحطل وانما خصصتها بالذكر لغرابتها .

أما قوله انها من غلط الطبع فيكذبه ورود المطل بعدها فتأمل...

ثم عرض للاخطاء التي اوردها عن كتابه سر الليال فرد عليها ثم قال : « ولا عجب فان هذا المتيليع يقول مثل الكلام فانه غر لم يمارس اللغة وانما العجب من كاتب الجنان ان ينشره عنه مع كونه حشر نفسه في عداد المؤلفين في هذه اللغة الشريفة ، وما ذلك الا لان كلام اليازجي أصاب منه موضع جرب فحكه » .

(وعاد مرة اخرى الى الهجاء) :

واذا كان هذا المعترض يدعي ان اباه كان معصوما من الغلط فتلك بدعة شؤمى .

ثم قال : « فمن كان رأس ماله في العربية هذا المقدار فليسكت ، والا فليستمن بصاحب الجنان على تنقيح كلامه فاما تعقيد كلامه واضطراب عبارته واسهابه في غير موضع الاسهاب فنكله الى من له ذوق سليم وطبع مستقيم » ا.هـ.

٤ ـ رد ابراهيم اليازجي على أحمد أفندي فارس الشدياق :

علم (١) الاكثرون ما وقع بيني وبين الشدياق .. فكأنما أوغر ذلك صدره وكبر عليه أمر تخطئتي له فيما اعترض به ونبهني له بعض ما رأيته من الخطأ في كتابه « سر الليال » مما أوردته في ردي المشار اليه فأخذ في الوعيد والتنديد مرة اخرى حتى ورد منه الجواب في العدد ٥٣٨ من صحيفته المذكورة ، واذا به قد عدل الى المسافهة والمهاترة وخرج بما لا يليق ذكره . فعجبت أول ما عجبت من ارتكابه

(١) الجنان ـ ٢ تشرين ١٨٧١ ـ ج ٢١

هذه الخطة المنكرة لاننا كنا في أول الامر قد دخلنا من باب المناظرة الادبية ولم نكن في شيء من قصد المهاجاة والمشاتمة . ولا كان عندي انه اذا دعت الحال لمثل هذا نتنازل الى المواطأة عليه ويرضى به لنكسه .

ولقد كنت أحسب ان تمادي الايام قد حان له ان يهذب من اخلاقه ويمكن عنده اسباب الحلم والدماثة والصبر على المكروه اكثر مما رأى من نفسه هذه المرة ، فاذا دمه لم يزل على حرارته المعهودة أيام كانت تلك النار تغري بفحم الشباب فكأنما كان ثلج المشيب أدعى الى المبالغة في ايقادها ، فما زاد على ان اثار شواظها فاذا هو هي . وقد علمت انني لم أكن مبادئا له في هذه المناقشة ولا سبق بيني وبينه عهد في أمر من الامور وانما كان هو المتجني المعتدي ولا سيما انه لم يأبى المرحوم وخطأه عبثا ، فلم يكن يسعني والحالة هذه الا رده وفاء بحق من انا مندوب في كل شرع ان أدرأ عنه كل عابث بحقه ، وبالتالي اظهارا للحقيقة التي لا احسب اني اكون معذورا اذا سكت عن ابرازها مع معرفتي لها وعدم تمكني عن الاغضاء عنها كما لا يخفى .

وكنت أود لو استمرت هذه المناقشة مجردة الى البحث في المسائل الادبية والحقائق العلمية ، دون ما يسمع كل يوم من غلمان الازقة وسفهاء الناس واجلافهم السفلة . ولو كان في ذلك فضل لكان الفضل لمثل هؤلاء لان فيهم من له اليد الطولى في هذا الباب ، ولعمري هذا ما طالما أشرت اليه في ردي السابق وعرضت في غير موضع بحب اجتناب هذا الرجل حذر انبعاثه علي بملئه سامحه الله ، على انه لو شاء ان يقابلني بأخس منه لكان أقدر عليه وكان أجمل به . وما اخاله يجهل ان من يبذل نفسه في مجال كهذا انما يتعرض لان يشرب بالكأس التي سقاني بها فهل يسوغ عنده ذلك ...

ولئن ساغ عندة ما فعلت أبدا وأبى الله ان اجري الا على ما أدبت عليه من الرزانة والنزاهة . ولعمري ما كنت لاقتحم موقفا كهذا أكون فيه عرضة لملامة الحليم وهزء السفيه ، وبناء على ذلك كان الاولى أن أقتصر عن الاجابة ، لان المناظرة من شرطها التكافؤ بين الجانبين ولا تكافؤبيننا لرجحانه علي بهذا المعنى ، ولكن لئلا يتوهم بي ظنة القصور لم أجد بدا من ان اجيبه هذه المرة مقتصرا على ما نحن في شأنه او ما هو من شأننا وأخلصه ردا علميا كما يليق بالاديب المهذب او بالحري بالشيخ الكامل .

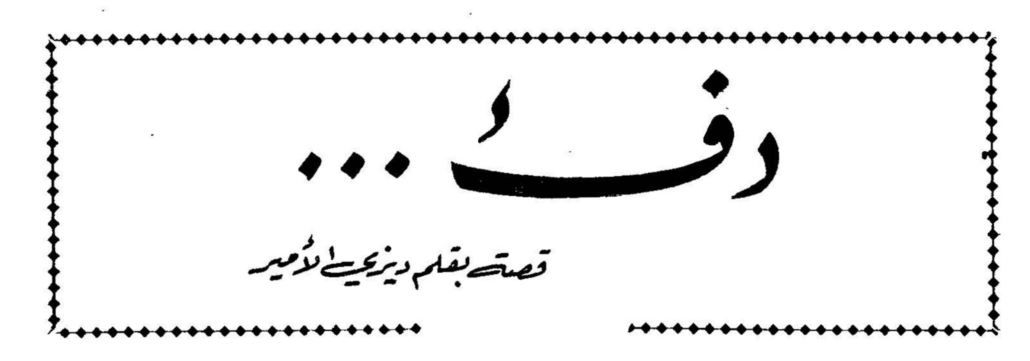
(وبعد ان كتب اليازجي ٣٠ صفحة نشرت في ثلاثة اعداد خلال شهري تشرين وكانون اول ١٨٧١) ختمها بقوله :

وهنا لا بد ان اقول ان هذه المناقشة كلها لم تكن مني عن رغبة ورضى ولا أنا ممن يتهافتون الى التخطئة والانتقاد لغرض ما ، وكان بودي استئصال هذا العرق من بيننا ، لو وافقني عليه ، والمحافظة على عهده مع ابي رحمه الله وكرامته فوق ذلك بالنظر الى سنه فضلا عن عدم التعرض له بما يكرهه ولكن قدر فكان والفضل للمتقدم .

ثم قال : « وشهد الله اني ما كنت لاكره الخوض في هذه المطارحات والمباحث الدقيقة فانها لا تخلو من فائدة لي لو انه حافظ على شأني وشأنه ولم يتجاوز الى امر الهجاء فاني شديد الكراهية له .
اما الان فقد بينت للواقف على هذه المناقشة مبلغ ما عنده من العلم فلا يلزمني بعدها مساجلته ومناظرته والتعرض لسهام قذفه ، لان آدابي ليست كآدابه ، وأطواري ليست كأطواره ، ولا رأي لي في مواطأته على ما ذهب اليه ومعاذ الله ، فذلك باب من قبلي محكم التوصيد .

ليست الوقيعة من شأني فان عرضت أعرضت عنها بوجه بالحياء ندى » .

القاهرة — **انور الجندي**



قيل لها « هل ذهبت تشكرين رئيس المؤسسة على تعيينك وتخبرينه انك سعيدة بالعمل معه وترجين ان تكوني عند حسن ظنه بك ؟ » .

فأجابت « كيف اتعهد بالسعادة » ؟

ـ : « هذه واجبات الموظف الجديد نحو رئيسه »

ـ : « سأذهب لشكره وأتعهد بالقيام بواجباتي »

وأحبت عملها وارتاحت للموظفين الصغار مثلها وأحست لذلك بالسعادة لا للعمل مع رئيس المؤسسة ، فهي لم تره بعد مقابلة الشكر تلك التي خرجت منها برعب . شلتها عيناه الصارمتان فتمتمت عبارة شكر وتركت الغرفة وحس بعينين صارمتين تلاحقانها .

بدأت تسمع زملاءها يتحدثون ويؤكدون على قوة شخصية الرئيس وصرامته في معاملة الموظفين والصغار منهم بصورة خاصة . اما الزميلات فكن يتحدثن كثيرا عن الرئيس الوسيم الانيق باساوب طبيعي لا تكلف فيه ، وكانت هي تعجب ان يبحن لانفسهن الحديث عنه بعدم كلفة وحين يسألنها رأيها تهلع كأنما من يسألها هو الرئيس نفسه وتشكر الله لان عملها لا يتعلق به بصورة مباشرة ، فهي تخاف الرجال وتذكر قول امها « الرجال يا ابنتي ، كل الرجال ذئاب » فنشأت وصورة الهلع وطلب النجدة تقترنان في ذهنها برؤية رجل .

والتقت مرة بالعينين الصارمتين في المصعد فارتبكت ولم تدر ما تعمل ، فكرت في ترك المصعد في الطابق الاول لاكمال طريقها الى فوق على الدرج ولكنها خجلت ان تمد اصبعها توقفه ولم يكلمها الرئيس وصعدت معه الى الطابق الاعلى ثم عادت فهبطت الى طابقها ، ولم تدر ان كان تصرفها صحيحا أم معابا ... العينان الصارمتان تلاحقانها ...

تراهما في الملاحظات القصيرة المكتوبة على ما تطبع من رسائل . لم يعط لها كتاب للطبع الا وقرأت في ركن من الاركان اسمه .. اسم الرئيس يوافق على ما جاء في الكتاب .. وبدأت تفتش عن توقيعه وملاحظاته وتحس صرامة اسلوبه في التعبير فيزيدها هذا خوفا منه ، وصار من طبيعة عملها التفتيش عن الملاحظة وعن توقيع صاحبها وعن قسوة العينين الصارمتين وعن الخوف منهما .

تنبهت يوما الى رائحة عطر وصوت انثوي يناديها . وامامها كانت تقف غانية بطريقة حديثها ووجهها الجميل وما عليه من مساحيق سميكة وجسمها وما يرتدي من فستان صارخ اللون والخطوط .. ما الذي جاء بالغانية هذه الى دائرة رئيسها ذو عينين صارمتين » ؟؟

كانت تفكر في هذا حين فهمت من حديث ذات العطر ان الرئيس يطلب رؤيتها . الرئيس يطلب رؤيتها ؟ « وما علاقة هذا الطلب بهذه الغانية » ؟! كلمة الرئيس جعلتها ترضخ بسرعة فقامت تسير كالمنوم تنويما مغناطيسيا . وحين وصلت الغرفة فتحت ذات العطر الباب وأشارت اليها بالدخول وذهبت تجلس بكل هدوء أعصاب وراء طاولة على الكرسي المخصص لسكرتيرة الرئيس ، دخلت الغرفة ورائحة العطر تحجب ما امامها .

سمعت العينين الصارمتين تقولان « تفضلي » فتفضلت ووقفت جامدة . أشارت لها العينان بالجلوس فجلست منكسة الرأس ، ترى عينين صارمتين وتشم عطرا قويا .

سألها ان كانت تستطيع القيام بأعمال اضافية بعد فترة الدوام الرسمية فأجابت بالايجاب رأسا دون ان تفهم سبب جوابها . كانت تريد الانتهاء من هذه المقابلة بأسرع ما تستطيع . اخرج لها من درج مجموعة اوراق وعرض عليها ان تستعمل غرفتها وآلتها الطابعة ان كانت لا تملك آلة طابعة في البيت فشكرته وهي لا تدري ان كان عرضه يستلزم الشكر ، وسكت فعرفت ان المقابلة انتهت ، فعادت تشكره قبل الخروج ، وحين شمت رائحة العطر عادت احداث هذه الفترة القصيرة تتشابك في ذهنها الحائر .

رمت الاوراق في الدرج دون تقليبها . خافت ان تفتح اوراقا خاصة بالرئيس كانت في درجه وائتمنها عليها . « لكن عليها ان تطبع هذه الاوراق ... عليها ان تقرأ محتواها ! » اغلقت الدرج مسرعة . عادت الى العمل . اصابعها لا تطاوعها على الضرب . فتحت الدرج قليلا ، أزاحت ملف الاوراق فرأت مجموعة مكدسة فوق بعضها دون ترتيب . وعلى الصفحة الاولى وما برز من بقية الصفحات كانت كلمات مكتوبة بخط يد الرئيس .. فهلعت . كلمة « موافق » وتحتها التوقيع كانت تخيفها فكيف بأوراق كثيرة مملوءة كلها بذاك الخط ؟

أغلقت الملف وأبعدت يدها المرتجفة عنها بسرعة . وفي البيت لم تدر كيف تنقل الخبر لامها . كان عليها ان تروي لها كل القصة لانها ستعود الى المكتب . تطبع تلك الاوراق .

فرحت الام ، فمعنى هذا ان الرئيس راض عنها وان عملها جيد بحيث اصطفاها من بين كل الموظفات الاخريات . لم تفكر في هذا الاصطفاء الا الان .

نعم لقد اصطفاها الرئيس ولكن لم ؟ وأحست رائحة عطر السكرتيرة . ولم تقل امها هذه المرة « الرجال يا ابنتي كل الرجال ذئاب » أرادت تذكيرها بهذه العبارة ثم سكتت وأتعبها هذا السكوت .

وفي غرفتها في المؤسسة رأت عددا من الزملاء والزميلات يقومون بأعمال اضافية ، فاطمأنت ثم شعرت ببعض الضيق .

كانت مادة الاوراق بحثا اقتصاديا كله احصائيات وارقام ، فهمت منها ان الرئيس يؤلف كتابا في علم الاقتصاد او يعد تقريرا احصائيا .

مر يومان على انتهاء الطبع ، وهي تفكر في طريقة لايصال الاوراق لصاحبها ، واستقرت على فكرة ارسالها بطريقة ما .. ولكن ما هي تلك الطريقة ؟

وذهبت تحمل الاوراق الى غرفة الرئيس وهي لا تدري كيف واتتها الشجاعة ، ولكنها توقفت عند طاولة السكرتيرة حين رأت أناقتها وجمالها وشمت رائحة عطرها . وجدت نفسها تضع الاوراق امام ذات العطر وأصبح معتادا بعد ذلك ان تأتي الاوراق بواسطة السكرتيرة وتعود الى الرئيس بنفس الطريقة . قالت امها انها أخطأت فمن مظاهر الاحترام ان تعطي الاوراق وتأتي بها بنفسها ... ولم تفهم سر هذا التحول في نظرة امها الى الرجال .

اليوم التالي استدعاها الرئيس الى مكتبه وشكرها على اتقان الطباعة وقال انه مستعد لمساعدتها ان كان هناك ما يضايقها .. « نعم

هناك ما يضايقها وما تحتاج لمساعدته فيها ولكنها لا تدري ما هو وان أمكن شرحه للرئيس » .

في البيت تأملت نفسها في المرآة فرأت جسما ضئيلا فوقه ثوب بسيط وفي عينيها نظرة استخذاء . تمنت لو كانت امها جميلة تورثها جمالها أو كان ابوها غنيا يورثها ثروته . ذهبت الى فراشها وهي تتمنى لو كانت مدرسة في مدرسة ليس فيها ذئاب .

حملت لها السكرتيرة مجموعة اكبر من الاوراق وأخبرتها ان الرئيس يستعجل اتمامها .

عليها ان تبقى فترة اطول بعد خروج الزملاء والزميلات . وكانت وحدها حين سمعت صوت رنين الهاتف . لم يكن المسؤول عن الرد عليه موجودا فتركته يرن وضايقها مواصلته فقامت تجيب وهي تحس نفسها تتعدى حقوقها . ومن هناك سمعت صوت رجل يحييها ويسألها ان كانت متعبة . سألته عن اسمه معتذرة عن عدم تمييز الصوت فذكر لها اسما جديدا ، فعادت تعتذر عن جهلها فذكر لها الاسم كاملا ... وأحست بصوتها يختنق .. كان الرئيس من يحدثها قال انه سيأتي لرؤيتها لعمل مهم .

تأملت الغرفة الفارغة وتذكرت قول امها « الرجال يا ابنتي كل الرجال ذئاب » ثم تذكرت صورتها في المرآة ... فعادت تجلس الى الالة تطبع .

امتدت يد تمسك بيدها وصوت الرئيس نفسه يقول : « لقد تعبت ارتاحي قليلا » .

أمسك بيدها وسار بها خارجا وفتح لها باب سيارته ودخلتها وبدأ يدير محرك السيارة ، وسارت بهما السيارة وهي ساكتة طائعة لا تدري لمَ سكنت ولمَ تطيع .

فتح لها الرئيس الموضوع رأسا قال : انه يريد ان يتخذها صديقة له بكل ما تحمل الكلمة من معاني الصداقة بين المرأة والرجل ووعدها بزيادة راتبها وبابقائها في العمل ، وقال : انه معجب بهدوئها وتكتمها .

كان الطريق مملوءا بالمارة ، ومقبض الباب لصق كفها « امها والسكرتيرة ذات العطر والزملاء والزميلات وضربات الالة الطابعة تدق ضربات متوالية » .. ثم صورتها في المرآة » ... ووصلا منطقة مهجورة وسارا في طريق وعرة والرئيس يعيد نفس الحديث باسلوب ثان وثالث أوضح وألين واكثر اغراء وهي مشلولة صامتة .

وقفت السيارة امام مطعم صغير منعزل ، ونزل يفتح لها الباب فتبعته . أجلسها على كرسي فجلست وجلس قبالتها يتأملها ، وفجأة بدأت ترتجف وكان ما تلفظته بعد هذا الصمت الطويل « الجو بارد جدا هنا » . وعادت تنكس رأسها .

رأت ظله واقفا وأحست شيئا يوضع على كتفيها وصوته يطلب فنجان شاي ساخنا .

رفعت رأسها ، كانت سترته تغطيها ونظرة حنان تشع من العينين الطيبتين .

عصر اليوم التالي خرجت ثم عادت فأعدت فنجان شاي ساخنا وسحبت معها شالا سميكا قبل ان تترك البيت .

ديزي الامير

الفيلسوف و « مشكلة الحب »

بقلم سيد صبحي

تقديم :

ان الانسان ليحس برعشة من السرور والقلق وهو يتناول هذا الخليط الشعوري واللاشعوري الذي تضمنه كتاب « مشكلة الحب » (١) للاستاذ الدكتور زكريا ابراهيم .. ثم لا يلبث القارىء ان يجد في الكتاب ميزة هامة أنفرد بها الكاتب ألا وهي (الدياليكتيكية الفكرية) فهو ليس كالتفكير المنطقي العقلي موحدا منتظما مشعورا به بل هو خليط متناقض ـ اذا اراد التجسد احتاج الى اكثر من فكرة .. ومن هنا فقد جاء هذا العمل خليطا معقدا ، وهذا ما يثيره ويزيده اشتعالا ـ واستمرار هذا التناقض الجوهري فيه يجعلنا في حاجة الى ان نقرأه اكثر من مرة ، ولن يهدأ بال القارىء حتى يحس او يتوهم عندما يتناول هذا الكتاب انه قد سيطر على الانفعال الذي يغلف ابواب الكتاب ذلك الانفعال الذي يؤكد حقيقة هامة هي : أن الحب بمعناه الحقيقي هو قوة دافعة بالذات الى اغناء نفسها حتى تبلغ أقصى درجة ممكنة لتمام التحقق الفعلي ، ونزوع مستمر نحو بلوغ هذه الغاية ، ومن هنا امتاز بالحركة الدائبة وبالخلق والايجاد . فغاية الحب هي الخلق والايجاد وهو بذلك يدعو الى الزيادة في التحقق ، ويدفع نحو تحصيل لفعل جديد ، ومن هنا كان يشير دائما الى آت لم يتحقق بعد أي الى المستقبل المليء بالحنان والتشويق ... واذا كان الادب هو التعبير الفني الذي نستطيع ان نلمح فيه هذا التنقل من المستويات الحسية الى المستويات الوجدانية والفكرية .. فالفيلسوف صاحب هذا الكتاب عندما يكتب بلغة الادب فهو وحده الذي يستطيع ان يعطيك في الشخص ما هو انساني !

وهنا سيكون علينا بالضرورة ان نتساءل : هل الحب الانساني حقيقة لها وجودها ؟ ام هو مجرد وهم وخداع ؟ وهل يقتصر الحب على علاقة الانسان بالانسان ام ان هناك ماهية مشتركة تجمع بين كل ضروب الحب ؟ وهل يصح القول بأن الحب الجنسي هو الاصل الذي ترتد اليه كل اشكال الحب ؟ وهل الحب هو مجرد عاطفة ام هو (فعل عرفاني) ام هو نزوع نحو القيمة .. ام هو شيء اخر غير كل هذا ؟ كل تلك الاسئلة يأخذ بعضها بركاب البعض الاخر وهي في مجموعها تكون ما اصطلح على تسميته « مشكلة الحب » .. ولكن أليس من الخطورة بمكان ان نساير هؤلاء الفلاسفة المتعارضين في احاديثهم عن الحب خصوصا وان اصحاب الفلسفة فيما يقول خصومهم قد دأبوا على تعقيد ما هو واضح بدلا من ايضاح ما هو معقد ؟!

ولكن الفيلسوف صاحب الكتاب يقدم لنا حقيقة هامة جدا عن مفهوم الفلسفة فيقول : لقد كان القدماء يفهمون الفلسفة على انها (حب الحكمة) ، ولكن الفيلسوف المعاصر « هيدجر » يأبى الا ان يقلب الوضع فيقول : « ان الفلسفة هي (حكمة الحب) والفيلسوف هو الحكيم الذي تخصص في الحب » . وهيدجر على حق حينما يجعل من «الحب» موضوع تخصص الفيلسوف على شرط ان تفهم من لفظ الحب هنا تلك الرابطة الوثيقة التي تجمع بين الفكر والطبيعة او ذلك الرباط السحري الذي يوحد بين الانسان والعالم ـ فالفلسفة هي بمعنى ما من المعاني (حكمة الحب) ، ويصبح الفيلسوف هو أقدر الناس على الحديث عن الحب ـ وليتفضل القارىء العزيز بقراءة ما تضمنه الكتاب من أفكار مع وضع الاعتبار الآتي : ان الفيلسوف هو وحده الذي يعرف (انك لكي تفسر الحب ، فلا بد لك من ان تمضي الى ما وراء الحب)

اولا : اشباه الحب

يحدثنا الفيلسوف صاحب الكتاب عن اشباه الحب فيتناول « **حب الذات** » ويقرر حقيقة هامة مؤداها : « انه هيهات للموجود البشري ان يصبح عين ذاته في عالم اشياء ـ لان الانسان لا يصبح (أنا) بمعنى الكلمة الا حينما ينطق لاول مرة بكلمة (أنت) فالوجود الحقيقي بالنسبة الى الانسان انما يتحقق من خلال تلاقيه مع غيره من الاشخاص . ومعنى هذا ان (الذات) لا تصل الى مرحلة (الانية) الحقيقية الا حينما تلاقي ذلك الاخر الذي تستطيع ان تخاطبه بلفظ (أنت) وهكذا تعطينا فكرة (حب الذات) صورة ناقصة من صور الحب ـ حب ناقص يسير في اتجاه واحد فقط ـ واما الحب الحقيقي فهو تلك العلاقة الحية التي تقوم على التبادل والتجاوب ـ اذ تنشأ بين الطرفين علاقة اخذ وعطاء ـ فأحيا أنا بحياة الاخر ، ويحيا الاخر ايضا بحياتي ـ ومعنى هذا : انه لا يمكن ان يكون ثمة حب حقيقي اللهم الا اذا كنا اثنين » .

ثم يعرض الفيلسوف صورة اخرى من صور أشباه الحب فيتناول « **الشفقة** » قائلا :

« ان انعدام المساواة بين المحب والمحبوب هو الذي يدفعنا في كثير من الاحيان الى ايثار كلمة (شفقة) او عطف للاشارة الى هذا النوع من التعاطف بدلا من استخدام كلمة (محبة) او (حب) ومن هنا فاننا نقول عن الشخص الذي يولع بتربية الحيوانات انه يعطف على الحيوان او يشفق عليه ، ومعنى هذا ان حب الحيوانات ليس سوى ضرب من الشفقة او العطف دون ان يكون

---

(١) مشكلة الحب تأليف الدكتور زكريا ابراهيم منشورات دار الاداب.

فيه اي موضع لمبادلة حقيقية او مشاركة فعالة او مواجهة بكل معنى الكلمة ... » . وهنا نجد انفسنا بازاء فلسفة مفتوحة توحد بين معاني المحبة والشفقة والسخاء الروحي فتنادي بأن (الانا) في حاجة منذ البداية الى (الانت) لان انغلاق دائرة الذات على نفسها هو ضرب من المستحيل و (الشفقة) بهذا المعنى هي ضرب من الاحسان أو السخاء او الخصوبة الفائضة . فكما ان ثدي الام في حاجة الى الشفاه النهمة التي تستنفده فان قلب الموجود (الانساني) بحق هو في حاجة ايضا الى النفوس المتألمة التي تستطيع ان تجد لديه الحنان والعطف .

ويختتم المؤلف الباب الاول من الكتاب بصورة اخرى من صور أشباه الحب وهي **((التعاطف))** . وهنا تلوح لنا فكرة هامة من التعاطف بوصفه صورة من صور اشباه الحب يقدمها لنا المؤلف ليؤكد ان تعاطفي مع الاخرين لا يعني ان سرورهم قد اصبح سروري أو ان المهم قد اصبح ألمي .. بل هو يعني انني اشارك في مسرات الاخرين بوصفها مسراتهم ، وانني اشارك في آلامهم بوصفها آلامهم .

وكأن الفيلسوف صاحب الكتاب الذي نحن بصدده يريد ان يقول : « ليس في التعاطف الحقيقي اي تقمص وجداني أو اندماج عاطفي » ـ التعاطف اذن عاجز عن تخطي العوائق التي تفصلنا عن الاخرين في حين ان الحب يتجه أولا وبالذات نحو القرار الباطني العميق لذلك الاخر الذي نبغي النفاذ اليه .

ثانيا : أشكال الحب

يبدأ المؤلف في الباب الثاني في تفسير أشكال الحب فيقدم لنا (**الامومة**) بوصفها علاقة انسانية حيوية تقوم على حاجة الطفل الى الام ، وحاجة الام الى الطفل ، وينتهي المؤلف الى ان الامومة الصحيحة هي رابطة وجدانية عميقة تغير من السمات الشخصية لكل من الام والطفل ـ ويتخطى المؤلف مرحلة الامومة ليتكلم عن (الاخوة) ثم يجمل لنا الحديث عن هذه العاطفة الانسانية فيقول : انها تجربة روحية يدرك عن طريقها الانسان ما بينه وبين الاخرين من ترابط فيحاول ان يحقق خلاصه مع الاخرين وبالاخرين ، وحين يتحقق الانسان من انه هيهات له ان يحقق نجاته بمفرده فانه عندئذ قد لا يتردد في القول مع الفيلسوف الفرنسي (مونييه) : « انني لا اوجد حقا الا بقدر ما اوجد للاخرين ، وما الوجود في النهاية سوى الحب » . ولكن الانسان قد يشعر حتى حين يكون مستغرقا بتمامه في أعماق المحبة البشرية انه لا يزال يعاني **الام الوحدة** والانعزال ، وانه لم ينجح بعد في التغلب على **القلق الناجم** عن الشعور بالعزلة والانفصال . ومن هنا لا بد للوجود البشري ان ينشد صورة اكمل واشرف وانقى من صور الحب وتلك هي الصورة التي قدمها لنا الفيلسوف المؤلف تحت عنوان « العبادة او حب الانسان لله » وجدير بالذكر ان نبين للقارىء أن المؤلف لم يقصد انه لا بد بالضرورة من ان يكون تصورنا للحب الالهي تصورا بشريا بحتا بل نحن نعني ان حب الانسان لله (أو لالهه) كثيرا ما يجيء على صورة الانسان ومثاله ، ومن هنا فقد بقي حب الانسان لله مجرد علاقة مشخصة تقوم على التبادل بين (الانا) و (الانت) وان كنا هنا بازاء (انت) من نوع خاص لانها أنت مطلقة او أنت أزلية ابدية او أنت لا يمكن ان تستحيل الى هو .

ثالثا : أنماط الحب

واذا كان الفيلسوف مؤلف الكتاب قد قدم لنا فيما سبق اشكال الحب وابرز النماذج الاساسية لتجربة الحب في حياة الانسان فاننا نراه الان يعرض لنا في حديث شيق جميل « انماط الحب » وهو في حديثه عن هذه الانماط سيعمد الى الكشف عن أساليب مختلفة من الحب عرفها البشر على مر العصور في علاقاتهم العاطفية لشتى موضوعات الحب ، ومعنى هذا ان المؤلف يحدثنا عن هذه الانماط المتنوعة على انها قد ارتبطت بحضارات معينة او اتجاهات فلسفية خاصة . وبلمسة فنية من لمسات الفيلسوف يظهر لنا النمط اليوناني ، ذلك النمط الذي اصطلح على تسميته باسم الايروس Agapé او « العشق » .. ويقدم لنا صورة صادقة لعبيد الايروس على انهم لا يحبون المحبوب بل يحبون الحب .. وهؤلاء لا يعرفون قيمة الشخص الفردي ، وهم لا يريدون ان يكون هناك اثنان في الحب .. بل هم يتصورون في قرارة نفوسهم انه لا بد لواحد من المحبين ان يختفي من الوجود لكي يستمر الحب ... ثم يتناول الفيلسوف طبيعة الايروس ذلك النمط الذي لا يقنع بشيء والذي لا يقوى على الامتلاك ولا يعرف الشبع . ولا عجب بعد هذا ان يشبه الناس الحب دائما بالنار .. وهل تحرق النار الا بحركتها المستمرة ؟ فالايروس سورة ديناميكية لا تهدأ وحركة ديالكتيكية لا تتوقف ، وهذا هو السبب في ان عبيد الايروس لا يمكن ان ينعموا بلذة الاستقرار او ان يعرفوا عذوبة الامتلاك ... أو ان يسعدوا باسعادهم لغيرهم من الناس » .

واذا كنا قد رأينا ان فكرة التبادل قد انعدمت في « الايروس » وان العشق نمط اناني من انماط الحب فلا بد من ان نتعرض لنمط اخر من انماط الحب وهو النمط المسيحي الذي نطلق عليه اسم «الأجابيه» Agabé وهنا نجد ان « الأجابيه » تختلف اختلافا جذريا عن الايروس لان الاولى منهما تقوم على التبادل والمشاركة في حين ان الثانية منهما تقوم على العشق الذاتي والاندفاع المستمر ، واذا كنا نفرق هذه التفرقة الحاسمة بين هذين النمطين من الحب فذلك لان المسيحية قد ادخلت في مضمار التفكير الديني مبدأ جديدا لم تعرفه سائر الديانات الاخرى السابقة الا وهو مبدأ التجسد الالهي ـ وبطبيعة الحال التجسد أمارة على تحقق ضرب من التوافق بين اللامتناهي والمتناهي ـ وهذا ما لم نجد له ادنى اثر في الايروس ـ وأخيرا لا بد لنا من ان نتذكر ان «الاجابيه» المسيحية لا تعني الاستغراق في الله او الاقتصار على محبة الله بل هي تعني ايضا حب القريب والاحسان الى اخوتنا في الانسانية وهذا ما عبر عنه يوحنا الرسول حينما كتب يقول : « ان قال احد اني احب الله وأبغض أخاه فهو كاذب ... لان من لم يحب اخاه الذي أبصره كيف يقدر ان يحب الله الذي لم يبصره ؟ واذن فان الوصية المقدمة لنا هي ان من يحب الله يحب اخاه ايضا » .

ثم يتناول الفيلسوف نمطا ثالثا هو نمط «الصداقة» وربما كان الفارق الاساسي بين هذا النمط الثالث من

الحب والنمطين السابقين هو انه علاقة تبادلية تقوم على التكافؤ أو المساواة فهو اوضح صورة من صور العلاقات الشخصية ، وبالتالي فانه يمثل حبا انسانيا صرفا يستند الى تلاقي شخصين حرين . ولكن اذا صح ان الحب في الصداقة لا بد من ان يكون عبر بعض الموضوعات المشتركة ، أفلا يحق لنا أن ننتقص من قدر هذا النمط من أنماط الحب ؟ وهل يمكن ان يكون حب الشخصين لموضوع واحد مساويا لحب أحدهما للاخر ؟ بل هل يمكن ان نعد هذا الوصال غير المباشر وصالا روحيا حقيقيا ؟ أليس الادنى من المعقول أن نقول مع جانكلفيتس : « ان محبة اشياء واحدة بعينها ومحبة الانسان لاخيه الانسان انما هما امران مختلفان تمام الاختلاف ... » .

رابعا : أطوار الحب

ويعرض لنا الفيلسوف في الباب الرابع من كتابه مشكلة الحب (أطوار الحب) فيتناول أولا : مولد الحب ، ويقرر حقيقة هامة ان الدلالة الحقيقية للحب في حياة كل منا انما هي هذا الكشف الفريد الذي ننزع بمقتضاه النقاب عن بعض القيم . وحينما تستشعر الذات ضربا من الحب الفجائي نحو شخص ما من الاشخاص فانها عندئذ تكتشف في شخص هذا القريب معنى خاصا للقيم هو في الوقت نفسه معناها هي ... وبذلك فان من شأن تجربة الحب ان تتخذ في نظرنا طابع الكشف الحاسم المطلق لانها تقضي على تلك الهوة التي تفصلنا عن الجنس الاخر . ولكن لا بد من ان نتساءل كيف تواصل سيمفونية الحب سيرها الايقاعي بعد هذه النغمة الافتتاحية الرائعة ؟ وهنا يقدم لنا الفيلسوف المؤلف فكرة رائعة وضعها تحت عنوان « حياة الحب » وقرر ان كلا منا يتذكر بكل وفاء وعرفان بالجميل تلك الفترة السعيدة من فترات حياته حين كان صادقا ، طبيعيا ، سخيا ، نزيها عن كل غرض ، تلك الفترة الهاربة من الزمن حينما كان يحاول ان يكف عن المطالبة بحقوقه وان يتناسى الجري وراء المنفعة ، وان يقلع عن حب المظاهر وان يكون مخلصا بسيطا تلقائيا نقي السريرة !!

ولكن ألا يستطيع الحب ان يحيا مستغنيا عن الزواج ؟ هنا نلاحظ ان الكثيرين قد ذهبوا الى القول بوجود بون شاسع بين الحب والزواج بدليل ان الرابطة الزوجية كثيرا ما تكون هي الكفيلة بالقضاء على سورة الحب فضلا عن ان تبعات الحياة الزوجية وما فيها من روتين كفيلة بالقضاء على كل ما في الحب من تلقائية ، ولكن اذا وافقنا المؤلف على هذه الفكرة لن نستطيع الا ان نقول بأن الفشل هو الكلمة النهائية في كل درامة عاطفية وان الموت حق على كل حب كما هو حق على كل حي ، وتلك هي المشكلة التي اختتم بها الفيلسوف كتابه تحت عنوان « موت الحب » ويقدم لنا تحت هذا العنوان نهاية الحب ، وان معجزة الحب الكبرى كثيرا ما تخيب لكي يستيقظ شعور المحب اليائس او المخدوع على تلك الحقيقة الاليمة المرة ألا وهي ان « الاله الذي كان يتعبد له ليس الا مخلوقا بشريا تافها » وهذا هو السبب في ان المحب قد لا يفطن في مرحلة الاغراء الى عيوب حبيبه ان لم نقل بأنه قد يرى في هذه العيوب نفسها محاسن لكي تستأثر وحدها باهتمام المحب ، وكأنما هي حقائق جديدة يكتشفها للمرة الاولى في شخص محبوبه..

وأنا لا اوافق المؤلف على ان الحب يموت بهذه الصورة ، وردي عليه ما كتبه المؤلف نفسه في كتابه « تأملات وجودية » (1) حينما قال عن الحب : « الحب هو الذي يرفع كل شيء وكل حي الى مستوى « الوجود الخالد » والحب هو الذي يهب الحياة الابدية لكل ما يمسه او من يتلبس به ! فلا بد لنا من ان نعمل على مصارعة الموت باسم الحب او باسم هذه الحياة الابدية !.. » .

الحب لا يموت اذن .. اذا كان قد عاش في منبت خصب . وكيف يموت الحب وأنا أعيش ؟.. أليست التجربة الحية الخلاقة التي مررت بها كفيلة على الاقل ان تمنحني ذكرى أعيش عليها ؟.. وتتأكد هذه الحقيقة أمام كل المحبين « ان من يحب شخصا فكأنما يقول له : انك لا يمكن مطلقا ان تموت بالنسبة الي » .

خاتمة :

وفي الختام لا نملك الا ان ننظر بعين الاعجاب لهذه الصيغ الميسورة ، والحرية الظاهرة في الاسلوب ، فلم ينزل المؤلف بالفكرة العالية الى ارض التهاون او دنيا الاستهتار وانما احتفظ بمنزلته العليا في سماء الرفعة والجلال وهو الذي اختتم كتابه الذي نحن بصدده قائلا :

« ان الحب قيمة القيم . فان القيم الاخرى لا تقوم بذاتها ، واما الحب فهو القيمة الوحيدة التي تقوم بذاتها. فطوبى اذن لمن احب ، ثم طوبى لمن عرف اذا احب كيف يولد لدى غيره الحب ، وكيف يستشف فيمن حوله بذور الطيبة والخير . ان الكائن العميق لهو في حاجة دائما الى أن يصدق ويحب حتى يظهر ويتجلى ، والحب هو الذي يكتشف بذور الخير والجمال في كل مخلوق حتى في أشد الوجوه صلابة واكثر النفوس تفاهة فيجعل منها بذلك مخلوقات جديرة بالحب » .

القاهرة **سيد صبحي**

(1) تأملات وجودية ــ الدكتور زكريا ابراهيم ــ منشورات دار الاداب.

عينا ميدوزا

فلتورق الظلماء وليذوي القمرْ
طافت عذارى العيد حول «دوار» (٢) تخطر بالزهر
يسكرْن بالتسبيح اقدام الحجر
من كل ما تحوي الجرارْ
ينشدن : « ما معنى دوار » !
فلتحرق الانداء في صخب المطر
« عنقاء مغرب » تنثر الاحلام في رؤيا البشرْ
والسندباد اليوم خدره الضجر
قالت لياليها البليدة كالجدار :
من ذي ؟ لتثمل بالحكايا شهريار
فالليل أنكر شهرزاد وأغمضت روح السمرْ
فلتزهر الاصداء في قلب الصخر
ما كنت أحسب ان « ميدوزا » ستخطف عينها
اني شهدت بافقنا
أحداقها تلد الحجر
صبت بأعراقي الحجرْ

***

الحب مبهور الصور
فلتصخب الاجراس في عمق الخدر
قالت عيون سمائهم : « يدعى غريب »
فزعت أماني الصبر تلعن في القدر
ما كنت أحسب في مدى الاحلام قد
تـدعى : غريب
وأنا أهلت اللحن في صمت النظر
في خفق ماض كم نثرت بفيئه
عبثا شحوب
ووجدتني تنهل في نفسي منابع من طيوب
وكوى حنين كم وددت لو انها
يوما تذوب
يا من يعلق ناظري
ببلادة الايام .. في مزق انتظار
ينسل عن بيتي النهار
ان انت تصفو او ترمل دربنا
تنأى .. تؤوب
فاللحن في الظل انحدر
سل حزمة الايام كيف تذوقت طعم النضوب
ان أبعدتك الريح في أرض الجنوب

روبت لحن الدفء والافياء
صمتا .. والمطر
فلتصخبي يا شمس في ثلج القدر
ما كنت أحسب انني
في عين « ميدوزا » حجر !!

***

فلتنشدي يا دهشة الصمت
ولتشهدي أشراق مصباح ظمي
لم يقبس الالوان من سأمي
ولترقصي جنية الحلم
ولتهزجي في خفق أجراس صحت
تهتز في اغماضة الالم
طوفي ..
تولي ضجة النغم
نضت زوايا الحب لهفتها
في عودة الانداء فابتسمي
فلترقصي جنية الحلم
اليوم تبعث واحة الاقمار والخصب
في صحو اشراق على دربي
لكنني ..!! غامت بأحداقي الصور
وأنا التي في عين « ميدوزا » حجرْ !!

***

واتيت تمزج هذه الاشواق في ظمأ الوتر
في الشارع الصاخب .. في حدق البشرْ
تفتر امواج الشموس سخية
لتطوف في أعماق خفق شاحب
ما أبتغي !؟ والفجر في خطوي انهمر
ها أنت جنبي !! يا أماني الصبر ، يا لحن الحذر
لكنما ..
الناس وشم من عيون في دمي
وفحيح افعى تنثر الاوهام في عمقي .. فكر !!
وطوت هواجس صمتنا أطيافها
لا أنت تغتال الرؤى صمتا .. ولا
يجتث شباكي الفكر
يا لعنة الاغلال .. يا ابر القدر
لا تسألي ..
فالحب مبهور الصور
وأنا هنا ..
فـي عين ميدوزا .. حجرْ !!

بغداد

آمال الزهاوي

جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين

(١) ـ ميدوزا : في الاساطير اليونانية تحول كل ما تبصره عيناها الى حجر .

(٢) ـ دوار : صنم في الجاهلية تطوف حوله العـذارى في الاعياد .



عينا القط تحملقان في الظلام وتتفحصان وجها صافيا .. وعينا ابتسام تتفحصان اشياء كثيرة لا تفهمها . انزوت في ركن الغرفة المظلمة، وتكومت، وفي حجرها يختبىء القط وانامل يديها تمرها خلال شعره الابيض الناعم فتشعر بالدفء . ثم شيء ثقيل يربكها ويضطرها الى ان تنسى حلمها الذي تعيشه وتتلفت حواليها ، فاذا الخوف يحتل جسدها الصغير. واذا بأشياء كثيرة تستعصي على تفكيرها .

ومن حولها يدور الهمس حتى يصبح حديثا صريحا لا يعبأ بالظلمة المنتشرة ، ولا بالصمت الذي يعيش في كل ركن ، وفي كل مكان .

جلست مفيدة على اريكة منخفضة ، وظلت تثرثر :

ـ ان صابرة لم تعد بعد . كان يجب عليها ان تعود في الثالثة من عملها .. لكنها لم تعد .. والساعة الان جاوزت السادسة . والدنيا ظلام

ـ لا بد ان الغارة اوقفتها .

ـ كلا .. ان الغارة بدأت منذ ربع ساعة ، وهي تخرج من المدرسة في الثانية ظهرا وهذا اقصى تقدير .

قال حلمي وهو يرهف اذنيه لسماع صوت انفجار بعيد :

ـ لا بد ان نلتمس لها العذر .

ـ كلا ... انها ولا شك ذهبت الى عمها . وانا قلت لها مئة مرة الا تذهب . يا ويلها مني حين تعود .

وابتسام اغمضت عينيها عن هذا اللغو ، حين سمعت امها تتكلم عن العم ، وكثيرا ما اعتادت منها مثل هذا الكلام .. وايضا سألت اباها عن معنى هذا .. فكان يهمس في اذنيها : « هذه امور يفهمها الكبار » .

واكتفت ابتسام باحتضان القط وضمه الى صدرها ، والحدب عليه .. بينما القط يستطير بهذا الحنان ، وهذه القوة التي تطوقه لتحميه .. كان القط يشعر بهذا الحنان .. رغم ما فيه من حصار لجسده . نظرت ابتسام اليه بعينيها الوادعتين ، كأنما تسأله عما يبغيه. وتتمنى ان يتكلم ويصف لها شعوره واحساساته . ثم صعدت عينيها في الظلام اثر صوت اصطدام قوي افزعها وجعلها تتهالك على نفسها . فلم تتمالك ، فقالت تلقاء نفسها :

ـ ما هذا الصوت يا ابي ؟.

لعلها تجرأت قليلا في هذا . لكنها احست بالندم لالقائها هذا السؤال .. ثم سمعت ـ رغم شعورها بالندم ـ صوت ابيها :

ـ انه صوت مدفع ينطلق .. مثل المدافع التي تنطلق صباح كل عيد.

ـ عيد والدنيا ظلام !.

ـ ليطمئن قلبك يا صغيرتي . فلا شك ان النور سيعم الدنيا . ولا نرى الظلام ابدا .

شردت الطفلة وتشجعت في محادثة ابيها :

ـ الدنيا نور . هذا شيء جميل . واين اخي مدحت ؟.

ـ سيأتي لنا بالنور يا حبيبتي .

وكانت تريد ان تسأله عن صابرة ، لكنها تذكرت امها وهي تحدثه عن ذهابها الى بيت عمها .. وابتسام لا تدري لماذا تغضب امها وهي تتكلم عن العم . انها قابلته مرات كثيرة ، وكان يغمرها بفيض من حنانه . انه هو الذي اتى لها بهذا القط .. فشاركها وحدتها ، وكان سلواها . ضمت القط الى صدرها ثم تلفتت حواليها فرأت الظلام ينتشر في الغرفة كالعفريت . فاقشعر بدنها ، وهالتها كلمة « عفريت » ، والقت في قلبها الرعب والفزع . انها لم تر العفريت من قبل ، لكنها سمعت حكايات كثيرة عن هذا العفريت . ان العفريت يرعب الناس ويلقي في صدورهم الخوف والفزع . ولا شك ان هذا السواد المنتشر في الغرفة يكون عفريتا . انها خائفة فزعة . ولهذا ، فان هذا السواد المنتشر هو العفريت نفسه الذي تسمع عنه . فاشتد ارتجافها ، واصطكت اسنانها كأنها تعاني البرد القارس . ثم تذكرت النور الذي وعدها ابوها به ...

ـ ولماذا لا تذهب انت الاخر ، كي تأتي بالنور يا ابي ؟!.

ـ اقعد هنا لحمايتكما . فالظلام لا يرحم يا صغيرتي .

فسألته ابتسام :

ـ ايوجد معنا عفريت ؟.

فابتسم الاب واجابها :

ـ خرافات ..

خرافات !... لم تفهم الصغيرة معنى الكلمة ، وسرعان ما نسيتها واستمالها القط . انه الشيء الوحيد الذي تراه في هذا الظلام ، فشعره ابيض لا يعبأ بظلام او عفاريت .

ارتفع صوت مفيدة مرة اخرى :

ـ هذه البنت عنيدة مشاكسة . لا بد ان اؤدبها .

ـ انها كبرت ، وتشتغل .

ـ ألانها كبيرة تعصي اوامري ؟. كما اني لست في حاجة الى مساعدتها .

ـ وبماذا نعيش ؟. وكيف ؟.

قالت في تبرم وسخط :

ـ ان الحرب على الابواب . اتفكر في الحياة ، وانت وسط هذا القضاء المستعجل ؟.

ـ يا مرأة لا تتشاءمي . ففي بورسعيد من يحميها .

فضحكت ساخرة :

ـ من يحميها ؟!. ولا نملك غير البنادق الساذجة .

ـ نحن في بلدنا .. وان لزم الامر نضحي باجسادنا جميعا . فلتعرفي يا مفيدة هذا جيدا . ان الذي يغزو ارضا يبوء بالخزي والموت . والذي استمات في الدفاع عن ارضه يزهو بالبشر والسلام .

تابعت ابتسام حديثهما . ولم يزل القط بين ذراعيها . ورنت الكلمة الاخيرة في اذنيها فأحست بنغمة خاصة لها . سألت أباها :

ـ ما هو السلام يا أبي ؟.

لم تتبين ابتسام هذا السرور الذي عمر فؤاد ابيها .. لكنها سمعت صوته يجيبها :

ـ غصن زيتون اخضر .. وحمامة بيضاء طليقة في السماء .

فرحت الصغيرة بهذه الكلمات ، واستطارت بها . واعقبت :

ـ كالمزارع الخضراء الواسعة التي نراها من نافذة القطار . وكقطي الابيض الجميل . ان السلام كلمة جميلة . انها لا تخيفني مثلما تخيفني العفاريت .

ـ قلت لك يا حبيبتي ، ليس هناك عفاريت .

قالت الطفلة ملتاعة :

ـ الظلام يخيفني يا ابي . هل الشارع مظلم ؟!.

ـ نعـم .

تشبثت الطفلة بقطها وضمته اكثر الى صدرها . وباحت لابيها :

ــ انــي خائفة .

ــ تذكري الله . فالله هو مالك ارضنا كلها .. هو خالق المزارع الخضراء .. وخالق القطط البيضاء .

تمتمت ابتسام في صوت خاشع :

ــ يا رب ... يا رب ... يا رب ...

واسترسلت في مناجاة الله . والقط الابيض هادىء وادع فــي حجرها وتضمه بذراعيها الصغيرتين الى صدرها ، فتشعر بالحب والدفء والراحة .. نسيت الظلام ، والعفاريت ، وعمها الذي تبغضه امهــا .. نسيت كل هذا واجفلت عيناها وراحت في سبات عميق .. والدنيا تعج في الظلام .. وصوت القنابل يدوي . وازيز الطائرات يؤلم الاذان .. والصرخات تدوي من نواح مختلفة .. ولكن ابتسام تركت كل هذا ونامت والقط الابيض بين يديها .. نامت وراودتها احلام جميلــــة .. ورأت نفسها جالسة ومن حولها قطط بيضاء .. ورأت عالمها كله قططا بيضاء.. والحمام يطير في السماء .. والمزارع الخضراء الواسعة تمتد حتــى تفرش الدنيا كلهــا .

نامت الصغيرة ابتسام ، واخذت تحلم بالنور بينما الدنيا تعج فــي الظلام وبور سعيد كلها تقاوم الغزاة . ومفيدة لا تكف عن الحديث رغـم الظلام الذي يملأ الدنيا . وتضايق حلمي من ثرثرتها وقال في نفاد صبر :

ــ لا يحق لك ان تصبي حقدك كله على اخي .. انك امرأة طيبة ، ولولا هذا لما غفرت لك هذه الثرثرة الفارغة .. بور سعيد تحارب وانت تثرثرين . يجب ان تفهمي ان هذه الثرثرة لن تحقق النصر لمصــر . ان اخي اخطأ فعلا ، ولكنه اعتذر لي واحب ان نكون على علاقة ودية ، لكــن عجرفتك تمانع . ان الله يغفر الذنوب .. وانت لا تغفرين اخطاء بسيطة. يا عزيزتي مفيدة . ان الوقت وقت كفاح ، علينا ان نتماسك .. ويجب ان تؤدي دورك في المعركة .

سألتــه :

ــ اي دور ؟!.

قال لهــا حلمي :

ــ افعلي أي شيء تقدرين على فعله . ان العدو لن ينام . واتوقع ان الحرب ستستمر . فهذه اول غارة .. لكنها بداية الغدر ، وعلينـــا ان نكون على حذر . واني من الغد سأذهب الى مركز المقاومة الشعبية. وسأتدرب على حمل السلاح . البلد بلدنا يا مفيدة . وعلينا ان نضحي من اجل ابتسام ، ومن اجل قطها الابيض ومن اجل السلام ، والحياة .. من اجل النور الذي تحلم به طفلتنا الصغيرة .

واضاءت المدينة . فابتسمت مفيدة .

ــ ان الظلام مميت ، ورهيب .. لكن كما قلت انت ، لن نهنأ بالنور بعد اليوم الا بالكفاح . اذهب انت في الغد لحمل السلاح ، وسأكون انا في بيتي اتولى حمايته . اما اخوك !... ماذا اقول !. . لا شيء ... لا شيء .. ولكن اذا جاء الان او غد او اي وقت .. فسأكون سعيدة .

مرت لحظات صمت قصيرة ، ثم سمعا صوت خبطات على الباب .. فقامت مفيدة لفتحه . فوجدت صابرة تدخل مبتسمة .. فقالت لها :

ــ كنت عند عمك ..

ــ وماذا في ذلك ؟.

فابتسمت الام :

ــ لا شيء . اني مسرورة بذلك . متى يجيء لنا ؟.

قالت صابرة دهشة :

ــ يجيء لنــا !.

اجابتها الام :

ــ لا تدهشي يا صابرة . ان عمك رجل مخلص لنا ووفـي .. ان الغارة الرهيبة ارجعتني الى الصواب .

ثم دخل مدحت وحيا اسرته ، فسأله ابوه :

ــ اين كنت ؟ .

ــ لا تخش شيئا يا ابي . لقد قيدت اسمي في المقاومة الشعبية . فلا بد من ان نستعد ونتعاون ونكافح ، كي يكتب الله لنا النصر .

فابتسمت صابرة وقالت لاخيها :

ــ صحيح يا مدحت .. وانا قيدت اسمي في الدفاع المدني .

قال الاب مسرورا :

ــ وغدا الحقكما انا الاخر .

ثم فوجئوا بصفارة الانذار تنطلق ثانية . فأسرعوا الى اطفاء النور. وصمت الجميع وهم ينصتون الى ازيز الطائرات ، وانفجار القنابـل ، وقصف المدافع .

✶

وظلت بور سعيد تكافح في ليلها ونهارها . واحال الاهالي مدينتهم مقبرة ضمت جثث المعتدين . ظلت بور سعيد تكافح بالحديـد والنار ، لا يرهبها قانون القوة . ظلت بور سعيد تحارب من بيت الى بيت ، ومـن شارع الى شارع . ظلت بور سعيد تقاتل وكل اهلها يدافعون ، وكلهـم حماس وانتقام وايمان .

وانتصرت الحياة في بور سعيد ..

✶

وفي اليوم الثالث والعشرين من ديسمبر عام ١٩٥٦ ، تطهرت بـور سعيد من اذناب الجنود الغزاة . واحتفلت المدينة بانتصارها . وذهبت مفيدة في يوم النصر الى بيت اخي زوجها .. وذهب حلمي معهــا .. وصابرة .. ومدحت .. واصطحبوا معهم ابتسام الصغيرة والقط الابيض تضمه الى صدرها وابتسامة مشرقة تغزو محياها كله .

جلست ابتسام مع قطها الابيض في حديقة بيت عمها .. وحولهـا زرع اخضر .. وفي السماء حمام طليق يشارك المدينة فرحة انتصارها .

(القاهرة) حسني سيد لبيب

هل عندنا قصة مصرية؟

بقلم عبد المنعم عواد يوسف

تمهيد :

السؤال بهذا الشكل يلقي في الواقع اكثر من ظل ، ففيه تشكيك في قيمة ما هو موجود بالفعل من الفن القصصي المصري ، وربما فهم منه تحد لمارسي هذا الفن في بلادنا .

والامر ابسط من ذلك وأهون ، فما كان لنا ان نشكك في قيمة شيء فرض نفسه على الناس فرضا في شتى مجالات النشر من كتب وصحف واذاعات مرئية ومسموعة ، وما يجوز لنا ان نتحدى أناسا اثبتوا وجودهم فعلا في الحقل الادبي بما قدموه من اعمال ، قد نختلف في تقييمها ، ولكننا لا نملك في اخر الامر الا ان نحكم بأنها قصص بلا جدال .

وما دمنا قد طرحنا السؤال بهذا الشكل ، فلا بد ان يكون لدينا شكل سليم لما ينبغي ان تكون عليه القصة ، حتى يتسنى لنا ان نحكم على ما نقرأه من اعمال قصصية مصرية ، وهل هي قصص بالمعنى الصحيح ، ام ان الامر خلاف ذلك ، والشكل الذي نحدد على ضوئه حكمنا على القصة المصرية هو ما نقرأه في الادب الغربي من قصص بلغت شأوا بعيدا في الروعة والاتقان .

ولكننا نظلم القصة المصرية فيالواقع اذا قسناها ـ وهيالناشئة ـ بالقصص الغربية التي يرجع تاريخ نشأتها الى عدة قرون .

هل ننظر الى القصة العربية في مصر اذن على انها محاولات أولى في هذا الفن ؟ لا أظن ، والا أغضبنا مبدعي القصة عندنا ، فما أحسبهم يرتضون لانفسهم ان يكونوا محاولين فحسب ، وان تكون كتاباتهم التي بذلوا في سبيل تأليفها عصارة أرواحهم مجرد محاولات .

والواقع أن المشكلة تتشعب ، وتأخذ دائما أوضاعا جديدة ، وحتى نوقف تسلسل هذه الاستطرادات ، ندخل مباشرة الى الموضوع ، وسوف يكون كلامي هذه المرة مقصورا على القصة القصيرة مرجئا الكلام عن القصة الطويلة ، الى مقال اخر .

١ ـ في القصة القصيرة :

في مجال القصة القصيرة ، لا يمكننا ان نزعم ان لدينا منها ما يستطيع ان يقف على قدميه ، ازاء الانتاج الغربي ، على الرغم من ترجمة الكثير من قصصنا القصيرة الى اللغات الاجنبية ، ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن هناك في مجال القصة القصيرة ما يقرب من مرتبة الكمال ، وخاصة عند كاتب عملاق كيحيى حقي مثلا ، برغم ندرة انتاجه .

ان مجرد استعراض اسماء كتّاب القصة القصيرة عندنا ، وحتى المشهورين منهم فحسب ، ليعطينا فكرة جلية عن مدى استئثار هذا الفن بمزاج كثير من الادباء :

نذكر منهم : محمود تيمور ، ويوسف السباعي ، وفتحي رضوان ، ونجيب محفوظ ، وطه حسين ، ويحيى حقي ، وعبد الحليم عبد الله ، وجاذبية صدقي ، ويوسف ادريس ، وعبد الله الطوخي ، وفهمي حسين ، ونجيب الكيلاني ، وحافظ رجب ، وصالح مرسي ، ومحمد سالم ، وعبد الرحمن فهمي ، وعبد الغفار مكاوي ، وفاروق خورشيد ، وفاروق منيب ، وفتحي غانم ، واحسان عبد القدوس ، ومصطفى محمود، وأبو المعاطي أبو النجا ، وسليمان فياض ، وسعد مكاوي ، وابراهيم الورداني ، وامين يوسف غراب ، واحمد رشدي صالح ، ورشدي عياد ، واحمد عباس صالح ، وعبد الرحمن الشرقاوي ، وعبد الرحمن الخميسي الخ ...

أسماء أخذت مدى بعيدا من الشهرة ، بينما انتاجها تافه غث ، و خرى لم تنل شيئا من شهرة بينما انتاجها يسمو الى مراتب من الجودة لم تبلغها الاولى ، وبعضها بالغ من الجودة ما يتناسب مع بعد صيته .

والسمة الغالبة هي الاضطراب ، اضطراب الافكار والمفاهيم ، ففئة تغلب الشكل على المضمون ، واخرى تضحي بالشكل في سبيل المضمون المذهبي ، وبين كل هذه الفوضى ، يضيع الفن ، وتضيع القصة ، وترتفع الاصوات في الشكليات ، وتنأى عن الجوهر .

والواقع ان المشكلة متشعبة ، ومتداخلة ، ولا تكفي هذه العجالة لايفائها حقها من الدراسة ، ولكنها مجرد محاولة مخلصة ، تستهدف قبل كل شيء صالح هذا الفن في بلادنا .

والان تعالوا بنا ، نستعرض بسرعة ، الاسس السليمة التي تنبني عليها القصة القصيرة الجيدة ، ونبدأ حديثنا عن هذه الاسس بقولنا : ان القصة القصيرة تلتقي مع القصيدة في اكثر من موضع ، فهي كالقصيدة ، تعتمد على اللحظة الشعورية الواحدة ، اللحظة المحددة بزمان قصير ، وهي كالقصيدة تعتمد على التركيز واللفظة الموحية ، بلا زواق أو صنعة ، وهي كالقصيدة ، تسلط الضوء على ناحية بعينها، هي البؤرة التي تلتقي عندها سائر خيوط الابداع الشعاعية ، لتعطي صورة حقيقية صغيرة واضحة محددة .

وعناصر القصة القصيرة : لقطة من الحياة ، يختارها الفنان بوعي ، ثم يتركها في لا وعيه فترة تنضج خلالها ، وليست اللقطة بأكثر من نقطة ابتداء ، ثم يضيف اليها الفنان من ذاته الخلاقة ما يحيلها الى عمل فني أصيل ، انت ـ كفنان ـ ترى حادثا بعينه ، وترى صلاحيته لان يكون قصة قصيرة ، ان يكون موضوعا لبناء قصة قصيرة ، فتختزنه في لا وعيك الى درجة كافية لان يخرج ، لا كمجرد انفعال سطحي ، ولكن كعمل فني ناضج ، فالحادثة التي يلتقطها من الحياة عبارة عن بلورة صغيرة في وسط مشبع بالافكار والمشاعر هو ذهن الانسان ووجدانه ، هذه البلورة الصغيرة تنضم اليها بلورات اخرى ، لتكون في اخر الامر بلورة كبيرة محددة ، هي القصة القصيرة ، فعلى الفنان ان يركز على حادث بعينه ، حادث واحد كاف جدا لبناء قصة قصيرة كاملة ، والا خرجت البلورة متنافرة الاضلاع ، لانها ليست الا عدة بلورات متداخلة ، فالقصة القصيرة التي تعتمد على اكثر من حادث ، تخرج ضائعة الملامح ، لان الفنان لم يركز على حادث بعينه ، وهذا خطأ في ((التكنيك)) .

اسلوب القصة القصيرة :

وأسلوب القصة القصيرة لا بد ان يكون اسلوبا مباشرا ، اسلوبا سهلا ، بعيدا عن التنميق ، والتصنع البلاغي ، أسلوب السرد لا بد ان

يكون قريبا من لغة الرواية العادية ، لغة الحديث العادي ، والفنان الحق هو الذي يستطيع ان يجمع بين حلاوة التعبير وشموله ، وبين سهولته وعمقه .

وأسلوب الحوار ، لا نستطيع ان نفرض لونه على الكاتب ، فعلى الكاتب ان يلجأ الى اللغة العامية ، ان وجد أن مستوى الشخصية الثقافي والاجتماعي يتطلب ذلك ، وعليه ان يستعمل في الحوار الفصحى ، ان اراد ، فليست هذه هي المشكلة ، وانما المشكلة هي كيف يتمكن الكاتب من انطاق الاشخاص باللغة المناسبة لحالاتهم النفسية وتكوينانهم الاجتماعية ، ومستوياتهم الثقافية .

وكم يكون رائعا من الكاتب لو انه استطاع ان ينطق شخوصه باللغة الفصحى ، دون ان يحس القارىء بأنه يقرأ شيئا غير مألوف ، لان هذا الكاتب استطاع ان يجعل شخصيات القصة ينطقون حوارا يتمشى مع مقدراتهم النفسية والاجتماعية والثقافية بدقة بالغة ، وبمهارة واضحة ، والشواهد على ذلك كثيرة ، يكفي ان نذكر اسماء نجيب محفوظ ، ويحيى حقي ، وفتحي رضوان ، وشكري عياد . وكم من الكتاب من أنطق شخوصه باللغة العامية ، ومع هذا فقد وقع في خطأ كبير ، بأن جعل البسطاء يعبرون عن افكار لا يمكن ان تمر بأذهان امثالهم ، وهو خطأ شنيع يقع فيه كتابنا الواقعيون ، والشبان منهم ، بلا استثناء ، فيقلل ذلك من قيمة أعمالهم برغم ما فيها من نظرات صادقة ، ولمحات انسانية موفقة .

ونحن لا نطلب من الكاتب ، اكثر من مراعاة الواقعية - قولا - في الافكار والفعال ، الصدق الشعوري ، ووضوح الرؤية هما اساس الفن الواقعي الصحيح .

لن تكون واقعيا الا اذا عبرت بصدق ، وبحيادية تامة عن حياة الناس ، صور الحياة كما هي ، بكل متناقضاتها ، بكل شرورها ومحاسنها ، بكل آمالها والامها ، بكل صراعاتها ، ولا تعلن عن أفكارك أنت ، وآرائك انت ، أترك الناس أحرارا يتصرفون في القصة كما يتصرفون في الحياة ، ولا تقحم آراءك الشخصية في عملك الفني . أترك لنا ان نكتشف مساوىء الحياة التي تنطوي عليها القصة بأنفسنا ، ولا تشر باصبعك الى مساوىء الداء ، فلست كفنان اكثر من عارض امين محايد ، فاذا كنت فنانا بحق ، وواعيا بحق ، فسنعرف أين تقف من الحياة ، بالتأثير الذي ستتركه في نفوسنا ، فانت كاتب أمين وواقعي لو جعلتنا بعد قراءة قصتك نحس انك تريد ان تجعلنا نتقبل برضى بعض الاوضاع الاليمة . على هذا الاساس نستطيع ان نحدد الفرق بين الكاتب الواقعي الصادق ، ومدعي الواقعية .

هناك نقطتان اخيرتان في هذا الموضوع :



النقطة الاولى :
هي اختيار الوسط الذي تدور فيه الحادثة :

هل لا بد لتكون القصة واقعية من ان تدور حوادثها بين اوساط العمال ، او في الاكواخ ، وهل لا يكون الكاتب واقعيا اذا صور الحياة المترفة التي يحياها الاغنياء ، بما فيها من أضواء ومسرات ؟

الواقع ان الذي يحدد مدى الواقعية هنا هو طريقة التناول ، فربما كانت الحادثة محور القصة تدور في أحقر الاكواخ ، ومع ذلك تخرج القصة رومانسية النزعة والاتجاه ، وقد يكون الكاتب واقعيا بحق ، برغم انه يصور حياة « العاطلين بالوراثة » بما فيها من عبث وفوضى وانهيار خلقي ، لانه أشعرنا بمتناقضات هذه الحياة ، وبمدى التفسخ والانحلال الذي يسودها ، فالعبرة ليست بوسط القصة ، وانما العبرة بكيفية المعالجة ، بطريقة تناول الموضوع .

والنقطة الثانية :
هي موضوع القصة :

هل كل حادثة تصلح لان تكون موضوعا لقصة قصيرة ، حتى ولو كانت الحادثة تافهة ظاهريا ؟

الواقع أنها مسألة دقيقة ، واعتبارية في الوقت نفسه ، وليست العبرة في تفاهة الحادث الذي تدور حوله القصة ، ولكن العبرة بنضج التعبير الفني عنها ، فغالبية قصص تشيكوف القصيرة تدور حول حوادث في منتهى التفاهة - ظاهريا - ولكننا مع ذلك نرى انفسنا ازاء أعمال فنية جبارة . فالحادثة البسيطة تستحيل في يد الفنان القدير الى عمل فني رائع ، بينما تستحيل اللقطة الممتازة الى عمل ضئيل عند القاص غير المتمكن .

لهذا يجب على القاص الناشىء ان يتعب نفسه قليلا في اختيار الاحداث التي تدور حولها قصصه ، وليراع جانب الجدة والطرافة في ذلك ، فكلما كان الموضوع جديدا وطريفا كان هذا أدعى الى انتاج قصة جيدة .

لا يضير الفنان الكبير ان تكون الحادثة بسيطة ، فسوف يتمكن بما لديه من موهبة متكاملة ، وقدرة فنية ناضجة ان يجعل من هذا الحادث البسيط قصة قصيرة رائعة ، بل انه سيكشف لنا عن جوانب كثيرة ممتعة لم تكن تبدو لنا في هذا الحادث البسيط ، من خلال رؤيتنا المحدودة ، اما هو فبعمقه وشفافيته استطاع ان ينفذ الى اعماق هذا الحادث البسيط فيخرج لنا منه الاعاجيب .

وفصل الخطاب في هذا كله هو الاستعداد الفني لدى الكاتب ، الموهبة الممتازة لديه ، ولهذا لا أنصح لاحد بأن يمارس هذا الفن الا اذا استشعر في اعماقه القدرة ، والرغبة الملحة في التعبير القصصي ، لن تصبح قصاصا بحق الا اذا كنت فنانا بحق ، لا تكفي وفرة اطلاعك على الفن القصصي لتجعل منك قصاصا موهوبا ، ستكتب أشياء ، ربما اعتبرها بعض الناشرين قصصا فنشروها ، ولكن لا تغتر بذلك ، وتحسب نفسك قد اصبحت قصاصا حقا ، فيوما ما ستكتشف انت ، قبل غيرك ، انك لم تخلق لتكون قصاصا بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، لانه لا توجد لديك الموهبة التي تنميها وتشحذها القراءة ، ولكنها لن تخلقها ابدا .

على ضوء هذه الحقائق ، أرجو ان ننظر الى انتاجنا من القصص القصيرة ، وسنحكم ما اذا كان لدينا بالفعل في مصر ، قصص قصيرة بالمعنى الصحيح ، أم لا يوجد ، النظرة العميقة الصائبة وحدها هي التي ستجيب عن السؤال الذي به صدرنا هذا المقال .

٢ - في القصة الطويلة

الواقع اننا اذا نظرنا الى المسألة من ناحية الكم لوجدنا ان لدينا من القصص الطويلة الشيء الكثير ، فعدد كبير من الادباء يمارسون

كتابتها ، بصرف النظر عن التزامهم لاصول كتابتها من عدمه : من هؤلاء : محمود تيمور ، ونجيب محفوظ ، ويحيى حقي ، وتوفيق الحكيم ، ومحمد فريد ابو حديد ، وطه حسين ، وعبد الحليم عبد الله ، ونظمي لوقا ، والشرقاوي ، والخميسي ، وباكثير ، ويوسف ادريس ، وصالح جودت ، ويوسف السباعي ، واحسان عبد القدوس ، ولطيفة الزيات ، ومفيد الشوباشي ، ونجيب الكيلاني ، وفتحي غانم ، كما ان كانيا مثل الاستاذ عادل كامل قد قدم لنا عملين كبيرين قبل اعتزاله الكتابة ، اما المرحوم المازني فقد ترك لنا قدرا لا بأس به منها ، وحتى الاستاذ العقاد لم يستطع ان يقاوم اغراء ممارستها ، فقدم لنا «سارة» ، ولا يغيب عن بالنا ان ننوه بجهد المرحوم محمد حسين هيكل في هذا المضمار ، فقصته « زينب » تعتبر عملا رائدا بلا ريب .

واذا تركنا مجال الحصر ، الى مجال التقييم ، وجدنا ان لدينا في القصة الطويلة قصصا بمعنى الكلمة ، بل ان بعضها ليسمو الى مصاف نظيره في الادب الغربي ، من ذلك قصص نجيب محفوظ ، والمجموعة العصرية منها بالذات ، وقصتا عادل كامل « ملك من شعاع » ، و « مليم الاكبر » ، وكذلك « عودة الروح » و « يوميات نائب في الارياف » للاستاذ توفيق الحكيم ، و « الارض » و « الشوارع الخلفية » للشرقاوي ، و « رفيق الارض » لنظمي لوقا ، وكذلك «قنديل ام هاشم» و « دماء وطن » ليحيى حقي ، و « من اجل ولدي » لعبد الحليم عبد الله ، و « انا الشعب » للاستاذ فريد ابو حديد ، وكذلك قصص يوسف ادريس – الطويلة نوعا – ك « قصة حب » و « قاع المدينة » ، ونضيف الى هذه الشوامخ بعض اعمال احسان عبد القدوس ، وقصة مبشرة هي قصة « الطريق الطويل » للاستاذ نجيب الكيلاني ، ولا ننسى ان نشير الى عمل قيم مثل « الشارع الجديد » للاستاذ عبد الحميد جودة السحار .

وأنا هنا اذا كنت قد لجأت الى الحصر في مجال « التقييم » ، لا ازعم ان هذه الكتب هي كل حصيلتنا من القصص الطويلة الممتازة ، فحسبي ان اشير الى نوع القصص الذي أرى توفر الجودة الفنية فيه ، فما ذكرته ليس اكثر من « عينة » ممتازة .

والقصة الطويلة ، او « الرواية » NOVEL هي التي تستغرق حوادثها كتابا بأكمله ، وربما عدة كتب كما في ثلاثية « بين القصرين » للاستاذ نجيب محفوظ ، وهي – في العادة – عرض طويل لحياة اسرة من الاسر ، او مجتمع من المجتمعات ، او فترة زمنية معينة ، طويلة نوعا ، وأحيانا تتناول القصة الطويلة بالتفصيل النمو النفسي والاجتماعي لشخصية من الشخصيات بما يحيط بها من ظروف وملابسات .

والقصة الطويلة ، تنبني على دعائم ثابتة هي : الحقل الذي تدور فيه الاحداث ، ثم الشخصيات التي تلعب دورها فوق مسرح هذه الاحداث ، واخيرا مجموعة الاحداث التي تكون في الواقع « الهيكل العظمي » للرواية ، كل هذا من خلال فترة زمنية محددة .

فالكاتب يختار فترة زمنية معينة ، تدور فيها احداث روايته ، والامتداد الزمني هنا – بعكس القصة القصيرة – ضروري لنمو الشخصيات ، وتكاملها الاجتماعي ، ووضوح الصراع بينها وبين تقاليد المجتمع ، ومواصفاته الاخلاقية . ثم يختار الكاتب شخصيات مختلفة تصور بصدق الوانا من الناس يعيشون هذه الفترة من الزمان ، بما فيهم من تضارب الافكار والمفاهيم والمذاهب والمستويات الاجتماعية . والكاتب الحق هو الذي يختار هذه الشخصيات من مستويات ثقافية ونفسية واجتماعية مختلفة حتى يبرز الصراع بينها بدرجة واضحة . ثم يختار الكاتب من آلاف الاحداث التي تعاصر هذه الفترة احداثا بعينها ، أحداثا عامة تتصل بشخصيات الرواية من حيث كونهم مواطنين في هذا المجتمع ، وأحداثا خاصة تتصل بحياة الشخصيات الذاتية في مجتمعهم الملاصق ، وفي أسرتهم ، وحياتهم الخاصة ، وبالطبع تكون العملية « ميكانيكية » التبادل بين احداث المجتمع ، وما تمر بحياة شخصيات الرواية من احداث .

وكاتب الرواية الممتاز هو الذي يستطيع ان يصور المجتمع بصدق ، من خلال حياة الشخصيات الخاصة ، اما الكاتب المحدود النظرة ، فهو الذي يعالج حياة الشخصيات منفصلة عن المجتمع الذي حولها ، فعيب كاتب مثل « عبد الحليم عبد الله » – برغم روعة فنيته – انه يعرض علينا صورا لشخصيات اجتماعية مريضة في صراعها مع شخصيات أخرى دون ان يتعرض للمجتمع الخارجي ، متناسيا « ديناميكية » العلاقة بين الشخصيات والمجتمع . فالقارىء لن يستطيع تكوين صورة صادقة للشخصية الروائية الا اذا عرف بالضبط نوعية المجتمع الذي كان البطل يعيش فيه ، وما يدور في هذا المجتمع من صراع سياسي وثقافي واجتماعي . وعرض الصورة الصادقة للمجتمع ككل في العمل الفني ، من شأنه ان يلقي ضوءا قويا على كثير من تصرفات الشخصيات ، وسلوكها في الحياة .

انظر مثلا الى قصة « من اجل ولدي » لعبد الحليم عبد الله ، انني اعتبرها خير ما كتب ، فالصراع الاجتماعي واضح فيها ، القصة عرض امين لحياة اسرة في صراعها مع الحياة ، شخصيات القصة معبرة تماما عن حالاتها النفسية ، وكذلك الحوار فيها متناسب مع المستويات الثقافية والاجتماعية للشخصيات . اما ابطال القصة ، فهم كثيرون ، وهو اتجاه لم يكن موجودا من قبل عند هذا الكاتب ، الذي كان فيما سلف يعرض لنا البطل من الداخل ، في عالمه المغلق ، بعيدا عن صراعات المجتمع المختلفة .

فكرة البطل المفرد الذي تتسلط عليه الاضواء لم تعد مقبولة في العمل الروائي . عرض البطل من الداخل ، بصراعاته الداخلية ، دون التعرض للتأثير الخارجي للمجتمع لم تعد تلقى قبولا من قارىء اليوم . الصراع الداخلي – اي النفسي – للشخصية ، بينه وبين الصراع الخارجي – الاجتماعي – عملية تبادلية ، عملية « ديناميكية » متصلة .

وفي مجال التطبيق ، نجد ثلاثية « بين القصرين » لنجيب محفوظ ، النموذج الاوفى للرواية المصرية :

فترة زمنية محددة تبدأ من تباشير الثورة المصرية العظيمة ، ثورة سنة ١٩١٩ وتنتهي بنهاية الحرب العالمية الثانية ، الفترة ما بين الحربين العالميتين الاولى والثانية هي المجال الزمني لهذه الرواية .

اما المجال الاجتماعي « البيئة » فهو القاهرة عامة ، وحي الازهر والحسين ، بوجه خاص ، بمواصفاته الخاصة ، واجوائه المعروف بها .

الشخصيات متعددة ومتصارعة ، هناك الطبقة الوسطى المتمثلة في السيد « احمد عبد الجواد » واسرته واصدقائه . وهناك الطبقة الدنيا المتطلعة الى مستوى الطبقة الوسطى « كبيومي الشربتلي » ، وما اعادة ترتيب محله على طريقة حديثة الا تعبير عن هذا النزوع ، وهناك الطبقة الارستقراطية المتمثلة في اسرة « شداد بك » ، والصراع « الديناميكي » دائر بين هذه الطبقات ، اناس يرتقون الى الطبقة الوسطى كأسرة « شداد » بعد انهيارها الاقتصادي ، وهناك الصراع الاجتماعي المتمثل في قسوة التقاليد التي كان يفرضها السيد احمد عبد الجواد على اسرته ، ورغبتها في تحطيم هذه الاسوار ، حيث بدت المحاولة الاولى في سبيل هذا الخروج من أسر التقاليد الصارمة ممثلة في توجه « الست امينة » الزوجة الطيعة المخلصة لزيارة « الحسين » بدون اذن من حارس هذه الاسوار التقاليدية السيد احمد عبد الجواد ، هذا الصراع الذي انتهى أخيرا بتمكن « الست أمينة » من الخروج يوميا لزيارة أولياء الله ، بعد ان كانت ستتعرض يوما لتقويض بيتها بسبب خروجها مرة واحدة ، لزيارة « سيدنا الحسين » . وهناك الصراع الثقافي : هناك ازمة المثقفين ، أشخاص يأخذون موقفا سلبيا من الاحداث والحياة كسياسيين ، واشخاص ضائعون برغم وعيهم وثقافتهم ، خذ مثلا « كمال » ، انه يمثل فئة كبيرة من المثقفين المصريين الذين نالوا حظا كبيرا من الثقافة غير المحددة ، والتي تجعلهم يقفون في حيرة من امرهم ، بين ما ورثوه من قيم وتقاليد ، وبين ما اكتسبوه من ثقافات جديدة ، هذا القلق الذي تعيشه فئة كبيرة من المثقفين المخلصين والذي تتولد عنه موجة عاصفة من الشك في كل القيم ، وكل الموروثات والمكتسبات على السواء . هذه الفئة المثقفة ، فئة مخلصة ، ولكن وعيها غير محدد ، غير واضح ، فهي لا تدري : اين تقف ؟! انها وليدة ما بعد ثورة ١٩١٩ ، هذا المجتمع الذي هبط من ذروة التماسك الوطني في الثورة ، الى حضيض الانهيار والتفسخ السياسي والوقوع في الوان الخيانات الوطنية والقومية ، فكان من جراء كل هذا خروج هذا الجيل القلق الشاك ، وكيف لا يقلق على مستقبله ؟ وكيف لا يشك في كل شيء بعد ان رأى امامه هذا الصراع الوطني الجبار ينهار ويضيع بددا ؟..

ويتحدد الصراع الثقافي بعد ذلك . يتحدد في تلك الخطوط الثورية التي استمرت حتى قيام ثورتنا الحالية ، ثورة ٢٣ يوليو المجيدة ، وقد تمثل الصراع الثقافي في بعض الشبان المنضمين الى بعض الاحزاب ، وفي البعض الاخر المنضم الى الاحزاب السرية والجماعات الدينية المتطرفة ، هذا الصراع الذي أنهى به الاستاذ نجيب محفوظ قصته ، والذي جاءت ثورتنا الحالية لتحدده في بناء مجتمع اشتراكي ديموقراطي سليم .

والواقع انني لم اعرض هذا العرض الطويل نسبيا لثلاثية « بين القصرين » الا لاعطي نموذجا سليما لما ينبغي ان تكون عليه الرواية المصرية ، هذه الرواية التي هي عبارة عن قصة حب رائعة ، وسجل سياسي واف ، وبحث اجتماعي ممتاز ، ثم هي قبل كل اعتبار : رواية مصرية صميمة ، لاسرة مصرية مائة في المائة ، عاشت في مصر فعلا ، وسط كل هذه الصراعات ، واكتوت بنار احداثها .

ومرة اخرى أتساءل :

هل لدينا الكثير من هذا المستوى الفني الرفيع في القصة ؟ لو كان الجواب بالايجاب ، لقلنا بملء أفواهنا : حقا ان لدينا قصة مصرية طويلة !!

القاهرة — **عبد المنعم عواد يوسف**

النشاط الثقافي في الغرب

فرنسا

حدث ادبي عظيم



نشر الكاتب الفرنسي الكبير جان بول سارتر في مجلة «تان مودرن» مقتطفات من كتاب «سيرتي الذاتية» الذي ستصدره دار غاليمار هذا الشهر في باريس تحت عنوان «الكلمات» (١) .

وقد اعتبرت الصحافة الادبية والنقد صدور هذا الكتاب اكبر حدث ادبي يشهده هذا العام في فرنسا ، ويليه في الاهمية صدور تتمة مذكرات سيمون دوبوفوار تحت عنوان «قوة الاشياء» .

وما تزال الصحف الفرنسية تدرس هذين الكتابين وتنشر عنهما مختلف التعليقات .

وقد نشرت مجلة «الاكسبرس» مقتطفات من سيرة سارتر ، ذاكرة ان الكاتب الكبير قد بدأ كتابتها منذ عدة سنوات ، ومع ذلك فلم تكن طويلة ، لان سارتر لم يحاول ان يكتب مذكراته على غرار سيمون دو بوفوار . وانما هو يطرح على نفسه سؤالا واحدا : «لماذا كتبت ؟» ويجيب سارتر وهو يدلل على ان كل شيء قد مثل تمثيلا قبل ان يبلغ العاشرة ، ومع ذلك فام ينقذ شيء على الاطلاق . وهذا الكتاب كله تدليل جديد على الفكر السارتري» .

وكتب الناقد برنار فرانك (٢) يقول ، موجها حديثه الى القراء :

« اذهب الى الكشك الذي تشتري منه مجلاتك وكتبك ، واطلب العدد الاخير من مجلة «تان مودرن» . فاذا كان قد نفد ، فأوص عليه بائعك ليجلبه لك من الادارة . لقد كتب فيه سارتر سبعين صفحة ، هي بداءة سيرته الذاتية «الكلمات» هل تريد ان تعجب ، وهل انت بحاجة الى ان تعجب ؟ أنا كذلك ، ونحن على حق في هذا . ان هذه المذكرات رائعة . ونادر جدا ، لو تعلم ، الادب الرائع ، والموهبة العظيمة ، وشيء اكثر من هذا . والنقاد يخفون عنا ، ويخفون عنك هذه الحقيقة ! وهم يجعلوننا نعتقد ان كل شيء متساو في القيمة ، وان هناك اشياء رائعة في كل مكان . ومهنتنا كنقاد تكمن ، بدافع من جبن ، أو بسبب غياب الحس والذوق ، او بدافع من تعب ، او بدافع من حقد ، في رفع كثرة الكتب الدون ، وفي انتقاص قيمة كتابين او ثلاثة تظهر في العام . ومنذ اعترافات جان جاك روسو ، لم يحدثني أي انسان عن نفسه مثل حديث سارتر الذي أثر في أعماقي أكبر الاثر .. انطفولة سارتر هي اجمل من «طفولة قائد» (٣) . ان سارتر يعود الينا اخيرا . وهو سارتر متوحش بما فيه الكفاية ، جاف بما فيه الكفاية ، غنائي بما فيه الكفاية ، ومع ذلك ، فاننا نستلذ كل شيء

ليس ثمة أصعب من ان يروي المرء قصة نفسه : فان لديه ميلا للبطء ، وللمراوحة في مكانه ، وللاستبكاء ، او هو يريد ان يثير الدهشة والفضيحة بفصول تدعو الى الضحك . اما الذي يملك حسا ادبيا حقيقيا ، فلا يمكن ان ينساق لذلك . ثم كيف يتذكر المرء طفولته ؟ ان الطفولة هي غير محتملة ومؤكدة كالموت ... وحتى حين يتذكرها المرء ، كيف يكشف عنها لكي تسحر الاخرين ؟

ان في مذكرات سارتر هذه الاسطر التي اعجبتني اي اعجاب : « ان ما كتبته مزيف . بل صحيح . بل ليس هو صحيحا ولا مزيفا ، ككل ما يكتب عن المجانين وعن البشر . لقد سردت الوقائع بالمقدار الذي تسمح به ذاكرتي من الصحة . ولكن الى أي حد كنت أؤمن بالهذيان ؟ تلك هي المشكلة الرئيسية ، ومع ذلك ، فانا لا أبت فيها . ولقد رأيت فيما بعد ان بوسع المرء أن يعرف كل شيء من عواطفنا ، باستثناء قوتها ، يعني صدقها . والافعال نفسها لن تخدم كمقياس ، الا ان تثبت انها ليست حركات ، وليس هذا دائما بالممكن » .

مزيف ، صحيح ، هنا القضية كلها . انه السارتر المأخوذ بالحقيقة ، والذي لا يكون مع ذلك مرتاحا راضيا الا في هدم التمثيل . ومن المسلي حقا ملاحقة الكذب كما يلاحق الذباب الشتوي في بيت حار ، بواسطة مبيد الحشرات . صحيح ، مزيف : انه سارتر منهج «بلمان» : انني انفخ عضلاتي ، وأنا الاقوى في اليأس ، فيالشيوعية ، في كل شيء ، ومع ذلك فانا لا احب الا الكلمات ، والادب ، هذا الفشل الذي لا يني يضطجع على الورق ويعشق نفسه .

ان ما احبه لدى سارتر انما هو خطأه : في ان يتحدث الى الاخرين ، في حين انه لا يرغب الا في ان يتحدث الى العصور الماضية والمقبلة ، الى روائع الاثار ، خطأه في ان يقول لنفسه : «عجبا ! نحن في القرن العشرين ، انها الثورة !» ومع ذلك ، فان الشيء الوحيد المرصود له ، انما هو هذا الخلود الادبي .

أجل ! اقرأوا هذه النصوص قبل ان يتحدث اليكم سارتر في لهجة احتقار عن مثالينه ، وعن انه فهم ، وهو في الثلاثين او الخامسة والثلاثين ، انه قد ضل الطريق (٤) .

---

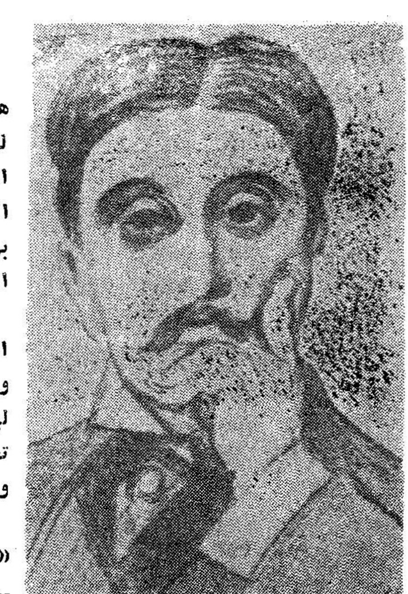
(١) وقد صدرت الترجمة العربية الكاملة لهذا الكتاب هذا الشهر في بيروت عن « دار الاداب » التي اشترت من دار غاليمار حقوق نشر الكتاب بالعربية .

(٢) انظر العدد ٧٠٧ من « فرانس اوبسرفاتور » .

(٣) قصة لسارتر أصدرها في مجموعة قصصية وهي لم تترجم الى العربية لصراحتها البالغة .

(٤) ستنشر « الاداب » في العدد القادم اصداء النقد الادبي الفرنسي حول كتاب « قوة الاشياء » لسيمون دو بوفوار .

ذكرى بروست



احتفلت الاوساط الادبية هذا الشهر بالذكرى الخمسين لصدور كتاب « بحثا عن الزمن الضائع » للروائي الفرنسي العظيم مارسيل بروست . وقد تحدثت عنه الصحف الادبية وغير الادبية بصفته رائدا كبيرا من رواد الرواية النفسية الحديثة ، وخصصت له جريدة «الفيغارو ليتيرير » (١) عدة صفحات تحدث فيها كبار ادباء فرنسا والغرب .

ومعلوم ان الجزء الاول من « بحثا عن الزمن الضائع » ـ وعنوانه « من جانب بيت سوان » ـ قد صدر في نوفمبر ١٩١٣ على نفقة المؤلف ، وكان بروست في الثانية والاربعين من عمره . ويوم صدوره ولد روائي من اضخم روائيي القرن العشرين .

وقد كتب جاك دولاكروتيل يقول ان عالمية بروست اصبحت شيئا مقررا ، فهو مقروء ومحلل ومدروس في كل مكان ، وقد اثر على جميع الاداب العالمية ، ووجد في كل لغة مترجما لاثاره . وكان بروست من اوائل الذين اكتشفوا عالم اللاوعي ونصف الوعي في نفوس البشر . وهو قد حطم القوالب المصطنعة للادب الروائي ، من غير ان ينزع ابطاله منه.

وكتب اندريه موروا يقول انه حين قرأ كتاب بروست احس بانقلاب نفسي ، ووجد فيه اسلوبا رائعا ومفهوما جديدا للرواية . وقد عبر « جيد » عن اسفه وندمه الشديد لرفضه نشر كتاب بروست الاول ، حين عرضته عليه دار غاليمار ، واعترف بانه لم يقرأه . وفيما بعد ، طبعت هذه الدار نفسها الجزءين الثاني والثالث من الكتاب .

وقال ميشال بوتور ، وهو احد زعماء مدرسة « الرواية الجديدة » ان بروست وكلوديل هما الكاتبان اللذان خلفا في نفسه اكبر التأثير .

وقال غايتان بيكون ، الناقد والدارس المعروف ان اثار بروست ليست « من الادب » بل هي الادب نفسه .

وقال لورانس داريل ان من لا يعرف بروست لا يمكن ان يعرف من هو الاوروبي ، واضاف ان الرواية بعد بروست سقطت في الخراب . ولنذكر المعركة التي خاضها جويس ليجد شكلا لروايته الكبيرة : كان لا بد له من ان يرتد الى هوميروس ويعطيها شكلا اصطناعيا ناجزا . ذلك ان لكل جيل فنانه ، وهو فنان واحد فقط ينجح ، وحين يفرغ من خلقه يكون كل شيء قد قيل .. وقد ترك لنا بروست نموذجا كبيرا لعالم يثير شهية الشعراء والفلاسفة في المئة سنة القادمة .

وقال غراهام غرين ان مارسيل بروست هو في رأيه اعظم روائي في القرن العشرين ، كما كان تولستوي في القرن التاسع عشر . وقد كان ثمة تأثيران على اولئك الذين باشروا الكتابة عام ١٩٣٠ ، تأثير بروست وتأثير فرويد اللذين كانا يتكاملان .

وقال انفوس ويلسون ان رواية « بحثا عن الزمن الضائع » تبشر بميلاد « الرواية الجديدة » من جانب الفلسفة والتكنيك على حد سواء.

(١) انظر العدد ٩١٨ .

مسرحية بيكيت الجديدة



بدأت شركة مادلين رينو تقدم على مسرح الاوديون في باريس مسرحية جديدة لصموئيل بيكيت بعنوان « آوه! يا للايام الجميلة ! » ويتوقعون ان يستمر تمثيل هذه المسرحية شهورا عديدة ، لما تثيره الان من نقاش ونقد واهتمام .

وموضوع المسرحية هو تفاؤلية امرأة مدفونة في صحراء حتى العنق ، وهي مع ذلك لا تنقطع عن امتداح الايام الجميلة التي تعيشها ، وترسم على شفتيها بسمة لا تغيب ابدا ، وهي تريد بذلك ان تثبت ان الحياة ليست الى ذلك الحد غير محتملة !

وينقسم رأي النقاد ـ كالعادة ـ بين مؤيد مادح ، ومهاجم معارض . اما المؤلف فهو ـ كالعادة ايضا ـ يختفي بعد تقديم مخطوطة المسرحية ، فيأخذ الناس في اصدار الاحكام عليه غيابيا .

ويذهب البعض الى ان المسرحية تثير الغثيان ، ولكن مادلين رينو التي مثلت الدور الرئيسي فيها ببراعة اثارت اعجاب الجميع ترد على ذلك بقولها :

ـ لقد هزتني هذه المسرحية هزا عنيفا منذ قراءتي الاولى لها . وكنت قد تساءلت مرارا من قبل : « ترى ، الن يأتي كاتب مسرحي ليسند الي الدور الحقيقي للمرأة التي اريد ان اجسدها ؟ » اما الان ، فاعتقد ان بيكيت قد كتب هذا الدور . ولا اظن ان اي كاتب مسرحي قد اثبت معرفة عميقة ومؤثرة للمرأة كما اثبت بيكيت . والدليل ان النساء خصوصا ـ بل غالبا الفتيات ـ هن اللواتي يشعرن في القاعة بانهن اكثر الناس تأثرا .

ويأخذ البعض على بيكيت الحاحه على اظهار الانسان في حالة انهياره وسقوطه ، وهو بذلك يخلق استياء غير محتمل . ولكن مادلين رينو تجيب بأن ذلك خطأ ، فالبطلة ليست امرأة عجوزا ، ولكنها امرأة بلغت منعطفا من حياتها ـ عند الخمسين من عمرها . وهي سليمة جسديا ، ولكنها تغرق في مستقبل مغلق .

ويرى المخرج روجيه بلين ان بيكيت قد مضى بعيدا جدا في الجمال الدرامائي ، وسر الموهبة عنده انه يعرض المشاكل التي تشغله في دقة وتجرد وزهد كبير . وتساءل البعض عما اذا كان بيكيت مؤمنا ، باعتبار أن مسرحيته هذه توحي بان الله يتهرب دائما من بشرية غير مطمئنة الى مصيرها ، ولكن بلين يعتقد ان بيكيت لا يريد ان يثبت شيئا ، فهو ليس صاحب رسالة ، ولا يسعى الى أن يكون له تلاميذ .

ولكن بعض النقاد لا يبدون اي اعجاب بمسرحية بيكيت الجديدة ، ومن هؤلاء الناقدة كلود ساروت التي تعتقد ان مسرحيته الاولى « في انتظار غودو » افضل من الجديدة بما لا يقاس ، وهي ترى ان بيكيت لا يظهر هنا الا الجانب السهل من موهبته ، وان المواقف التي يصفها تتجاوز حدودها المعقولة ، بالرغم من انها مسطحة .

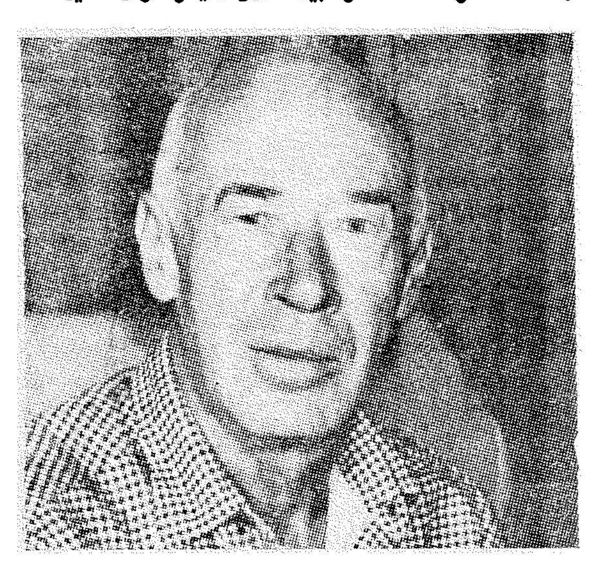
انكلترا

« مراسلات داريل ـ ميللر »

* * *

شاب انكليزي في الثالثة والعشرين ، كان يسكن آنذاك في كورفو ، يكتب لهنري ميللر ـ وكان يسكن باريس ـ رسالة يعبر فيها عن اعجابه بكتابه « مدار السرطان » . اما الشاب ، فكان ينظم الشعر ، ويعيش عيشة حرة خارج بلاده ، ويدعى لورانس داريل . ويجيب هنري ميللر على رسالة الشاب ، وتستمر المراسلات بينهما ، الى ان يشتهر داريل عام ١٩٥٧ حين صدرت روايته الاولى « جوستين » . واما هنري ميللر الذي كان حتى هذه السنوات الاخيرة واحدا من الفنانين المعاصرين الملعونين ، والذي لم يسمح الا منذ وقت قصير جدا بنشر كتبه في الولايات المتحدة ، فمن الممكن القول انه اثر تأثيرا كبيرا ، في مسقط رأسه وفي جميع البلاد الاخرى ، على جيل برمته من الكتاب الذين يعتبرونه رجلهم الكبير ، ولكنهم لم يتجاوزوه قط .

وقد ظلت المراسلة مستمرة بين داريل وميللر طوال ثلاثين عاما ،



وها هي مجموعة كبيرة من هذه الرسائل المتبادلة تخرج الى النور ، فتثير اهتمام القراء والنقاد في كل مكان . ولا تصف هذه الرسائل قصة صداقة فحسب ، ولكنها لا غنى عنها لفهم اعمال داريل وميللر . وقد سبق للجمهور ان عرف هذه الصداقة في كتاب « عملاق ماروسي » الذي وصف فيه ميللر حياتهما المشتركة في اليونان ، في مطلع الحرب . ثم ان اثار ميللر كلها اوتوبيوغرافية ، فليس بينها وبين هذه الرسائل انقطاع . انه الرجل نفسه الذي يتكلم هنا وهناك ، بروحه الفكاهية ووقاحاته وسخائه وسذاجاته ايضا ، في الميدان السياسي بصورة خاصة.

وكذلك نجد في رسائل داريل ينابيع رباعيته العظيمة ، ونطلع على حياة ذلك الانكليزي المنفي الذي يقبل مع ذلك ـ وهو في هذا اكثر بورجوازية من ميللر ـ ان يعمل في خدمة البريطانيين الرسمية في بوغوسلافيا ، بعد الحرب ، الى درجة أن يقيء الشيوعية بطريقة تقليدية.

ويمكن القاريء ان يقارن بين الرجلين مقارنة تثير الاهتمام . وبالرغم من المدائح التي يسوقها ميللر لداريل ، وهي مدائح مخلصة ولا شك ، فان داريل هو « المعجب » . وهو اكثر ثقافة وذكاؤه اشد عقلانية ، ويعبر عن ارائه السياسية في البلاد التي يعيش فيها . ولكن ميللر يبدو اكثر عبقرية حين يحلق عاليا فوق اعراض هذا العالم ، غير انه يبقى متنبها الى مصير اثاره التي يريد ان تكون معروفة . ولا بد من الوقوف عند رسالة في اخر المجموعة تقع في خمس عشرة صفحة رائعة يلخص فيها ميللر السنوات التي انقضت ، في مزيج من زيارة فاليري ورامبو ولقاء عدد من النساء في حي مونبارناس الذي كان يعيش فيه . وليس من شك في ان ميللر حين كتب هذه الرسالة ، كان يفكر في نشرها . وفيها نرى النبي يزدوج بالاديب ، عبر اسلوب حر وصور متلالئة بالواقع والحياة والفن .

« مسرح اللامعقول »

صدر اخيرا كتاب هام لباحث بريطاني معروف ، هو مارتان اسلين، بعنوان « مسرح اللامعقول » يتحدث فيه بصورة خاصة عن كتاب فرنسيين او يكتبون بالفرنسية .

ويذكر اسلين ان تاريخ مسرح اللامعقول ليس تاريخا حديثا ، بل نحن نجد هذه النزعة في معظم الوان الادب التي تخرج عن مفهوم النزعة الطبيعية ، وكلما خرجنا عن التجديد الضيق للمسرح . وتاريخ الايماء منذ القدم والسيرك والميوزيك هال مملوء بالمشاهد « اللامعقولة » التي استمد منها مؤلفونا المعاصرون كثيرا من افكارهم . وفي فصل هام ، يستعرض اسلين تاريخ هذا اللون منذ العصور الوسطى حتى ايامنا ، ومنذ شكسبير وأدوار لير والداديين والسرياليين . وربما كان من الصعب تعريف « اللامعقول » ومظاهره الجمالية الحالية ، ولكن المؤلف يستشهد بنيتشه وبموت الرب وببوذية زن وبالتجارب الصوفية ، ولا يجد مشقة في اظهار التناقضات بين النزعة الاخلاقية والمجتمعات المعاصرة قبل ان يصل الى نتيجة تفاؤلية يقول فيها :

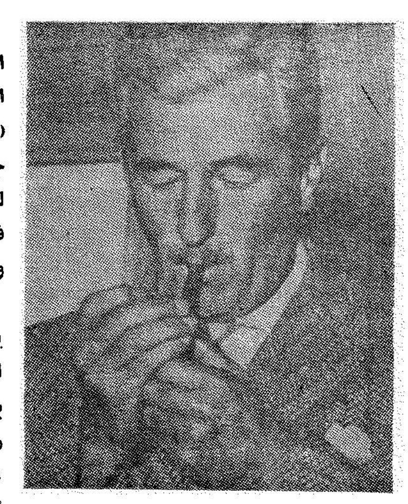
« ان مسرح اللامعقول ، في التحليل الاخير ، لا يعكس اليأس ولا الرجوع الى قوى اللامعقول الغامضة ، وانما يعبر عن جهود الانسان المعاصر لكي يتأقلم مع العالم الذي يعيش فيه . انه يحاول ان يجعله يجابه الوضع البشري كما هو على حقيقته ، وان يحرره من الاوهام التي تقوده الى ان يكون دائما خائبا وغير مستقر ... ذلك ان جدارة الانسان متعلقة بقدرته على مواجهة الواقع في كل ما يحمله من لا معنى، وان يتقبله تقبلا حرا ، بلا خوف ولا اوهام ـ وان يضحك منه » .

ومعظم فصول كتاب اسين مخصصة لمسرحيات بيكيت واداموف ويونسكو وجان جينيه .

الولايات المتحدة

« اخي بيل فوكنر »

* * *



صدر حديثا كتاب اثار اهتماما وضجة في مختلف الاوساط الادبية ، هو كتاب « اخي بيل فوكنر » من تاليف جون فوكنر ، الاخ الاصغر للروائي الاميركي الشهير وليام فوكنر وفيه يروي ذكرياته وبينت طفولته مع اخيه .

وطبيعي ان هذا الكتاب لا يموضع فوكنر في مكانه من الادب العالمي ، ولكنه مليء بالحكايات والذكريات عن روائي كرس حياته كله لاثاره الادبية ، ولكنه مع ذلك قلما كان في حياته اديبا ، وظلت

حياته الخاصة ، بالرغم من جائزة نوبل وطوفان الدعاية الصاخبة التي تحب الولايات المتحدة ان تغرق فيها رجالها الشهيرين ، ظلت حياته الخاصة محجوبة عنها بالتحفظ الذي كان يلتزمه حولها .

وذلك الشقيق الذي يحق له ان يدعوه باسمه المصغر « بيل » لا يطمع في رسم خط تطور الكاتب ، على ضوء التواريخ البيوغرافية ، كما لا يريد ان يستجيب لذوق القراء الرديء في ارضاء فضول نهم لمعرفة حياة خاصة اراد هو نفسه ان يبقيها في الظل ، وانما هو يرسم لنا لوحة تمثل العالم الذي عاش فيه صاحب « بينما انا احتضر » والذي استمد منه مادته ليخلق الكون الروائي لمؤلفاته .

وهذه الذكريات مدموغة بكآبة الشيخ والحب الاخوي . والعالم الذي يصفه جون فوكنر هو عالم اكسفورد ، مدينة ولاية المسيسيبي ، التي يعرفها القراء كما لو انهم عاشوا فيها ، مدينة وليم ذاته . ولا شك في ان القارىء سيهتم بهذا الكتاب الصغير ليلتقط منه بعض اضواء تنير له جوانب من شخصية فوكنر المعقدة ومن مؤلفاته الغامضة غالب الاحيان ولكنه سيدرك كذلك انه يعيش تجربة غريبة : فهو يتنزه في شوارع اكسفورد ويلتقي اشخاصا لم يرهم في حياته ، ولكنهم مع ذلك مألوفون لديه الفة غريبة ، ذلك انهم كانوا نماذج استعملها الروائي الكبير لابطاله، ومع هذا فقد وضع كتاب الذكريات هذا على صعيد اخر ، وهو غارق في نور اخر يختلف عن نور فوكنر ، انه اشبه بتجربة المؤلف الانكليزي لورانس داريل في رباعيته الاسكندرانية : ان الاشخاص والاحداث والديكورات تبقى هي نفسها ولكنها مرئية من قبل رواة مختلفين ، محملين بانفعالات شتى ، وهم يتغيرون من جزء الى جزء تغيرا عميقا .

حديث هام لساروين



زار وليام ساروين مؤخرا العاصمة الفرنسية ، فاجرى معه الصحفي غي لوكليش مقابلة نشرتها في الشهر الماضي جريدة « الفيغارو ليتيرير » (العدد ٩١٧) ونقلتها بعض الصحف الاميركية بعد ذلك .

وقال ساروين تعليقا على كتابه الاخير « هذا ، ذاك ، تعرفون من ... » ان العنوان يعني ان التجربة البشرية هي شيء هارب . فهي تمر بسرعة: هناك انسان ، وبعد لحظة يختفي ، وينتهي الامر . وهذا الانسان هو اي كان ، انت ، انا ، الناس في الشارع .

وسئل ساروين لماذا اقتصر في هذا الكتاب الذي هو سيرته الذاتية على سنوات طفولته ثم احدث سنواته وترك فجوة بينهما فأجاب :

ـ اعتقد ان الكاتب عمليا ، في الحاضر ، هو مجموع ما كانه وهو طفل وما عاشه اثناء السنوات الاقرب اليه . ويبدو ان الطرفين يجران الذهن . ان الطفولة لا تكف قط عن ان تكون موجودة ، الى جانبك . وانا اسحب كل شيء من ثروتي الخاصة . انني لا ارسم خطة ، ولا اطرح نفسي اسئلة عن الاسلوب ، وانما التمس قبل كل شيء الفن الحقيقة ، وان اكون حيا ، مقروءا . ان للجمهور رغباته ، وخيباته العميقة . وانا احاول ان استجيب لحاجاته . وكتابة السيرة الذاتية ، في هذا المعنى، هي التحدث عن جميع الناس . لقد كانت احدى اقاصيصي تتناول موضوع الزواج : ذلك اني تلقيت مئات الرسائل من ازواج وزوجات يلاقون صعوبات زوجية .

واضاف وليم ساروين يقول :

ـ ثم ان كتاب « هذا ، ذاك ، تعرفون من .. » ليس الا جزءا من سيرة ذاتية اكبر جدا من ذلك (فهي تتألف من مليون كلمة) وهي ما تزال مخطوطة ، وعنوانها « النصف بالنصف » كما يحدث لدى اقتسام ربح ما . ولكن القضية هنا هي قضية نصف حياتي . ذلك ان الموت قد اصبح بالنسبة لي رفيقا . انني للمرة الاولى احسه في امكانيته ، في قربه . لقد مات كثير من اصدقائي . وانتحر احدهم ، واصيب اخر بنوبة قلبية . وثالث هو اليوم من شدة المرض بحيث لا يستطيع بعد ان يعمل . غير ان هناك الاولاد . وولادتهم اشبه بضربة زهر تقذف عبر الحياة . والاتصال معهم هو اهم شيء . ان لي ابنا يبلغ العشرين . كلا ، انه لا يجرؤ بعد على كتابة الرواية . فهو يعاني على هذا الصعيد بعض العقد ، بسببي . ولكنه ناقد جيد ، يهتم خصوصا بالشعر والرسم. اما ابنتي ففي السابعة عشرة ، وهي تعد ليسانس ادب ومسرح ، ولكني اعتقد انها تعد ليسانس تتناول الفتيان الذين تعرفهم .

ـ ما يلفت النظر كذلك في سيرتك ان الاحداث فيها مغلفة بالتعليقات ...

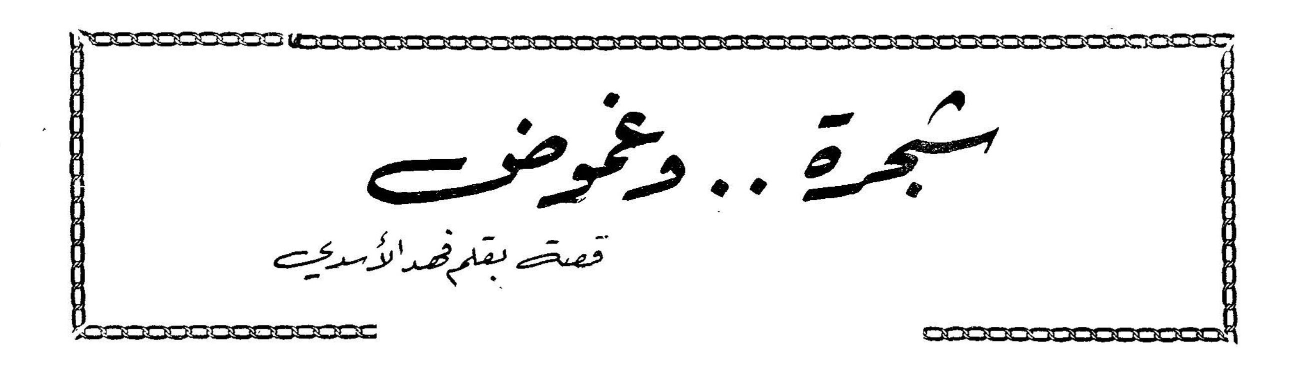
ـ ذلك ان التعليقات هي الاحداث الحقيقية . ويمكن ان يعلق على اي تجربة مهما صغرت ان بسمة رجل تلتقيه في الشارع ليست شيئا اذا لم تحطها بالتفسيرات .

ـ ظاهرة اخرى : شغفك بالقمار ...

ـ نعم ، هذا اعتراف اقدمه هنا . انني احب القمار . وغالبا ما اخسر ، ولكن يجب ان يفهم الناس مصدر هذا الشغف . انني فخور بوسط المهاجرين الارمن الذي اخرج منه ، وقد كان الحصول على المال فيه صعبا ، وكنت مسحورا حين كنت ارى ما يستطيع الغنى او الفقر ان يفعله بالبشر . ان شخصياتهم تتوقف على ذلك . وانا اكن الود كله للذين يعملون بمشقة وقسوة . ولكني اعرف الطغيان الذي يمارسه المال على الاغنياء والفقراء سواء بسواء . واصحاب المصارف هم أسوأ الذين اعرفهم . انهم يعيرونك المال ان كنت تملك منه قدرا ... ولقد رأيت كثيرا من الرجال والنساء الذين يستنفد قواهم عمل شاق لا يكاد يرد شيئا ! ثم انني احب القمار لان الامر فيه يجري بسرعة ، وانا اجري بسرعة ...

ـ لقد تحدث بعض النقاد عن تفاؤلك الصلب . ولكني اجدك الان متشائما .

ـ ان هذا تصنيف حاسم اكثر مما ينبغي . انني لست متفائلا ، وانما انا ايجابي . هناك حقائق لا مفر منها . من ذلك مثلا ان لا معنى للتجربة البشرية . واستمرار الاضطراب في العالم مكتوب في الطبيعة البشرية .. ان كل ثورة تفضي الى افلاس فاجع . والمرء يرجع دائما الى المشكلات القديمة : التفاهم مع الاخرين ، الموت ، الحب ... ولكن هناك شيئا اخر : فحين كنت شابا ، كنت اعتقد ان الفن ، من مثل الكتابة والرسم ، سوف يغير البشر . ولكن الفن ، على صعيد ما ، هو صعيد القوة والفعالية ، اعجز من ان يوقف اي شيء . وحين كنت جنديا ، ذهبت لمقابلة ج. ب. شو ، وكان يتكلم عن هـ. ج. ويلز وهو يحتضر ، وليس ثمة من يقرأه بعد ، فسألته : « هل تراك تتألم حين تتساءل عما عسى يكون تأثير مؤلفاتك على الجنس البشري ؟ » فأجابني : « ابدا » ولكن يجب ان تلاحظ اني لا املك الان وجهة نظر يائسة بالنسبة للفن . لقد حسبت انه كان قوة كبيرة . وانا ارى الان ان ذلك كان رأيا ساذجا. انه فقط قوة محدودة ، لها مكانها على حدة . لقد كنت اود ان افعل اكثر مما فعلت تجاه الاكاذيب التي تتدفق كل يوم . ولكني لا املك من الامر شيئا . وحين ارى ما هو موجود ، اقول لنفسي ان الامر ليس سيئا الى هذا الحد ، في اخر المطاف ، وانه كان يمكن ان يكون اسوأ الف مرة .



كنت ـ وأنا صغير ـ مولعا بالسطو على شجرة النبق القابعة قرب دار « مدير الناحية » المتاخمة لدارنا .. وكانت خطط سطوي تدبر دون جلبة وضوضاء ، فقد كنت اخاف قسوة « مدير الناحية » ، فقد ذقت يوما علقة ساخنة من يـده . وكنا نستبق نحن الصغار ـ والمنافسة تملأ نفوسنا ـ مبكرين لجمع سقط النبق ولم أذكر قط ان الرهبة والخوف صداني عن مغامراتي !

لكن زياراتي لهذه الشجرة انقطعت دون سابق انذار .. كان والدي ليلتذاك قد حذرني الاقتراب من الشجرة ، وقد حاولت ان أحتج ، لكن ما قصه والدي من حكايات جعلني ارتجف ، والصق رأسي الصغير بصدر امي الحنون .

لم تكن قصص والدي من بنات افكاره ، فقد بدأت الحكايات تخنق جو قريتي الصغيرة .. بدأ الرعب يبسط جناحه على كل زاوية ، فقد انقطعت زيارات « شهيب » مستخدم المستوصف عنا ، وقد احزنني ذلك كثيرا ، لانني اعتدت واهلي سماع قصص « الف ليلة وليلة » تخرج حلوة من فم « ابي مهيدي » . وقد قال شهيب بانه سمع عند اقترابه من الشجرة ليلا صوتا اجش يناديه ، ولم يشاهد شيئا . وأدرك « أبو مهيدي » أن ذلك الصوت صادر من عفريت أو غيره !

ومن يومها بدأت القصص والاساطير تنفلت دون تحفظ وكأنها كانت محبوسة في « قمقم » .. وكانت تفوح منها رائحة الذعر والفزع .

حتى ان الصبية يعقدون حلقات الرهان فيما بينهم .. وكنت أرى الصفرة والحيرة تعلوان الوجوه عندما يذكر رهان الشجرة ، حتى انني كنت أنتظر ان يتقدم « حمادي » للرهان فقد اعتاد ان يجوب البساتين في الليل خاصة وان حلقتنا كانت معقودة قرب حشد من الفتيات يتحمسن للرهان بينهن « كميلة » محبوبة « حمادي » .. لكن « حمادي » هو الاخر بدأ يلصق جسمه بحلقتنا وكنت أحس اضطراب كلماته عندما كان يتمتمها !

وكبرت الاساطير .. ومع كبرها كان يكبر فزعي من هذه الشجرة، ومعها ايضا كان يزداد فضولي لرؤية « العلوية العجوز » ذات الاضراس الطويلة والشعر المنفوش التي صورتها حكايات الناس البسطاء في قريتي . وكنت اتصور هذه العجوز ـ في يقظتي واحلامي ـ قابعة قرب الشجرة تنوح ، فقد قال الناس بأن هذه العجوز هي الشجرة نفسها ، وقد قطع احد الحكام غصنا كبيرا منها يوما ما ، ولذا فهي تبكي « ابنها المقطوع » ويومها علل الناس في قريتي الصمغ الذي يخرج من جذعها المتين ، بانه الدم المسفوح .

وصدقت الحكايات وقتها كاملة !!

لقد طارت هذه الحكايات من كل فم وما عاد شخص لا يصدق .. حتى ضحكاتي كانت تخرج مكتومة عندما قالوا : بأن العجوز المجنونة اتخذت من « حمزة » ـ قصاب قريتنا الوحيد ـ مطية فلعبت على ظهره طول الليل ، عندما سطا ليسرق طابوقات من حديقة المدير .

كما وان جارتنا « أم صبار » ذكرت لامي انها سمعت ليلة ذكرى مقتل الامام العباس صوت نسوة يلطمن وينحن في حديقة المدير ، وعندما شقت في الجدار ثقبا لتبصر لم تجد اثرا للنسوة النائحات . وقد أيدتها أمي : بأنهن جنيات لا يبصرهن انسان . ولم يكف لسان أم صبار عن سرد الغرائب عن شجرة النبق هذه . وأثناء ذلك أعاذت امي من الشيطان عدة مرات .

وبعدها اصبحت مجموعة من التمائم تطوق عنقي باحكام ! وتعلمت قراءة « قصار السور » والتعاويذ كلما مررت بسياج الحديقة القصبي.

وفي وقتها بدأ يرتفع رصيد « الشيخ حمد الله » المدخر عند « الحاج صالح » من كتابة التعاويذ اذ رأيتني لست الوحيد الذي ينوء بحمل هذه التمائم ، بل شاركني بذلك جميع الصبية الابرياء في قريتي . وعندما أبلغت للشيخ حمد الله سخرية معلمنا « طاهر » من هذه الافكار ، امتقع لونه غضبا ، وأنذر وتوعد ، وجرد « مداسه » وهدد به كل من لا يقول : بأن الشجرة « علوية » وبأن « الكاع واجفة على جرن ثور » ..

وضحكت ـ بتكتم ـ من حالة « الشيخ » وهو يدور لسانه ويزلق كلماته بتحذلق !

وتعلقت امام فكري علامات استفهام مبهمة .. غامضة كالليل الذي أخاف عفاريته وأرواحه المسكونة .. وفتشت عن الحقيقة ، فقد داعبت خيالي آمال عراض : « النبق الحلو .. الظلال الوارفة .. الخلوات الهنية .. » لكن هذه الحقيقة بدت لي مخيفة في سني تلك فقد كانت مقرونة « بالعجوز المجنونة ، وشعرها المنفوش ، واظافرها الحادة » .

يسر «الآداب» ان تعلن ان عددها السنوي الممتاز سيكون في هذا العام خاصا ب

فلسطين

فلسطين : الارض المقدسة التي يستعد العرب اليوم ، في جميع اقطارهم ، لاسترجاعها من الصهيونية المغتصبة ، والتي طبعت النتاج الادبي ، في السنوات الخمس عشرة الماضية ، بطابعها المأساوي العنيف .

و « الآداب » تدعو ادباء العربية ، من دارسين وقصاصين وشعراء ، الى المشاركة في تحرير هذا العدد الضخم الذي سيصدر في مطلع اذار (مارس) القادم ١٩٦٤ .

والبحث عن الحقيقة يتمخض فيلد انطباعات واستنتاجات « عرجاء » ان رافقه الخوف والغموض . واخذ عقلي يناقش لكن هذا النقاش انتج شيئا اسمه « لا شيء » . وكانت ليلة عندما أفاق كل من في الدار فزعا : كان اخي الكبير ينام محمولا على ايدي جارنا الطبيب « ابي وهاب » وزوجه .. وحاولت ان اقترب لاوقظ اخي من هذا الرقاد العنيف لكن ذلك الوجه المغمض الاصفر كان يكتنفه غموض أخافني !..

كانت امي تولول نائحة : « لقد أوصيتك ـ يا بني ـ ان لا تطيل بسهرك » .

وعلقت أم صبار قائلة : « عليك سور سليمان . هل لاقتك الجنية ؟! » .

وحاول والدي ان يستدعي الطبيب لمعاينة اخي لكن امي أشارت بأن الشيخ « حمد الله » أفهم .

وجلس الشيخ ليلتئذ يقرأ ويتمتم بكلمات غريبة ، ويرسم دوائر ، ثم بدأ يصرخ بوجه اخي صرخات ملأت الجو رعبا ، وكانت هذه الصرخات كافية لان توقظ مومياء لا آدميا فحسب ..

وعندما تنبه اخي اخذ الشيخ حمد الله يهز رأسه بغرور ظاهر ويمسح شاربه بأنفة ..

وكان علي ان اصدق . ها هو اخي نفسه بعد ان تنبه يروي لنا عن عجوز الشجرة المخيفة ، عن انيابها السود ومخالبها الطويلة ، وعن تهديداتها له وركضها وراءه !

وتعود الناس وضع البخور جوار الشجرة ، ووضع الحناء على ساقها ، وصارت حديقة المدير مزارا للنساء يلتمسن من الشجرة « المراد » !!

واذا لم ينهيأ من يضيء السراج فسيبقى الدرب مظلما .. ستظل الحقيقة يتيمة تتخبط ، ويظل رأسها يرتطم بالاباطيل ، طالما ان الخوف يبسط جناحيه ولا شجاع يصطاده .

لقد كادت ان تصبح قصة هذه الشجرة حقيقة في كل رأس ، لكن شيئا في الموقف قد تبدل :

كان قد نقل الى الناحية مدير جديد ، أزعجته ضوضاء الزائرات، فمنع الناس من الاقتراب الى الشجرة او زيارتها . كما وانه عمد الى قطع هذه الشجرة ، ونشرت سيقانها مقاعد للحديقة .

ولا ادري الى الان هل فعل المدير الجديد ذلك ليجمل منظر حديقته ام ليزيح هذا الظل الثقيل الذي أشغل الناس ؟

وكنت من الفرحين بهذا العمل ، فقد عدنا الى سهراتنا ومرحنا .. عاد « ابو مهيدي » يسمعنا قصصه الحلوة .. الا حمزة القصاب ، فلم تتسن له سرقة الطابوق هذه المرة فقد عين حراس للحديقة . لقد بدأت استطعم الحقيقة ولذتها ، فمع الحقيقة لا خوف ولا غموض.. لقد بدت طلاسم هذه الشجرة لا تعدو كونها خدعة كنت قد عشتها جزءا من حياتي ..

لقد أنساني هذا الفرح كل شيء حتى انني كدت انسى بأن المدير قد ترك فرعا ناميا من تلك الشجرة وربما سيكبر هذا الفرع فيكون كأصله « بعبعا » يخيف البعض ، او مزارا يلوذ به غيرهم .

العراق ـ قضاء الجزائر

فهد الاسدي

مرآة الغرب

إعداد وتقديم الدكتور عمر حليق

حصاد الادب الغربي لعام ١٩٦٣



فيما يلي تعليقات النقاد الاوروبيين والامريكان على حصاد الانتاج الادبي للعام الذي انتهى (عام ١٩٦٣) .

فرنسا - في رأي السيد فرانسوا اريفال المحرر الادبي لمجلة ((اكسبرس)) الاسبوعية ان ابرز ظاهرة ادبية في فرنسا في العام المنصرم هي مولد لون جديد من فن القصة على يد اديب ناشيء هو ((لوكليزيو)) في قصته ((المحضر))
LE PROCES VERBAL

والابتكار عند هذا القصصي الجديد لا صلة له بموجة الرواية الجديدة التي اكتسحت فرنسا في عالم ما بعد الحرب العالمية الاخيرة ، ولا صلة لابتكار لوكليزيو ايضا بالقصة الكلاسيكية .

فاسلوبه لا يتجاوز سردا ناضجا لانفعالات نفسية يتخذ فيها ادب الفلسفة طابعا سلسا من التعبير . فالشخصية الرئيسية في القصة تنساق في كسل يراقب معالم الحياة في مدينة دافئة من جنوبي فرنسا والقصة لا تخلو من عنصر الحب ، بل الواقع ان فيها كثيرا من التشويق الجنسي ولكنه ليس من الصنف الذي اشتهرت به فرانسواز ساغان . والفلسفة في قصة هذا الاديب لا تبلغ الاوج الذي تبلغه قصص سارتر او كامو . فهذا الاديب الجديد يتخذ الفلسفة (او عمق الوعي الادبي اذا شئت) كقالب فني للتعبير عن لون من الواقعية في الحياة الانسانية التي يراها الكاتب على انها جو من الاكاذيب يعيشها الناس في كل الطبقات وفي شتى الظروف بحيث لا قبل لهم بالعكوف عنها او استبدالها بجو من الصدق والحقيقة ، لكن معالم الكون في الاساس لا تسمح بذلك .

ومن الشعراء اختار المحرر الادبي ثلاثة : اولهما السيد سان - جون بيرس الذي حاز جائزة نوبل في العام السابق في المجموعة الجديدة التي صدرت لهذا الشاعر هذا العام وعنوانها ((عصافير)) Oiseaux
اما الشاعر الثاني الذي حاز تفوقا بارزا في الشعر الفرنسي لهذا العام فهو السيد هنري ميشو الذي لا يتبع التقليد الكلاسيكي كما عند (بيرس) ولكنه يعزز السريالية في الشعر اذ ان المسيو ميشو من اقطابه. اما الشاعر الثالث فهو المسيو ميشيل بوتو الذي استعار قالب القصة الجديدة للتعبير الشعري وخصوصا في ملحمته الجديدة ((وصف سان ماركو))
DESCRIPTION DE SAN MARCO

وفي الادب السياسي اختار المحرر الادبي كتابا جديدا لريمون آرون كابدع ما صدر في العام المنصرم . اما الكتاب فهو ((تسعة عشر درسا للمجتمع الصناعي)) وهو تحليل دقيق للمشاكل النفسية والسياسية والعقلية لهذه الحقبة من القرن العشرين .

في الولايات المتحدة

اختار محرر مجلة ((ساتاردي رفيو او ليتيريتشور)) المستر كومينيسي ثلاثة اصناف من الانتاج الادبي ادله على اتجاهات الادب في العام المنصرم . ففي نطاق الثقافة الممتازة اختار المحرر كتاب ((نهضة الغرب)) وهو تاريخ للتطور الحضري في اوروبا وامريكا بصورة خاصة ، واسم المؤلف المستر وليام ماكنيل . وهذا اللون من التحقيق الادبي يجعل الحضارة رهينة بالوان التنمية الاجتماعية والاقتصادية خارج القوالب الماركسية المألوفة ، ويعطي لعنصر الوجدان الثقافي اهمية اصيلة في نماذج التطور الصحيح .

ومن ابرز الكتب التي صدرت في امريكا في العام المنصرم كتاب صغير جدا للمستشار السياسي للرئيس كندي ، وهو الدكتور جيمس ماكجورج بندي . والكتاب بعنوان ((عقدة الديمقراطية)) وهو عبارة عن محاضرة طويلة القاها المؤلف شارحا المشاكل العملية التي تواجه النظام الديمقراطي في مناخ الازمات - وخصوصا معالم الحياة السياسية في الولايات المتحدة الامريكية في خضم المسؤوليات التي آلت اليها عندما برزت واشنطون كزعيمة للحلفاء الغربيين .

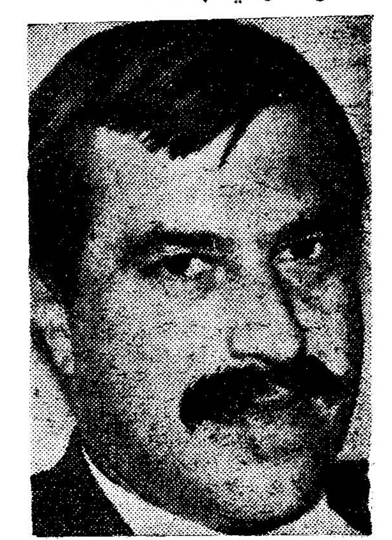
وفي نطاق الادب القصصي اختار المحرر قصة جديدة للمؤلفة (ماري ماكارتي) النقادة الادبية المعروفة ، وعنوان القصة ((الشلة THE GROUP)) وهي وصف اجتماعي وعقلي لاذع لطبقة معينة من المجتمع النسائي في امريكا تعرفه المؤلفة حق المعرفة - طبقة المترفات من اصحاب المواهب ومن اهل التحصيل الجامعي اللواتي تعبث بهن الحياة (او هن يعبثن بها) في مدارج النجاح او الفشل الذي يكتنف المجتمع الامريكي اجمالا .

في المانيا

قال المحرر الادبي لمجلة (المرآة



DER SPIEGEL



ان الانتاج الادبي في المانيا في العام المنصرم كان يقل في الجودة والابداع عن بقية الثقافات الاوروبية المعاصرة ، ومع ذلك فقد اختار المحرر كتابا جديدا للقصصي الالماني الناشيء (جونتر جراس) ((عام الكلاب)) وهي قصة يتمازج فيها الفن القصصي بالنقد السياسي في قالب دقيق - عميق - ممتع .

اختار محرر مجلة ((برلينر

تاغ شبيجل » (مرآة برلين اليومية) كتاب الهر (جراس) الانف الذكر كعلم على اجمل الانتاج الالماني في العام المنصرم ، كما اختار ايضا قصة جديدة للمؤلف هينريخ بول عن « المهرج » . وهذه القصة فيها نقد اجتماعي لاذع للتحلل الخلقي والروحي الذي اصاب طبقات معينة من المجتمع الالماني في مسرحية الرخاء المادي الذي ساد المانيا الغربية في السنوات الاخيرة .

في ايطاليا

واختار المحرر الادبي لجريدة « تمبو » قصة الكاتب توماسو لاندولفي وعنوانها : « كل شيء باطل » « RIEN VA » على انها من اجود حصاد العام المنصرم . والقصة في شكل مذكرات يستعرض فيها المؤلف دخيلة النفس في كثير من الصراحة وفي كثير من التعمق لحالة الفرد في المجتمع الايطالي ، والقالب الادبي واسلوب التعبير عند هذا القصصي فيها لون جديد من الواقعية تتخذ العقل اساسا ولا تدين بغيره .

من نماذج الادب في امريكا اللاتينية :

في اوساط الادب الغربي اجمالا لون من التعالي (او الاستهتار اذا شئت) بقوالب التعبير الادبي في هذه القطاعات من العالم التي تبحث عن لون محترم من الحياة - وخصوصا في مناطق كأمريكا اللاتينية او الشرق العربي التي تتفاعل فيها المبررات الثورية فتقلب الاوضاع في لحظة عين املا في مولد العدل الاجتماعي والحريات السياسية في سلسلة من التجارب لا يبدو ان الحظ وافقها حتى الان في اقساط معقولة ثابتة الاركان عميمة النفع .

والواقع أن التعبير الادبي في امريكا اللاتينية كما هو في العالم العربي يتخذ ادب المقال او الجدل العقائدي وسيلة لعكس المسببات الثورية او مبرراتها - متجاهلا الا في القليل النادر قوالب التعبير الادبي والفني الاخرى .

وسواء في مجلات الادب او دور النشر في اوروبا او في الولايات المتحدة الامريكية فان من النادر ان تعثر على استعراض او نقل جدي لنماذج اصيلة من قوالب الادب في امريكا اللاتينية او في العالم العربي، بينما هناك مثلا متابعة جدية لما تنتجه بلاد كالهند او حتى القارة الافريقية حيث التطور الثوري اقل عنفا واتفه في الوعي والقواعد والمؤيدات منه في عالم العرب او عالم اللاتين .

وحين اختارت مؤخرا احدى دور النشر البريطانية (متعاونة مع دار في الولايات المتحدة الامريكية) ان تسد هذا الفراغ في المكتبة الانكليزية عن ادب امريكا اللاتينية لم تجد خيرا من قصة قديمة لمشرد سياسي من جمهورية (غواتيمالا) . وتاريخ هذه القصة في حد ذاته علم على مشاكل الاديب في مناخ التطور الثوري .

اما القصة فهي « الرئيس » واما المؤلف فهو السنيور (ميويل آنجل استورياس) وقد تولى نفسه الحكم في غواتيمالا في فترة قصيرة من الحياة الديمقراطية النيابية تخللت سيلا متواصلا من ثورات الحكم الديكتاتوري هناك كما هو حال معظم جمهوريات النصف الجنوبي من العالم الجديد .

وقد اصدر المؤلف قصته من منفاه في المكسيك (وهي اكثر بلدان امريكا اللاتينية عشقا لحرية التعبير) عام ١٩٤٧ . وقد باشر كتابة القصة عام ١٩٢٢ وانجزها بعد عشرة اعوام ، ولم يجد لها ناشرا الا بعد خمسة عشر عاما . والقصة اليوم من اوسع الكتب قراءة وتقديرا في جميع الجمهوريات اللاتينية . ولا يزال المؤلف حيا يرزق يعيش في منفاه بالارجنتين .

اما الاطار القصصي لهذا الكتاب فهو هذا النمط المألوف في الحياة السياسية اللاتينية : قلة من اهل الاقطاع المحلي والاجنبي تحالفهم قلة اخرى من اهل الحل والربط في القوات المسلحة في رياضة مزمنة تتقاذف الحكم كما لو كان كرة للقدم . كل ذلك في معالم اجتماعية طابعها الفقر والجهل والحرمان للكثرة من المواطنين . فالاسواق والاحياء الشعبية على عهدها من قديم النشاط ومن هذه الالوان الزاهية والمضحكة الباكية فيها كثير من الجمال رغم بشاعة الاوضاع الانسانية . فالمواخير عامرة بروادها والرجال والنسوة في اوساط الجهل والفقر يستسلمون للذات في نهم وشذوذ لعلهم يعوضون به حرمانهم من متع الحياة القانعة المطمئنة . والكنائس في هذا الجو الاجتماعي المريض لا تزال كواحة في الصحراء يتردد الناس عليها حاملين الشموع طلبا للغفران او طمعا في الجزاء غير مدركين ان المركزية الدينية في اعلى مراتبها تواطىء «الرئيس» وبطانته على العبث السياسي وتتأرجح في الولاء بين هذا او ذلك من القوى الاقطاعية التي تتصارع على سلطان الحكم وتتآمر عليه .

ورغم ان المؤلف على قسط بليغ من الثقافة فانه لم يحاول مطلقا ان يبرر هذه الصور البشعة في معاقل التدبير دينية كانت ام مدنية ام عسكرية على انها نتائج مرتقبة في فوضى الجهل والتخلف . فليس في القصة اي حوار او سفسطة تشرح الاسباب والمسببات . فالرشوة رشوة لا تفسير لها سوى قذارة النفس والبطش بطش لا مبرر له سوى قسوة الطباع والعبث بالحقوق والكرامات عبث لا تشرحه اية فلسفة سياسية او اجتماعية .

اما الهيكل الروائي لقصة « الرئيس » فبسيط لا تكلف فيه : لرئيس الجمهورية .. ربيب يعقد عليه كبير الامال . وتشاء الظروف ان يقع هذا الربيب في غرام ابنة احد كبار الضباط من خصوم العهد . وبين عميق الولاء للرئيس وللطموح الشخصي ايضا وبين حاجة القلب في استبعاد النقمة عن والد الفتاة يرتكب ربيب الرئيس الوانا من التآمر . فتثور الناس وتتفشى حمى الانقلابات وتطيح ببعض الرؤوس البريئة وتسلم رؤوس فاسدة لتعود مرة اخرى الى جحيم الخوف والقلق وهكذا دواليك ... وفي هذا الخضم الدامي يظل السلطان للرئيس لا لانه مصدر التشريع او القوة فحسب بل لانه قديم الخبرة وعميق اليقظة وشديد العزم في صيانة الوضع الراهن .

وفي ثنايا التآمر والاحقاد والخوف واليأس والاستسلام للاقدار المصطنعة في ظل هذا النوع من السلطان يصور المؤلف في عنف التعبير الذي يتقارب فيه الطبع الاسباني مع الطبع العربي في المزاا ، وفي التعبير تبدو قصة « الرئيس » على انها اسطورة من اساطير الجحيم .

... ومن الادب الاسباني

السنيور « بانيتو بيريز كالدوس » شيخ في الثمانين من عمره انتج ٦٧ قصة وكتابا اكثرها يعنى بالصور والجذور الاجتماعية والفكرية والسياسية للحياة في اسبانيا في القرن الماضي (التاسع عشر) وهي فترة الانهيار والتداعي التي المت باسبانيا بعد اضمحلال امبرطورياتها الشاسعة في اوروبا وفي العالم الجديد .

وفي سلسلة من القصص في مجموعة بعنوان « صور من الحياة المعاصرة » حاول السنيور كمالدوس ان يساهم في اسلوب النقد الذاتي في تذكير مواطنيه باسباب التداعي والانحلال والحاجة الى احياء الضمير القومي لبلد له طابع حضري وتاريخي مجيد يستدعي الاحياء ويتحمل كثيرا من التنظيف . والقوالب الادبية التي اختارها السنيور كالدوس في مجموعته هذه تذكرك بقوالب الفن القصصي عند بلزاك ، ولذا فان الناشر البريطاني لهذه الترجمة الانجليزية الاولى لهذا القصص الاسباني يقول بان اشتداد اوجه الشبه بين انتاج السنيور كالدوس والكاتب الفرنسي العتيد بلزاك قد حالت دون السرعة في ترجمة كالدوس لانه وقد توفر الاصل البلزاكي فلا موجب لجهد كبير في التعرف على قوالبه الاسبانية .

وقد صدرت الترجمة الانكليزية لاحدى قصص السنيور كالدوس بعنوان (مياو MIAU فتبين انه رغم تأثر القصص الاسباني بالمعلم بلزاك الا ان في هذا الاجتهاد الاسباني قوالب ادبية اصيلة .

وتجري حوادث القصة في مدريد . نحن في بيت دون رامون وهو موظف في الدولة اوقف عن العمل قبل شهرين من استحقاقه الشرعي

للتقاعد من الخدمة المدنية . فقد تبدل العهد الحاكم وفقد دون رامون بذلك من كان يحتضنه من رجال العهد الماضي واشكل على الرجل فوجد نفسه يكرر السؤال على اصدقائه للتوسط له لدى العهد الجديد واكثرهم شحيح بالعون او كذاب مخادع ، وفي بيت دون رامون سعير من نوع اخر . فقد كان من جراء سخائه على اهله في سنوات الاستقرار في الوظيفة ان تربت عند سيدات البيت نزعة جامحة لبحبوحة العيش والانهماك في اللذات لا يرعوين ولا يكففن عن عبثهن ازاء هذه الازمة الماشية التي طرأت على دون رامون ، ويستقر رأي الرجل على ان الكرامة اذا جرحت في قطاع ما فكل القطاعات اذن تستباح .

وفي القصة هذه الشخصيات المألوفة في السلك الحكومي تعيش على توافه المثل وتبيع الكرامات في سبيل هذا النزر اليسير من الاستقرار ، او ما نعتقد بانه استقرار .

سيدات الادب الفرنسي

كتابان جديدان صدرا مؤخرا في قالب الترجمة الذاتية لسيدتين من لوامع الحياة الادبية الفرنسية المعاصرة .

اما الكتاب الاول فهو للاديبة المعروفة (سيمون دوبوفوار) بعنوان « قوة الاشياء » LA FORCE DES CHOSES والكتاب الثاني لمدام كلارا مارلو زوجة الاديب الفرنسي اندريه مارلو وزير الثقافة حاليا بفرنسا . وعنوان الكتاب : « ضجة اقدامنا » LE BRUIT DE NOS PAS

وفي كلا الكتابين يلمس القارىء هذه النزعة المستحكمة في ادب النساء الفرنسيات لاثبات الحيثية الفردية في مجتمع (كالمجتمع الفرنسي) لا تزال السيادة الفعلية فيه للرجل رغم هذه الاشواط المجيدة التي حققتها المرأة الفرنسية المعاصرة .

فمدام مارلو مثلا تكرر ثورتها في التعبير وفي السلوك على الضوابط الاجتماعية التي تقيد ثورة النفس عند المرأة عندما تتوفر لها حصيلة من الخبرة او المعرفة او الطموح او الانطلاق للمشاركة الكاملة في صلب الحياة . وفي حين ان سيمون دوبوفوار في الجزء الاول من ترجمتها الذاتية « مذكرات فتاة رصينة » وصفت تلك القيود والضوابط في حياة فتاة في وسط يهودي توفر له شيء من الترف الثقافي والاستقرار الفعلي ، تصف مدام مارلو نفس الانفعالات لفتاة في وسط كاثوليكي مماثل.

وفي الجزء الجديد من ترجمتها الذاتية تسجل سيمون دوبوفوار تجاربها الى الفترة التي انتهت باندلاع الحرب العالمية الاخيرة . وفي هذا الجزء ايضا تصف الكاتبة علاقتها مع جان بول سارتر وبه كذلك تسجيل لاعجابها وحبها واكبارها له . ولكنها في هذا الجزء تسجل دقائق جديدة في حياة سارتر - تسجل ادمانه على الخمر وحدة عصبيته وجدله المتواصل مع (كامو) - وخصوصا في المرحلة التي كان سارتر منهمكا فيها في تأليف نقده لاصول الديالكتيكية . وفي الجزء الجديد من مذكرات دوبوفوار ايضا محاولات طويلة تشرح هذه الصلة المعروفة بين المؤلفة وبين سارتر - صلة الروح والجسد وزمالة العقل واللذة . فصلة بوفوار بسارتر تحتاج الى كثير من الشرح . فهي تقول انها كثيرا ما وجدت نفسها تجاور سارتر مع عشيقة او عشيقات اخريات لسارتر. وليس في مذكرات دو بوفوار اي حقد او حسد او نفور من سلوك سارتر في هذه الناحية العاطفية التي يقال بان المرأة حساسة جدا ازاءها .

العكوف عن القالب الكلاسيكي في الانتاج القصصي

احدث النزعات في فن القصة الاوروبية المعاصرة تلك التي تتعمد ان لا ترسم اطارا معينا للحوادث وللاطار القصصي ولكنها تصر على ان تطلق العنان لبث الشجون والخلجات عقلية كانت ام احساسية ام من حصيلة التجارب ، في قالب هو اميل الى ادب المقال منه الى المألوف من ادب الرواية والقصة .

وقد برزت هذه النزعة في عدد من انتاج القصاصين الفرنسيين الشبان في السنوات الاخيرة في حضانة التشجيع الذي لاقوه في اقبال القراء وفي الجوائز الادبية .

ويبدو ان النقاد الانكليز (وقد اعجبوا بهذا اللون القصصي الجديد) يصرون اليوم على ان الاب الشرعي لهذه النزعة الادبية الجديدة هو قصصي بريطاني لا يقدره عشاق الادب خارج بريطانيا على نحو ما يجب أن يكون التقدير . واسم الكاتب (رايثر هابينستال) .

وقد صدرت في لندن مؤخرا الترجمة الذاتية لهذا الكاتب بعنوان « القطاع الذهني » فاحيت في الوسط البريطاني مجدد الدفاع عن دور هذا الكاتب في مولد النزعة القصصية الجديدة التي جنت ثمارها المدرسة القصصية الجديدة في باريس .

وللمستر هابينستال عدد من القصص منها « كوخ الخشب » و « الباب الموصل » و « لهيب القمر » وبحوث في مجلات الادب عن الفن القصصي .

ويقول الكاتب في ترجمته الذاتية ان التراث القصصي في الادب الانكليزي (والاوروبي عامة) كان مقصورا على وصف دقيق او مبالغ فيه لصور من حياة الناس او تجارب الاديب كما لو انها لوحات من الرسم او شريط سينمائي . ومهما سمت بلاغة الحوار او مهارة الاطار القصصي لمثل هذا النوع من الانتاج فانه عجز عن ان يطلق للقصص مجالا واسعا لحرية التعبير عن رسالته الا من هذا القالب المصطنع من حسن الاختيار او سوئه لشخصيات القصة وحوارها .

ويعزو الكاتب رسوخ هذا القالب القصصي الكلاسيكي في انتاج الادب الاوروبي (وعنه نماذج التقليد في الاداب الانسانية الاخرين) الى فلسفة (هيجل) التي اعتبرت القصة شيئا عضويا له جذوره وله طاقته على النمو والتشعب الى ان يبلغ مستوى النضوج ثم يذوي ويتداعى . ومن اثاره تنشأ اشياء عضوية اخرى تكرر نفس الطاقة على النمو والتشعب والنضوج والتداعي - في حلقة مفرغة . ومن هنا استدعت الحاجة لقالب القصص الجديد ليطلق للاديب مجالات اوسع في سعة التعبير ووفرة القوالب في الانتاج القصصي .

ويقول المستر هابينستال ان القالب القصصي الجديد ليس المقصود منه ان يستبدل القصة الكلاسيكية وقوالبها وانما هدفه ان يضيف على الوان التعبير الادبي قوالب جديدة للابداع والابتكار . وان من الخطأ ان يقاس الانتاج القصصي الجديد بنفس المعايير النقدية التي للادب الكلاسيكي .

الامريكان كما يراهم الاخرون

ثلاثة كتب صدرت هذا الشهر عن طبائع الشعب والحضارة الامريكية في دراسات متناقضة ، واحد هذه الكتب لصحفي الماني يراسل من واشنطون مجلة « العالم » DIE WELT التي تصدر في هامبورغ . وعنوان الكتاب « المجتمع الذي لم يتم » THE UNFINISHED SOCIETY

والعنوان في حد ذاته يعكس النتيجة التي توصل اليها المؤلف في نظرته لروافع المجتمع والثقافة الامريكية اجمالا . ففي خضم السرد الدقيق لهذه المعالم المألوفة - في حاضر الحياة الامريكية - ثراء وارتفاع في مستوى الحياة وفسحة واسعة في اوقات الفراغ نتيجة لتقدم الآلة في الانتاج الصناعي ودورها في تسهيل الحياة والرغد للكثرة من الناس - في خضم هذا المألوف من الصورة الاجتماعية لامريكا مضافا اليها مشكلة الصراع العنصري ورواسب الاقطاع الصناعي والمالي في الرأسمالية العتيقة يجد المؤلف الالماني املا وطيدا في ان تتركز الحضارة الامريكية في المستقبل على انها نبع غزير في نهر الثقافة الانسانية . فالمؤلف يعتبر تقدم الآلة في امريكا مدعاة الى ايجاد مزيد من الرغد ومن الفراغ في اوقات الامريكان مما يعينهم على التوسع في استيعاب الثقافة بمختلف مناهلها . ويصر المؤلف الالماني على ان نزوح العقل والطبع الامريكي لانتقاد نفسه في غير حرج او استحياء وتأصل النزعة الديمقراطية في النفس الامريكية وسعة الموارد في صميم القارة الامريكية نفسها - كل ذلك مدعاة الى استذكار مراحل التدرج التي

توصل بها قدماء الاغريق في الفترة التي عم فيها الرخاء والرغد وتركت قاذورات الحياة وثقيل الجهد في كسب العيش وتدبير وسائله للارقاء من العبيد الذين خدموا حياة الترف للمواطنين الاغريق مما وفر لهـذه الطبقة الاغريقية مجالا للابداع في الانتاج العقلي والحضري . ويـرى المؤلف الالماني اوجه الشبه بين قدمـاء الاغريق ومستقبل المجتمـع الامريكي في ان الآلة وتأصل دورها في خدمة المجتمع الامريكي ستستعيض عن الارقاء والعبيد وتترك للامريكي مجالا يزداد فيـه اتساعه وموارده لاحياء حضارة ثابتة تساهم بدور ايجابي في مجرى الحضارة الانسانية .

اما الكتاب الثاني فهو للمؤلف الامريكي مايكل هارنيجتون وعنوانه « امريكا لاخرى » THE OTHER AMERICA و صرخة داوية فـي وجه لون خاص من الفوارق الطبقية في امريكا . ويقدر المؤلف ان حوالي ثلث السكان الامريكان يعيشون في حرمان قاس لا يشارك مطلقا فـي الرخاء والرغد والطمأنينة الاقتصادية التي تتوفر للثلثين الاخرين . فهناك ثلث الطبقة من الشيوخ ومن المزارعين ومن اصحاب الحـرف الصغيرة الذين لم يتح لهم الاستفادة من فرص التعليم وامكانيات النمو الاقتصادي في عقر دارهم (فقد كانوا مرهقين باعباء ازمة عام ١٩٣٠) فتخطتهـم قافلة التقدم الامريكي . ويصنف المؤلف الاقليـة الزنجية والاقليـة اللاتينية (من جزيرة بورتو ريكو) في عداد هذه الطوائف التي تخطتهـا القافلة ، والمؤلف لا يرى حلولا لهذه الفوارق الطبقية في اعمال الخـير والاحسان والمعونات الاهلية او الحكومية دائما في قالب مستحدث مـن العدالة الاجتماعية لا تعتبر الحرية السياسية فقط اصولا للمجتمـع الديمقراطي وليس في الكتاب دعوة الى الاشتراكية فالمؤلف لا يرى فيهـا صلاحا لبلد كالولايات المتحدة الامريكية دعائمها لا تتحمل نماذج التخطيط والتقييد وتدخل الدولة في مجرى الحياة الاقتصادية وحريات التصرف للافراد والجماعات .

وانما يرى المؤلف الحلول في ادراك واسع لمشكلة هؤلاء الذيـن تخطتهم قافلة الرخاء والتقدم الامريكي على ان يستتبع هـذا الادراك اتجاه شعبي من صميم الوسط الامريكي والطاقات الامريكية التـي اذا وجدت لديها من الوسائل ما تسخو بـه على الشعوب الاخرى مـن المعونات المالية وغيرها فانها قادرة على ان ترفع مستوى المغلوبين علـى امرهم في الدار الامريكية نفسها الى ما هو حق لهم على عشيرتهم الامريكية كمواطنين وكبشر .

والكتاب الثالث لمؤلفين بريطانيين (الكس آتكينسون) و (رولانـد سير) وعنوانه « الولايات المتحدة الامريكية للمبتدئين » (USA FOR BEGINNERS) والكتاب مجموعة مقالات في ادب الرحلات ظهـر في المجلة البريطانية الهزلية PUNCH وهنا يبلغ ادب الفكاهة اجمل قوالبه الساخرة في التعبير عن معالم الحياة وعن الحضارة وعن ما هـو مألوف وما هو مجهول في السلوك والتفكير الامريكي .

وفي مهارة التعبير الفكاهي يعكس المؤلفان نماذج عميقة لشتى اوجه الحضارة الامريكية فيها مزيج منصف من اجتهاد المؤلف الالمانـي الاول ومن غضبة المؤلف الامريكي الثاني .

والكتابان الاخيران صدرا في طبعة رخيصة عـن دار « بنجـوين » البريطانية المعروفة . اما الكتاب الالماني فقد صدر باللغتين الانكليزيـة والالمانية .

... والتاريخ الانكليزي كمـا يراه « مارلو »

صدرت في لندن مؤخرا الترجمة الانكليزية لكتاب الاديب الفرنسي الكبير (اندريه مارلو) عن تاريخ بريطانيا وقد اجمع النقاد البريطانيون على تقريظه من حيث الدقة في الاستيعاب التاريخي ومن حيث بلاغـة السرد والتحليل عند هذا الاديب الفرنسي العتيد ومـن حيث الذوق الرفيع في اختيار الرسومات التي جمعها (مارلو) في هذا السجـل التاريخي . فعنوان الكتاب « التاريخ المصور لبريطانيا » .

وكان من جملة من عملوا لنشر هذا الكتاب في ترجمته الانكليزيـة المؤرخ البريطاني المعروف (ل. بروجان) وهـو نفسه صاحب مؤلف انكليزي مشهور عن التاريخ الفرنسي .

مذكرات « بيرنسون » حاخام الفن وكبير المتاجرين بـه

توفي عن اربعة وتسعين عاما ومرت تحت سلطته عشرات الملايين من الصفقات التجارية في بيع التحف الفنية وشرائها وتولى القضاء الاعلى في شؤون الفن لعصر النهضة الاوروبية وتراثها الفني ، وبنـي لنفسه قصرا ينافس قصور سلاطين القرون الوسطي تعمـره نماذج فريـدة (وثمينة) من اللوحات والتماثيل والتحف ـ ومع ذلك لم تتواضع نفسه امام الموت فقد اصر حتى اخر رمق فيه على منافسة الالهة فقد اعتبـر نفسه في مصافهم وتعالى على الخلق وتطلع اليه اهل الفن (وتجاره على وجه التحديد) على انه سيد مطاع ونبي مـن انبياء اسرائيل يحلـو للحضارة الغربية ان تسبغ عليهم صورا من الحكمة ومن الحذق والدهاء.

واخيرا صدرت الترجمة الذاتية لهذا الرجل فاذا هو (كما يجب ان يكون) مخلوق عادي ليس فيه الا طرف ضئيل من العبقرية والنبوغ وكثير جدا من هذه العقلية المخادعة التي يتصف بها هؤلاء المحتكـرون لتجارة الفن وفلسفته ومعظمهم كما هو معروف من اليهود .

اما الرجل فهو (برنارد بيرنسون) واما كتابه فمذكرات فـي ٥٥٠ صفحة تستوعب عشرين عاما تقريبا من الحول الطويل الذي عاشه ..

فقد كان (بيرنسون) القول الفصل في صحة التحف الفنيـة او زيفها وخصوصا تلك التي تمت الى عصر النهضة الاوروبية بصفة خاصة. فقد استنجد به تجار اللوحات والاثريات (وكلهم يهود تقريبا) في تزكية ما باعوه من ملايين الدولارات لعشاق الفن واهـل الترف وخصوصا اصحاب الملايين في امريكا وبريطانيا وفرنسا .

وفي القصر البديع الذي شيده (بيرنسون) لنفسه في شمالـي ايطاليا حج اليه الوف التلاميذ وعشرات المؤرخين والنقاد ومن السيدات والشيوخ مـن أهل التـرف الذين كانوا يشكون فـي صحة القيمة المالية الضخمة التي كان يطلبها منهم تجار التحف واللوحات والتماثيل الفنية في اسواق لندن ونيويورك وباريس . فقد كان بيرنسون كالمنشار يقص من الجانبين ويتقاضى اتاوة وعمولة واتعابا لمشورته جلبت لـه ملايين الجنيهـات .

وقال احد الجريئين من النقاد الانكليز في مجلة اميركية متواضعة في معرض مراجعته لهذه الترجمة الذاتية (وعنوانها : مغيب وشفق) انها لو صدرت ابان حياة بيرنسون لاكتشف الناس ان في المفهوم الحالي لعصر النهضة وميراثها الفني كثيرا من الاخطاء ومـن التزوير ومـن الارتزاق التجاري الشنيع شارك في تعميمها (بيرنسون) لمآرب فـي نفس يعقوب ولمنفعة المتاجرين بالفن من ابناء ملته .

« لن نرتكب الاخطاء » لون سوفياتي جديد

صدر كتاب جديد لهـذا الصوت الجديد فـي الادب السوفييتـي (الكسنـدر زولزنشتاين) مؤلف القصـة العنيفة (يوم في حياة ايفـان دنيزوفيتس) وهي ابلغ مـن جرؤ في الادب السوفياتي بعد على ادانة عهد ستالين بالسوء والبطش والطغيان .

والكتاب الجديد قصتـان كاملتان بعنوان « لـن نرتكب الاخطاء » وقـد اصدرت ترجمتها الانكليزية جامعة سوث كارولينا في الولايات المتحدة.

وهنا يبـرز زولزنشتاين « ليس ككاتب جريء فحسـب وانما كأديب متمكن من اصول



زولز نشتاين

الادب وحرفته » كما قال احد النقاد الامريكان للكتاب الجديد .

وحبكة الرواية في هذا الكتاب لا صلة لها بالموضوع السياسي الذي كان محور كتابه الاول وانما ذو علاقة بالوجدان الثقافي لحفظه الفن والادب في الجيل الروسي المعاصر فاحدى القصتين تدور حول عجوز مسنة تعيش على هامش الحياة الروسية . اما الثانية فحول حادثة لجنديين ابان المعركة في الحرب العالمية الاخيرة .

فقد تعمد الكاتب قسطا بليغا من السخرية في معالجته لقصة ضابط روسي (الملازم زوتوف) نبراسه في الحياة تعاليم ماركس ودستور الحزب وحتمية الالتزام . فبطل القصة هنا صورة عكسية تماما للقوالب المألوفة في الانتاج السوفياتي . فهنا لا نجد التضحية في المصنع او الجهد للانتاج الزراعي او اليقظة لحتمية التنفيذ في تعليمات القيادة في رضا النفس وقرار الضمير . بل نجد الملازم زوتوف العوبة في يد القدر وفي يد هذا الاخطبوط التي يكتنف الحياة الموجهة في ظل الحكم المطلق - عهد ستالين .

تبتدىء حوادث القصة عام ١٩٤١ فيأوج انتصار الالمان فيالجبهة الروسية . فقد وجد الملازم نفسه مسؤولا عن الامن في محطة صغيرة للسكة الحديدية في مركز يتنافى مع ماضي خدمته في الحزب وفي الجيش . فقد كان من الروس القلائل الذين شاركوا مشاركة فعلية في (الفريق الدولي) الذي حارب في اسبانيا ايام الحرب الاهلية هناك التي آل النصر فيها للجنرال فرانكو . ويبدو ان الملازم زوتوف كان من النوع الذي يلتزم بكل حواسه في اصول الالتزام لمبادىء الحزب وتعليمات الدولة وفلسفة الحياة في ظل الحكم المطلق بحيث ارهق رؤساءه في هذا الشوط البعيد الذي اختاره لنفسه في نصرة الحق والمبادىء الشيوعية ، فاعاده الرؤساء الى الجامعة لعله يتفق في اصول ادق على المبادىء والوان التصرف .

وكاكثر الاشياء في ظل الحكم المطلق وجد الملازم نفسه في مسؤولية لا تتفق مع استعداده ولا مع حماسه للخدمة القومية . ويصف المؤلف ايام الملازم في محطة السكة الحديدية وهو ينفعل اشد الانفعال حين تتزايد انباء الهزائم الروسية على جبهات الالمان فيزداد اقباله على ألفيات ماركس ولينين وستالين لعله يجد الحلول او العزاء او بعض احلام اليقظة . ويمر بالمحطة في هذه الاونة جندي مسكين ضل الطريق واخطأ في تفسير التعليمات التي اعطيت له (بل اخطأ رؤساؤه) في حركة التراجع عن الخطوط الامامية امام جحافل الالمان .

ويجري بين الجنديين حوار طويل يستذكر فيه الجندي الشاب (وهو على حد وصف الكاتب من « الكادحين ») اهله ومراتعه وافراحه واتراحه وايام السلام . وينطق المشاعر والاحساسات الانسانية الصرفة من ضمير هذا الجندي من غير ان يراعى اي اثر لفلسفة الحزب والمألوف من المسؤوليات الوطنية ومن التضحيات في جو الازمات - كأن المؤلف يشير بصورة بديهية ان جراح الجندي الروحية والجسدية هي شاهد اصيل على عمق التضحية وان لم يصاحبها هذه السفسطة العقائدية التي هيمنت على عقل الملازم (زوتوف) ومشاعره وهو غارق في الفيات ماركس ولينين وستالين .

ويخامر الملازم عزم على اعتقال الجندي بتهمة الخيانة او التجسس ويتدرج مؤلف القصة هنا في سلاسة التعبير وفي غموض الالتزام ايضا فيسبغ على الملازم بعض مزايا المنطق وكثيرا من الشعور الانساني لا تخالطه سفسطة العقيدة او حتمية الالتزام ، وتنتهي المسألة في لون من الادراك العميق لهذا السيل الجارف من الاحداث القاسية التي فرضت على المجتمع الروسي ابان ستالين من قلق وشطط كاد يطفو على طريقة المشاعر الانسانية في العلاقات البشرية بين هذين المواطنين .

اما القصة الثانية فيسردها المؤلف على لسان معلم سجين لاسباب (وقد كان المؤلف نفسه سجينا سياسيا امام ستالين) ويتساءل في مزيج من الجد والسخرية عن حاجته الماسة « لكي يتخلص من هذه القيود ويندمج في اعماق هذا القلب الروسي الكبير - اذا كان هناك حقا مثل هذا القلب . » وينتهي مطافه الى امرأة عجوز في قرية نائية .

والعجوز نشاز في مجتمعها يهزأ منها الاخرون ويتهمونها بالبلاهة لا لشيء الا لانها حريصة على ان تظل مالكة لهذا المتاع القليل من زاد الدنيا : عنزة بيضاء فيها كثير من القذارة وقطة كسيحة وقليل من الزرع ويقول الكاتب : « كنا جميعا نجاورها ونعيش معها عاجزين ان ندرك بان هذه العجوز هي جذور الواقع في كل قرية وكل مدينة بل العالم باسره.» هذه الجرأة في تفسير الملكية الفردية لون جديد في الانتاج السوفياتي ونافع ومفيد ، واخطر بكثير من « ذوبان الجليد » .

« دكتور زيفاكو » جديد ووجوه اخرى



اكزينوف

صدرت بالانكليزية طبعة خاصة لقصة روسيا قيل بانها اخرجت سرا من روسيا . واسم القصة « المحاكمة تبتدىء » واسم المؤلف ابرام تيرز - وهم اسم مستعار لكاتب شاب . وتعير الاوساط الادبية في الغرب هذه القصة بعض الاهتمام الذي صاحب نشر قصة « دكتور زيفاكو » لبسترناك .

والقصة معالجة عنيفة في سخرية لاذعة لهذا الشذوذ في اجراءات الحكم والقيادة وصميم السلوك الشخصي لاول الامر في الاتحادالسوفياتي صاغها المؤلف في اسطورة خيالية لا يستعصي على القارىء تفسير ابطالها في ظل فلسفة الحكم واجراءات السلوك في المجتمع الشيوعي .

ولعلنا نأتي على ترجمة ملخص لهذه القصة الهامة في عدد قادم .

والواقع ان هناك حركة ادبية واسعة من هذا النوع من الانتاج الادبي في الاتحاد السوفياتي ينشر في ظل السلطان ولا يحتاج الى سرية النشر في الخارج .

فهناك قصة « يوم في الحياة الجديدة » للقصصي الشاب فيدور



ايفتوشنكو   فوزينزنسكي

ابراموف وتدور في فلك الشذوذ والقيود التي تعيش عليهـــا المزارع الشيوعية في الريف الروسي ، وقصة « الذهاب الـــى المدينة وقصص اخرى » للقصص الشاب (يوري كازالوف) وهي خليط من ادب العنف كما عند هامينغواي وعمق الاقصوصة كما عند (تشيكوف) . وقصـــة (فاليري تارسيس) TARSIS (القنينة الزرقاء) وهـــي تصف جبروت السلطان الحاكم يقصف الرقاب كما لو كانت النفس البشريـــة ذبابة تعكر المزاج او تنقل الوباء .

ومن طلائع الكتاب الشباب في هذا « الانحراف الادبـــي الجريء القصصي الشاب (فازيلي اكزينوف) وقد صدرت له مؤخرا ترجمـــة انكليزية لقصة « تذكرة للنجوم » تصف هذه الثورة الاجتماعية التـــي يحمل لواءها بعض الاحداث في الاتحاد السوفياتي في تقليدهم للاحداث في الغرب ـ عربدة وصخب وكثير من حريات التصرف الجنسي فـــي قالب لا يبدو انه جزء من فلسفة ماركس او صرامة التربية الشيوعية . وينافس (اكزينوف) في هذا النوع من القصص الكاتب الروسي الشاب (فلاديمير ماكسيموف) في قصة « رجل يحيا » وقد نشرت مؤخرا فـــي ترجمة انكليزية . و (ماكسيموف) يتميز عن زملائـه بانه يعطي طابع العربدة عند الاحداث معاني سياسية تحارب القيود الثقيلة في عتيـــق القوالب السياسية والاجتماعية التي في بعض اصول السلوك الشيوعي.

الا ان كل هذه الاحداث في ثورة الروح في الادب السوفياتـــي لا تعادل هذه البلاغة الكامنة في اشعار (ايفتوشنكو) او حتـــى اشعار زميله الجديد (اندريه فوزنيزنسكي) .

الشاعرة الروسية « احمدوفا » في ديوان جديد



صوتها قديم والمجد الادبـــي موفور لها ولكن الديوان جديد وجد النور خـــارج الاتحـــاد السوفياتي ، فقد نشرته احدى دور النشر في ميونيخ (بالمانيا الغربية) مؤخرا ولـــم تصدره المطابع الروسية بعد ـ ولعلها لن تصدره . فهـــذا الديوان الصغير يفوق في باروده قصة (باسترناك) « الدكتـــور زيفاكو » ، ويفوق كذلـــك القصة البليغة « يوم في حياة ايفان دنيزوفيتس » وهي ابلغ ادانة ادبيـــة ظهرت حتى الان لظلم ستالين وبطشه .

اما الشاعرة فهي « آنا احمدوفا » اما الديوان الجديد فاقـــرب ترجمة لاسمه كلمة « رثاء » . وقد اصدرته دار النشر الالمانية بغير اذن المؤلفة . فقد تداول النسخة الاصلية من موسكو عدد مـــن اصدقـــاء الشاعرة ومن هناك تسرب دون علمها الى الناشر في المانيا الغربية .

قالت احمدوفا في المقدمة القصيرة للديوان :

« في افظع سنوات الشر ـ سنوات الثلاثين (التي بلـــغ طغيان ستالين فيها منتهاه من الارهاب) قضيت ١٧ شهرا ارابط على ابـــواب السجن في لينينغراد . ولمحني احدهم يوما فجاء يواسيني . وكانـــت تقف خلفي امراة لم تسمع باسمي من قبل ، وحين عرفت ذلك (انـــي شاعرة) استجمعت نفسها في هذا الجمود الذي استولى علينا جميعـــا وسالتني :

ـ « هل تستطيعين يوما ما ان تصفي هذا الشر ؟

ـ « قلت نعم » ساستطيع .

ومرت ابتسامة على شفتي المرأة وكانتا زرقاوين من قسوة البرد.»

والسيدة احمدوفا من مواليد عام ١٨٨٩ وكانت قد تزوجت الشاعر الروسي الكبير (كوميليف) قبل ان يعدمه البلشفيك عام ١٩١٨ وانجبت منه ولدا اعتقله بوليس ستالين عام ١٩٣٩ وبذلت الشاعرة جهد الجبابرة لاطلاق سراحه فسلموها اياه بعد سنة ونصف وهو على اخر رمق .

والواقع ان « احمدوفا » عند نقاد الادب الروسي الحديث تعتبـــر من اكثر اهل الادب جذورا في الطبع الروسي واشدهم تعبيرا عن خلقـــه القومي .

تقول الشاعرة في صفحة الاهواء تستذكر بلواها في عهد ستالين :

ما حاجتي ابـــدا لعطف سمائهـــم
او للحمايـــة فـــي ظـــلال جناحهم
فهنـــاك في خزي وجدت عشيرتـــي
ولقـــد صبرت على الاذى مع امتي .

حملة روسية جديدة على « الانحراف »

تزعم « فلاديمير سيروف » الرسام السوفياتـــي المعروف ورئيس اكادمية الفنون في موسكو حملة جديدة علـــى قوالب الفـــن والادب والموسيقى المستعارة من الغرب التي يبدو ان الفنانين الروس (او بعضهم على الاقل) لا يزال يعاند في تطعيم الادب السوفياتي بها . وفلاديمـــير سيروف يحمل عدة اوسمة رفيعة من عهد ستالين تقديرا لخدماته فـــي مجال الفن السوفياني .

وخصت الحملة بالذات نقاد الفن والموسيقى لتغاضيهم عـــن نقاط الضعف في بعض قوالب التعبير الفني الروسي المعاصر التي تنحرف عن الواقع الاشتراكي ونرى في « الجاز » وفي المدرسة الفرنسية المعاصرة للرسم مجالا للاقتباس او التقليد او مجرد الاستحسان .

وفي عدد ١٧ ديسمبر ١٩٦٣ خصصت مجلة « سوفيتيسكا كولتورا» مقالا عنيف في انتقاد معرض اميركي للرسم المكعب افتتح مؤخرا فـــي موسكو بموجب اتفاقية التبادل الثقافي . ويقول مراسل جريدة التايمس اللندنية ان المعرض الامريكي لاقى رواجا واسعا في موسكو .

الفن الاسباني في لندن

تسنى لزوار لندن في الاسابيع القليلة الماضية ان يشهدوا نخبة ممتازة من نماذج الفن الاسباني في معرضين كبيرين رتبتهما لجنة الصداقة البريطانية ـ الاسبانية . واحد المعرضين قاصر على لوحات عميد الفـــن الاسباني الكلاسيكي (جويا) . وهذه اول مرة تسمح فيها السلطـــات الاسبانية بنقل هذه التحف الفنية النادرة خارج متحف (جويا) العتيد في مدريد . وكان هذا الفنان الاسباني العظيم ابان حياته قـــد سجل عدة رسومات خالدة لبعض عظماء الارستقراطية البريطانية التي كانـــت تربطها اواصر الصداقة او القرابة مع العهد الملكي الاسباني . وقـــد اضيفت هذه الرسومات الى اللوحات التي جيء بها من مدريد .

اما المعرض الثاني فقد حوى نماذج من الفن الاسبانـــي المعاصر . وقد لاحظ نقاد الفن في امهات الصحف البريطانية ان الطابع الرئيسي لمعظم هؤلاء الفنانين الاسبان المعاصرين « عالمي » في اسلوبه ومواضيعـــه رغم الطابع الشيوعي المتعصب للعهد الاسباني الراهن . الا ان الفنـــان الاسباني اصر على الاحتفاظ بالتقليد الاسباني الكلاسيكي في حرصه على بساطة الالوان بالقياس الى صراحتها كما عند بعض المدارس الباريسية مثلا . ويبدو ان اكثر الفنانين الاسبان المعاصرين يتفادون التتلمذ علـــى عميد الفن الحديث بيكاسو ـ وهو اسباني عريق .

وفاة قطب من علماء الاثار الفرعونية

توفي في العشرين من ديسمبر (السير آلن جاردنر) احد الاقطاب الاجانب الذين تخصصوا في البحث عن الاثار الفرعونية وساهموا فـــي تصنيف التاريخ المصري القديم . وقد توفى هذا العالم البريطاني عـــن ٨٤ عاما في مسكنه المجاور لجامعة اكسفورد ، فقد ظل الى اخر ايامه

مشغولا بالتاريخ الفرعوني بحثا وتصنيفا وتدريساً .

والمعروف عن السير آلن جاردنر انه قد عشق علم الاثار منذ الحداثة وشجعه والده على ذلك ، فقد كانت العائلة مثرية مما سهل على المذكور متابعة التحصيل العلمي الى اخر مدارجه ، في اكسفورد وفي جامعة السوربون حيث كانت الدراسة الفنية عن اثار الفراعنة على مستوى رفيع احتفظ بها الفرنسيون منذ ايام نابليون وغزوته لمصر . ثم تابع السير آلن تتلمذه في التاريخ الفرعوني على اكاديمية برلين حيث كان مستوى التدريس عن الفراعنة رفيعا جدا وخصوصا في علم اللغات . وقد كانت الاكاديمية الالمانية مشغولة آنئذ في وضع معجم دقيق عن الاثار الفرعونية .

وفي عام ١٩٠٥ اصدر هذا المؤرخ البريطاني كتابا هاما عن (نقوش ميس) ثم تبعه بكتاب اخر عن الفلسفة الفرعونية في مخلفات الكهنة وحفظة الدين الفرعوني . وفي عام ١٩٢٧ اصدر كتابا اخر عن « النحو الفرعوني » ثم اعقبه بكتاب عن اوراق البردى الفرعونية عام ١٩٤١ – ١٩٤٨ . ويعتبر كتابه « مصر في عهد الفراعنة » مرجعا هاما للباحثين . وقد صدرت اخر طبعة لهذا الكتاب الهام قبل ثلاثة اعوام تقريبا .

الكنيسة الارثوذكسية ومركزية الفاتيكان

كان لانعقاد المجمع المسكوني بدعوة من البابا يوحنا الثالث والعشرين قبل وفاته في العام المنصرم اهمية كبرى في اوساط الفقه المسيحي – وخصوصا لدى الكنيسة الارثوذكسية الشرقية التي اختارت الابتعاد عن مركزية الفاتيكان في عهد الامبراطورية البيزنطية وبعد انحلالها .

وقد كان من اهداف البابا الراحل في المجمع المسكوني ان يوطد وحدة المصير والسلوك للطوائف المسيحية باسرها بما فيها الشيع البروتستانتية والطوائف الارثوذكسية بما فيها الارثوذكسية الروسية ايضا . وقد صدر مؤخرا كتاب باللغة الانكليزية لقطب الكنيسة الارثوذكسية الشرقية غبطة البطريرك ماكسيموس (الرابع) صايغ عاهل بطركية انطاكية والاسكندرية وجميع الشرق . وكتاب غبطته يحدد موقف الكنيسة الارثوذكسية من دعوة الفاتيكان للمركزية المسيحية تحت جناح البابوية والمعروف ان غبطته من اشد المدافعين عن حق الكنيسة الشريفة في ان تحتفظ بطابعها الشرقي ، سواء في استعمال اللغة العربية في الطقوس الدينية او في مختلف حريات التصرف الفقهي والاداري للطائفة الارثوذكسية في هذا التقليد العريق الذي لها في ظل المركزية الروحية للفاتيكان . والكتاب يحتوي مجموعة من البحوث والاراء لعدد من الكهنة الارثوذكس باشراف غبطة البطريرك . والمعلوم ان الآباء الارثوذكس يتمتعون بحرية الزواج الذي لا تبيحه كاثوليكية الفاتيكان .

من تراث هامينغواي

قالت زوجة الكاتب الامريكي المعروف (ارنست هامينغواي) انها

قد عثرت في مخلفات زوجها الذي توفي قبل عامين تقريبا على قصة كاملة لم تعلم من قبل بوجودها – والقصة تدور حول تجارب هامينغواي في باريس في اعقاب الحرب العالمية الاولى حيث كانت العاصمة الفرنسية مأوى ومدرسة لعدد من اقطاب الادب الامريكي المعاصر . كما عثرت زوجة هامينغواي على مجموعة من المقالات والبحوث في الادب والسياسة لزوجها . وسينشر كل هذا قريبا .

تقدير في غير موضعه ...

اعترى اوساط الحكومة الالمانية في بون حرج واستحياء شديدان عندما اكتشفت انها قد اخطأت خطأ شنيعا في اعرابها عن عميق الرثاء للكاتب الفرنسي الكبير (جاك كوكتو) الذي توفي منذ اسابيع .

فقد اسرعت بون في ارسال برقية التعزية بوفاة كوكتو في اجمل عبارات الرثاء معنونة الى :

مدام كوكتو – سانت سوسبير – كاب فرات – فرنسا .

والمعروف ان كوكتو كان من اشهر العزاب في فرنسا بل في العالم باسره . وقد تنادرت المدن الالمانية الاخرى وفي طليعتها (برلين) بهذه الهفوة الشنيعة الصادرة عن العاصمة (بون) اذ المعروف ان بون «قرية يقطنها صناع الحكم » كما قالت احدى مجلات برلين الادبية .

... وقصة مماثلة من ايطاليا

وفي مثل هذا التحليل لجو الازمات صدرت قصة ايطاليا جديدة للقصاصة مازيتي MAZITTI بعنوان : « السماء تهوي » . وحوادث القصة فيخضم الحرب العالمية الثانية حيث تحكم جو الازمات في مشاعر الاحداث من كلا الجنسين تحكما يفوق اقتناع الضمير او ظروف المصلحة التي فرضت على الكبار ان يتعايشوا مع الحكم المطلق او مع الرجعية الدينية . والجزء الاكبر من القصة تسردها طفلة في العاشرة بلغتها ومشاعرها وهواجسها وبراءتها وما اشكل عليها من تفسير لالغاز الحياة وتصرف العقلاء وانصاف العقلاء في ابان المعركة .





البرتو مورافيا يحاسب (فيردي)

اثار الكاتب الايطالي المعروف (البرتو مورافيا) معركة ادبية حامية في اوساط الادب والموسيقى الايطالية في حملة شعواء على تراث الملحن الايطالي المعروف (فيردي) على اعتبار ان ذلك التراث كان لا يعكس حقيقة المجتمع الايطالي (القرن التاسع عشر) الذي عاشره فيردي .

فقد كانت موسيقى (فيردي) علم على « حدة العواطف والرجولة والانفجار » كما قال مورافيا ، في حين أن « مجتمع القرن التاسع الايطالي كان في كل روافعه مجتمع برجوازي ، ريفي يهادن الاراء ويخضع لشتى ما تخضع له طبيعة النفس الهادئة التي لا تعبأ بغير عالمها الضيق » .

وقال مورافيا ان الطابع الصحيح في الثقافة الايطالية للقرن التاسع عشر كان ممثلا افضل تمثيل فيما عكسه ادباء امثال « مانزوني MANZONI » و (ليوباردي LEOPARDi) وكلاهما من طبقة البرجوازية وموظفي الدولة مهما ثارت اذهانهم ومشاعرهم فهي في رواسخها مقيدة بالطابع العام للحكم وللمناخ القومي الذي عاش عليه الايطاليون من تلك الحقبة . اما « فيردي » فلم يكن جذوره في تلك

الطبقة وانما في حياة المزارعين من السهل الايطالي لم تعقلهم موجات الفكر والتحرر وحقوق الانسان التي جاء بها فيكتور هيجو مثلا . فعنف التعبير الموسيقي عند (فيردي) كان في جفاف العقل الريفي وفظاظته لا سفسطة لعقل الحضري او مهارته في صحة التعبير عن موجات الحضارات وتيارات الفكر المعاصر او المرتقب له المرغوب فيه .

وقد قارن (مورافيا) انتاج (فيردي) في الموسيقى بانتاج (شيكسبير) في المسرحيات . فقال بان كليهما « ادرك » دقائق الطبع البشري وخلجات القلب وعمق التعلق بالحياة والمقدرة الفائقة كي تقمص مختلف الاشخاص والادوار في السلوك الانساني بحيث يستعص على الدارس لانتاجهما ان يرسم من بين هذه النماذج العديدة التي خلقوها في انتاجهم صورة حقيقة لترجمتهما الذاتية وتكوينهما الخلقي ».

والفرق الوحيد بين (فيردي) و (شكسبير) عند مورافيا هو ان شكسبير قد وجد الجمال في ارستقراطية التعبير ورفعة الايحاء والذوق اما (فيردي) فلم يصل الى هذا المستوى فقد ظل اجتهاده في اطار الذوق الشعبي واستملاح الجماهير له ولذا فانه عجز عن ان يسهم في ترقية الموسيقى الايطالية او تخليدها في غير المألوف من تحقيق التراث.

وكان من الطبيعي ان يتصدى لمورافيا عدد من عشاق فيردي وهم كثيرون في ايطاليا .

اصول الفن الحديث في انتاج اليابان

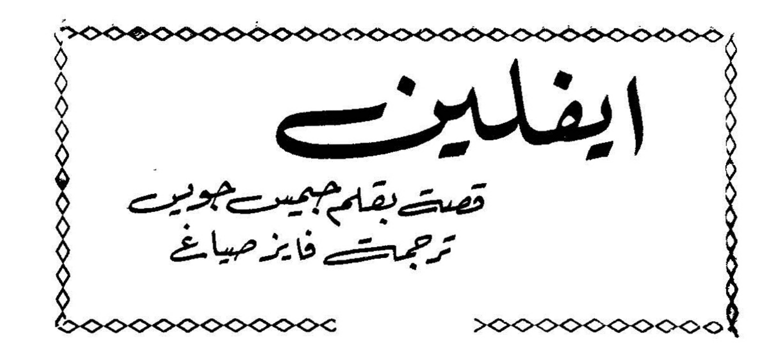
استقبلت صالة العرض الكبرى في القصر الصغير « Petit Palais » بباريس مجموعة مختارة من نماذج فن الرسم الياباني . وهذه المجموعة على ثلاثة اقسام : واحد منها يعكس المدرسة الممعنة في القدم والتي وصفها واضع الدليل الفني لمعرض باريس انها سابقة لعهد (هانيوا) HANIWA الفاصل بين الفن الياباني الذي عفى اثر وذلك الذي ابتدأ برسوخ البوذية في اليابان . وهذا القسم الاول من العرض الياباني يقتصر على تماثيل عنيفة من الفخار لابطال الخرافات والاساطير اليابانية القديمة .

ان القسم الثاني فقد خصص لنماذج النحت الفني في القرن السابع الى الثاني عشر الميلادي الذي كان طابعه بوذيا محضا . وترك للقسم الثالث من هذا المعرض (وهو يشمل الفترة الطويلة ما بين القرن الخامس عشر والقرن العشرين) لنماذج من الرسوم اليدوية (اكثرها بالحبر الاسود) طابع المدرسة الزينية (نسبة الى ZIN فهي يستأثر باكثر النماذج .

وقد استنكر بعض نقاد الفن في الصحف الفرنسية (والبريطانية ايضا) هذه الصفة الدينية والاخلاقية للمجموعة اليابانية رغم شديد اعجابهم وتقريظهم مستواها الفني الرفيع . فقد لاحظ احد النقاد مثلا ان القسم الاول من هذا العرض الياباني نقل في روعته وفي جماعه عن نماذج الخزف والنحت والتماثيل التي اكتشفت مؤخرا في جزر الباسيفيكي المجاورة لليابان وفي بعض مناطق امريكا اللاتينية (في القطاع الغربي على وجه التحديد) حيث تأكد الان ان هناك صلات ثقافة ومقاربة عنيفة بين العالم الجديد وبين جنوبي شرقي آسيا عن طريق الرحلات في المحيط الهادي .

ولاحظ ناقد اخر (بريطاني هذه المرة) ان هناك تقاربا عجيبا بين بعض نماذج القسم الثالث من العرض الياباني بباريس (رسومات الحبر الاسود) وبين عدد من مدارس الفن الاوروبي الحديث مما استدعى هذا النقاد لان يعتبر مؤسسي هذا الفن الاوروبي الحديث مقتبسين او ساطين على التراث الياباني من غير ان يعترفوا بذلك . فالنماذج اليابانية اقدم من انتاج مدرسة الفن الباريسي الحديثة سواء في انتاج (بيكاسو) او ما تفرغ عنه او سبقه مباشرة من ائمة الرسم الاوروبي .

والواقع ان اشد ما يستدعى المنعة في هذا العرض الياباني البساطة الفائقة التي تشوب طابع الاقسام الثلاثة كلها ، بائدة وقديمة ومعاصرة . مما يذكرنا بقول ابن المقفع « ان البلاغة اذا سمعها الجاهل ظن انه يحسن مثلها » .



جلست الى جانب الشباك ترقب الماء وهو يزحف الى الشارع وقد لامس رأسها ستائر الشباك التي كانت تنبعث منها رائحة القطن المغبر . كانت متعبة . ومر بضعة اشخاص . ومر الرجل الساكن في آخر الشارع متوجها الى بيته وسمعت وقع خطاه على رصيف الاسمنت، ثم قرقشتها على الممر الرمادي امام البيوت الحمراء الجديدة . في وقت ما كان ثمة ساحة اعتادوا ان يلعبوا فيها مع اولاد الجيران . ثم اشترى هذه الساحة رجل من بلفاست وبنى عليها بيوتا ، ليست كبيوتهم الصغيرة القاتمة ، بل بيوت ذات حجارة براقة وسقوف لامعة. وفي تلك الساحة كان اولاد الشارع يلعبون سوية – آل ديفيز ، وآل ووتر ، وآل دن ، وكيوت الكسيح الصغير ، وهي وأخواتها وأخواتها . لكن أرنست لم يكن يشاركهم اللعب ابدا ، فقد كان يعتبر نفسه اكبر من ان يلعب . وكان والدهم غالبا ما يتصيدهم بعصاه ذات العقد السوداء . غير ان كيوت الكسيح الصغير اعتاد ان يصيح فيهم محذرا عند قدومه . غير انهم كانوا سعداء على كل حال . ولم يكن والدها شريرا آنذاك . وفوق ذلك فقد كانت أمها على قيد الحياة . كان ذلك من زمن بعيد . اما الان فقد كبرت واخوانها واخواتها ، وتوفيت امها . وتوفي تيزي دن كذلك . وعاد آل ووتر الى انكلترا . لقد تغير كل شيء . أما هي ، فقد عقدت العزم على مغادرة البيت كما غادره الاخرون .

البيت ! وأجالت طرفها في الغرفة متفحصة كل الاشياء المألوفة التي كانت تقوم بنفض الغبار عنها كل اسبوع ولسنوات عديدة ، وهي تعجب من اين كان يأتيها الغبار . من المحتمل انها لن تمتع نظرها مرة اخرى بهذه الاشياء المألوفة التي لم يدر بخلدها انها ستفارقها ابدا . الا انها لم تستطع ، خلال هذه السنوات ، ان تعرف اسم الكاهن الظاهر في الصورة الصفراء المعلقة على الحائط فوق الارغن المكسور ، الى جانب النسخة الملونة للعهد الذي قطعته على نفسها أمام مارغريت ماري الكوك المباركة . لقد كان زميلا لوالدها ايام الدراسة . وكان والدها يقول ، دونما اكتراث ، كلما عرض تلك الصورة على زائريه :

« انه الان في ملبورن » .

لقد ارتضت الرحيل ومفارقة البيت . هل من الحكمة ان ترحل ؟ وحاولت ان تزن كل جانب من المشكلة . في بيتها سيتوفر لها المأوى والغذاء . وستكون محاطة باولئك الذين عرفتهم طيلة حياتها . بالطبع سيكون عملها شاقا سواء في البيت او في المتجر . ترى ماذا سيقولون عنها في المتجر عندما يكتشفون هربها مع حبيبها ؟ سيقولون انها مغفلة . اما مكانها الشاغر فسوف يملأونه عن طريق الاعلانات . سوف تبتهج الانسة غافان بالتأكيد . فقد كانت دوما سليطة اللسان عليها ، خاصة على مشهد من الناس .

« آنسة هيل . ألا ترين ان السيدات ما زلن ينتظرنك ؟ »

« كوني نشيطة يا آنسة هيل ، أرجوك » .

انها لن تذرف دمعة واحدة على فراق المتجر .

ستكون حالتها مختلفة جدا في بيتها الجديد ، في بلد بعيد مجهول . ستكون عندئذ قد تزوجت – هي ، ايفلين . وسيعاملها الناس بكل احترام وستلقى من التقدير ما لاقت امها . فبالرغم من انها تجاوزت التاسعة عشرة من عمرها ، فقد كانت تحس بالخطر يتهددها من جراء عنف والدها . وذلك ما كان ينغص عليها حياتها . فان أباها لم يكن يميل اليها ميله الى هاري وأرنست لانها كانت بنتا . لكنه بدأ يتهددها مؤخرا . ويقول ان ذكرى والدتها المتوفاة فقط هي التي تمنعه من عمل ما يريد . وهي الان لا تجد من يستطيع حمايتها . فقد توفي ارنست . وانتقل هاري ، الذي يشتغل في زخرفة الكنائس ، الى مكان ما في الريف . وفوق ذلك ، فانها قد بدأت تضيق ذرعا بالشجار الدائم للحصول على النقود مساء كل سبت . كانت تتنازل عن كل راتبها البالغ سبعة شلنات . كما ان هاري يرسل ما يستطيع توفيره . اما المشكلة فكانت تنحصر في كيفية الحصول على اي من تلك النقود من ابيها الذي اعتاد ان يتهمها بالتبذير والهوس، ويقول انه لن يعطيها النقود المحصلة بعرق الجبين لكي تبعثرها في الشارع . وعلى هذا المنوال كانت تنقضي ليلة السبت التي تزداد فيها طباعه شراسة . لكنه كان يمنحها اخر الامر ، بعض النقود ، ثم يسألها فيما اذا كانت تنوي ابتياع غداء يوم السبت . وعندها يصير لزاما عليها ان تنطلق الى السوق لشراء الحاجيات . حاملة حقيبتها السوداء وهي تشق طريقها وسط الزحام ، ثم تعود الى البيت اخر النهار وهي تتصبب عرقا تحت ما تحمله من مؤونة . وكان عليها ان تحافظ على البيت وتعنى بأمر الطفلين اللذين كانا تحت رعايتها ، وان ترافقهما الى المدرسة بانتظام وان تطعمهما بانتظام . كان عملها شاقا وكذلك كانت حياتها . اما الان ، وقد عزمت على مغادرة البيت ، فانها لم تكن تجده غير مرض الى هذا الحد .

كان عليها ان تخوض غمار حياة جديدة مع فرانك ، وهو انسان لطيف وطيب القلب . وستهرب معه في القارب ليلا لتكون زوجته وتعيش معه في بيونس آيرس حيث سيسكنان البيت الذي أعده لكليهما . انها تذكر جيدا تفاصيل لقائهما الاول ، كان يقطن في بيت في الشارع الرئيسي حيث كانت تقوم ببعض الزيارات . وكان من عادته ان يقف على بابه ، وقد انحسرت قبعته عن خصلة من الشعر تتناثر على وجهه البرونزي . وكان ان تعارفا بعد ذلك . وتقابلا خارج المتجر وفي البيت . واخذها مرة لمشاهدة مسرحية « البوهيمية » ، وأحست بالزهو حينما اتخذت واياه ركنا قصيا من المسرح . لقد كان مغرما بالموسيقى الى حد الجنون ، ويحب الغناء قليلا . وعرف الناس بأنهما كانا يتغازلان عندما كان يغني لها أغنية الصبية التي أحبت بحارا. وأحست دائما بارتباك لذيذ عندما كان يلقبها بالدلوعة متحببا . وفي بادىء الامر أحست بالحرج لمصاحبتها احد الشباب ، ثم ابتدأت تحب ذلك ، خاصة عندما فتاها يقص عليها الكثير من الحكايات عن البلدان النائية ، فقد شرع حياته بحارا بسيطا لمدة شهر على ظهر سفينة متوجهة الى كندا . وأخبرها بأسماء السفن التي سافر عليها ، والوظائف المختلفة التي شغلها . وقص عليها كيف أبحر عبر مضيق ماجلان . وحكى لها حكايات البنتاغونيين المرعبة ، وكيف ان رجله التوت في بيونس أيرس ، وكيف جاء بعد ذلك لقضاء العطلة في بلاده . وبالطبع ، فقد اكتشف والدها الامر ومنعها من محادثته قائلا :

« انني أعرف هؤلاء البحارة الصبيان » .

وذات يوم تشاجر والدها مع فرانك ، فتوجب عليها ان تقابل حبيبها سرا .

تكاثفت حلكة المساء في الشارع ، فلم تعد تميز ابيضاض الخطابين الراقدين في حضنها . كان أحد الخطابين لهاري ، والاخر لوالدها . لقد كان ارنست هو الحبيب الى نفسها ، لكنها أحبت هاري ايضا . ان الشيخوخة توهن اباها ، وسوف يفتقدها كثيرا . لقد كان لطيفا جدا معها في كثير من الاحيان . فمنذ زمن غير بعيد عندما أثقل عليها المرض ، قرأ لها قصة عن الاشباح ، وشرب نخب صحتها وهو واقف

الى جانب المدفأة . وفي يوم آخر ، عندما كانت امهم على قيد الحياة ، اخذهم في نزهة الى هاوت . وتذكرت كيف ارتدى قبعة والدتها ليحمل الاطفال على الضحك .

كان الوقت يمر بسرعة ، ولكنها بقيت الى جانب الشباك وقد أمالت رأسها الى الستائر وهي تستنشق رائحة هباب القطن المغبر . وأصاخت اذنيها تتسمع الى لحن صادر عن أرغن في أسفل الشارع . انها تعرف اللحن . وعجبت كيف عزف في هذه الليلة بالذات ليذكرها بالعهد الذي قطعته على نفسها امام امها بأن تعمل جهدها للمحافظة على البيت . تذكرت اخر ايام امها على فراش المرض ، وأحست بنفسها ثانية في الغرفة المعتمة المغلقة في الجانب الاخر من الصالة ، وفي الخارج كان ثمة لحن ايطالي حزين . وقد طرد عازف الارغن بعد ان منح ستة بنسات . وتذكرت كيف عاد والدها الى الغرفة وهو يقول :

« اللعنة على هؤلاء الايطاليين ! كيف وصلوا هنا ؟! »

وفي الوقت الذي كانت تفكر فيه ، كان طيف الحياة التعيسة التي عاشتها امها يهوم حولها . الحياة التي تصرمت في تضحيات بسيطة وعادية ، وانتهت بالجنون . وأخذتها الرعدة حين سمعت مرة صوت امها وهي تردد باصرار أحمق :

« انتبهي للبيت ! انتبهي للبيت ! »

نهضت وقد تملكها الرعب . الهرب ! يجب ان تهرب ! سوف ينقذها فرانك . سوف يهبها الحياة ، وربما الحب ايضا . لكنها تريد ان تحيا . لم لا تكون سعيدة ولها الحق في ذلك ؟ سوف يأخذها فرانك بين ذراعيه ، ويطويها ، ويحتضنها . انه سوف ينقذها .

وقفت في خضم الجماهير المائجة في محطة نورث هول ، وأمسك فرانك بيدها وعرفت انه كان يكلمها ، ويقول لها شيئا ما عن العبور بين الفينة والفينة . كانت المحطة تزخر بالجنود ذوي الحقائب البنية. ومن خلال أبواب مظلات المحطة الواسعة لمحت الزورق بجرمه الضخم مشدودا الى حائط الميناء وقد اضيئت نوافذه . ولم تنبس ببنت شفة، لكنها أحست بالشحوب والبرودة يسريان الى خديها ، وتضرعت الى الله ، في غمرة عذابها ، ان يسدد خطاها وان يرشدها الى ما يتوجب عليها عمله . وأطلق الزورق صفرة طويلة كئيبة اخترقت الضباب الكثيف . اذا ذهبت ، فستكون غدا ، هي وفرانك ، يمخران البحر في طريقهما الى بيونس ايرس ، فقد حجز فرانك مكانا لكليهما . ترى ، هل تستطيع التراجع بعد كل ما فعله من اجلها ؟ وأحست بعذابها ينقلب الى غثيان يمور في روحها ، لكنها استمرت تحرك شفتيها في صلاة محمومة .

وقرع جرس كما لو كان قد قرع على قلبها ، وأحست به يمسك بيدها .

« تعالي ! » .

شعرت بقلبها يتخبط في جميع ما في الارض من بحور . لقد كان فرانك يدفعها ، يريد ان يغرقها . وشدت بكلتا يديها على السياج الحديدي .

« تعالي ! » .

كلا ! كلا ! كلا ! مستحيل . وتشبثت بالحديد بجنون ، وانطلقت من حنجرتها صرخة معذبة .

« ايفلين ! ايفي ! »

واندفع اليها عبر السياج وهو يهتف لها ان تتبعه . لكن بعض الاصوات تعالت آمرة اياها بالعودة . اما هي فقد أدارت اليه وجها أبيض لا حياة فيه ، كحيوان صغير عاجز . ورمته بنظرة لا تحمل اي معنى من معاني الحب ، او الوداع او المعرفة .

فايز صياغ

قرأت العدد الماضي من الاداب

- تتمة المنشور على الصفحة ١٦ -

ان القصيدة تعرض صورة ذاتية عن واقع الحياة كما يراه الشاعر. وهو واقع يفترس الانسان ويفرغ الافكار من مضموناتها والعواطف من انسانيتها . وبالرغم من ان المقاطع مترابطة في مضمونها العميق ، فان المقطع الثاني يشذ بروحه التأملية عن المقاطع الاربعة الباقية التي يبني الشاعر كلا منها على حادثة .

كما ان موسيقى القصيدة تحمل ذلك التسلسل بين الصور ، والاسلوب مطاوع للمشهد الى حد ما ، فهو حين يصور الذعر مثلا يسقط حروف العطف من بين الافعال ليجعل الحوادث أقوى وأسرع في تتاليها :

وتململت .. تراجعت .. فقد ..

ان هذه القصيدة ثورة ، لان مجرد تصوير الواقع بهذا الشكل القاسي المدمر ، يدفع الانسان الى التمرد على الشروط التي تشوه حياته وتجوفها .

ان نجاح هذه القصيدة في تصوير الواقع ، وفشل القصيدة السابقة في تصوير عالم مثالي ، يطرح قضية تستحق البحث لمن يتتبعون حركة الفكر العربي : ان هذا الفكر - كما يبدو - استطاع ان يبصر واقعه لكنه عاجز حتى الان عن اختيار طريق المستقبل ورسم صورة واضحة عنه . نجد هذا بينا في شعر السياب خاصة ، اذا قارنا صوره الواقعية بالصور الفردية التي نظهر في تخيلات نازك الملائكة عن اليوتوبيا .

غير ان في القصيدة صورا مقحمة او عاجزة عن ان تحمل المعنى الذي يريد ان يوحي به الشاعر :

غرفني تستقبل الشمس عجوزا سلخت تسعين عام
نفضت ايامها لم تحتقب في صدرها الا الاوام

فلا اظن ان الصور والتعابير في هذين البيتين على مستوى الجودة التي تتجلى في الصور الباقية . كما ان التعبير اجمالا يتصف بطابع السهولة العامية :

فهبطت السلم المفضي الى قلب المدينة

وان كان اسلوب السرد القصصي الذي يغلب على القصيدة يجعل هذه السهولة مستساغة في اكثر الاحيان .

ولا ادري ان كنت محقا في ان اطالب الشعر بأن يملك على الدوام لغته الخاصة !

طفلة القمر

وهذه القصيدة واقعية ايضا ، بل هي دعوة الى تجاوز الواقع عن طريق مناقشة القيم التي تسوده ، وهي التي جسدتها الامثال الشعبية التي تحض على اكتساب السلامة بالبعد عن السلطة والانعزال عنها : « السلطان من لا يعرف السلطان » و « الصبر مفتاح الفرج » . وغير ذلك من الامثال التي تدفع المواطن الى الانعزال والفرجة . وهو ينعي على قومه ايمانهم بهذه المبادىء الانهزامية التي تجعل من استكانتهم ذلا ومن صمتهم سببا لامعان الظالم في ظلمه والمستبد في استبداده .. بينما يستسلم افراد الشعب للخدر والتخاذل . ان الرمز في « طفلة القمر » غير موضح من خلال القصيدة ولعل الشاعر يقصد به الحرية التي تحتاج الى التضحية :

ومهرها هو الدماء
وصرخة الاباء ..

وان غموض ما يبشر به الشاعر يمس شاعريته ويفقده حرارة الدعوة وصلابة الواقع في وقت واحد . ان القصيدة السابقة « كومة من زجاج » مثال على ان الشاعر يجب ان يعرف ما يقول ، قبل ان يسلط شاعريته على شيء مبهم .

تذكار عودة

منذ زمان طويل أقرأ للشاعر حسن فتح الباب ولا اجد في شعره ما يمس القلب او يطرف الفكر ، وانني اذ أعجب من مثابرته على قرض الشعر ، أتساءل دائما : ماذا يريد ان يعطي ؟

والقصيدة التي بين يدي الان دليل على الرغبة المجردة عن كل هدف ، في نظم الشعر . فالملاح « يبحر في زورقه كل نهار » و « يقتحم العاصفة بصدر عار ، الا من نبضات الحب » وهو يصارع الانواء لكنه لا يهوي في القاع . ويعود الملاح كل مساء « مكسور القلب » ومع ذلك فانه يفرح بالسلامة و « يرثي للعشاق » . وفي هذا المقطع يعود الشاعر لذكر مقاومته للانواء دون مبرر فني .

في المقطع الثالث يكرر الشاعر وصف العودة التي تحدث عنها في المقطع الثاني . ويذكر ان الملاح يروي قصة عصفورين « ضلا في العاصفة الهوجاء » .

انني لا أرى مبررا لنظم هذه القصيدة ولا لنشرها لانها فاقدة للشكل والمضمون معا . كما انها مهتزة متخلخلة العناصر ، اذا كان ما رويناه هو العناصر حقا .

سياط الغربة

هذه قصيدة اخرى تتحدث عن المدينة ، وثقلها على قلب الشاعر .. لكن حديثه لا يشبه في شيء حديث الشاعر الاسكندراني ، فهو ليس حديث تعرية ، ولا حديث تحليل ، بل سرد لانطباعات تصور خوف الفلاح من المدينة ، وخوف الشاب من الحياة وخوف الطالب الفقير من البنت المترفة المنعمة ... والقصيدة بعد كل هذا ليست اكثر من انطباعات فجة نظمت بشعر فج ولغة فجة .. انها مذكرات مرة لا تطل على شيء من انسانية ولا من فكر . وقد وقفت طويلا عند تعبيرات فيها أخطاء لغوية :

كيف نبلوه أعاصير الدخان

فانا أقر بعجزي عن فهمه ، اذا تجاوزنا عن الضمير وكيف سبق الاسم الذي يعود اليه في قوله :

عرفته ... عجزنا المنهوك عن فنجان قهوة

على فرض ان الشاعر يقلد في الخطأ أسلافه من المعاصرين ، كما في قول القباني :

مزقيها .. كتبي الفارغة الجوفاء ان تستلميها

والقصيدة عدا ذلك تسجيل حرفي لما يمر مع شاب جامعي خالي الوفاض والفؤاد من حوادث : يغازل فتاة فتشتمه ، يلقي فكاهات فاشلة فلا يضحك منها احد ، يشتهي صداقة فتاة لكنها تولي عنه هاربة من مظهره غير الانيق ، ويمضي بعد ذلك يتسكع حاقدا :

مثل طفل لفه الاعصار في قلب المدينه
تركته امه عمدا وغابت كالخيال
تركته يملأ الدمع عيونه
حائرا ، والناس عمي لا يرونه

فهل الذنب ذنبي او ذنب القراء اذا كان الشاعر مسحوقا تحت كل هذا الحنين والوحشة ؟ وهل يجوز ان يقيم الدنيا ويقعدها طالب جامعي لم ينجح في اقناع فتاة بأن تسير معه او تكون له ؟ وهل هذا سبب كاف لان يواجه الحياة بمثل هذا الخور العاطفي ؟ او يقول عن المدينة :

هذه الصحراء لن ترحم خصما وسط ساحه
نذرها في ان يلاقي مصرعه
طائر يبغي سموا دون ان يلقي جناحه

ان موهبة هذا الشاعر ظاهرة ، غير انه لا يتقن فن الشعر . ولا ادري اذا كان هذا يعود الى ضحالة اغواره الشعرية مما يجعله عاجزا عن تمثل التجربة ، او الى ضحالة ثقافته مما يجعله عاجزا عن بلورة التجربة وتعميق زوايا النظر اليها بدلا عن تسجيلها بهذا الشكل المباشر الذي لا يمتاز عن الحديث العدي الا بالوزن والقافية والصدق. ان القصيدة تلمس اوتار النفس بصدقها وعفويتها ، لكنه الصدق العاطفي وليس الصدق الفني ، لان الاداء في الاصل يعتمد على النجوى مع صديق فاتخذ لهجة الحديث بدل ان يركز على الحالة الشعرية .

النهر

هذه قصيدة مائية اذا صحت الصفة ، فقد استطاع الشاعر حسيب الشيخ جعفر ان يعطينا تصورات مجسمة فيها رجرجات الماء وصفاؤه البلوري وانعكاسات كله على صور الاشياء واعادة تشكيلها ، لذلك جاءت الصور سريعة الفرار ملونة بالزرقة والرماد والانعكاسات السريعة الافول . انها قصيدة وصفية جميلة .

***

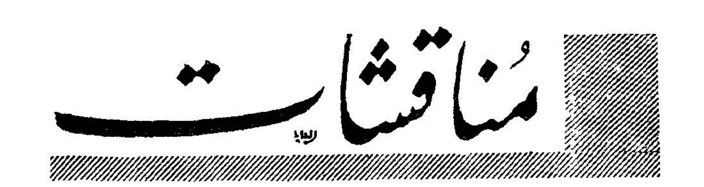
والان ما هو حصاد الشعور من هذا الشعر ؟ انه حصاد لا غناء فيه .. ان الشعر العربي بعد السويس ١٩٥٦ والوحدة في ١٩٥٨ فقد انطلاقاته الخلاقة .. فقد الزخم والعزم ، ولم يعد ينبثق من اغوار الامة ولا من حساسيتها ولا من رغبتها في البقاء . وهذا يدل على ان شعراءنا ليسوا طليعيين اولا، وليس في ذهنهم صورة عن عالم الغد ثانيا ، وانهم ـ ثالثا ـ فاقدو الاتصال بالحياة ، وهذا يدل على انه لا موهبتهم ولا ثقافتهم تؤهلانهم لحمل الالقاب التي تضفيها عليهم الاوساط الثقافية . اذ ان تبعيتهم للحوادث تجعل منهم افرادا عاديين، مع ان المثقف الحق دائب في اعمال فكره وحث شعوره على تجاوز الشروط التي يعيش فيها .. فاذا ظل خاضعا لها ، مقيدا بها ، دل بذلك على فشل تجربته الثقافية .

انني لا ارمي الى شن حملة بقدر ما أهدف الى اثارة مشكلة والدعوة الى تكاتف المثقفين على معالجتها . فقد عوتب الدكتور سهيل ادريس مرارا على انخفاض مستوى بعض اعداد مجلته ، فكان رده دائما : ان مستوى « الاداب » مرتبط بمستوى كتابها . ولكن ألا يصح لنا ان نتساءل : وبماذا يرتبط مستوى الكتاب ؟ ولكي اكون واضحا ، أود ان اشير الى انني لا أعني بكلمة « المستوى » أي مضمون أكاديمي، بل اشير بها الى الطاقة الابداعية التي تجعل انتاج اديب ما ، يتألق بحرارة الايمان وحماسة الاندفاع نحو المصير ، في حين ان الانتاج الحالي في معظمه يجر بعضه رقاب بعض ، وتلي الفكرة سابقتها بصعوبة وتكلف ، حتى عند الاسماء التي رسخت في عالم الادب الحديث . وتكون النتيجة ان تأتي القصة او المقطوعة باردة باهتة متكلفة بدرجات متفاوتة ، ليشعر القارىء بأنه يملك جلودا ، اكثر مما يشعر انه يتغذى من النص قيما انسانية ، وتفتحا على الحياة ، وحسا ببداية حضارة عربية .

قد يكون لتوالي الاحداث الداخلية والعربية دور في نفوس الادباء ، ولكنه دور هدام ، دور اماتة وافقاد أيمان .. فهل نفوس الادباء من الرخاوة الى حد الانصياع للحوادث العابرة واهمال الهدف المصيري ؟

انني أسأل . أسأل وأرتقب الجواب .

دمشق محيي الدين صبحي



حول : مشكلتان في عروض الشعر الحر

بقلم محمود العارف

تقسم الشاعرة الكبيرة نازك الملائكة البحور الشعرية الى نوعين : بحور صافية ، وهي التي ينتظم فيها تكرار التفعيلة الواحدة ، مثل الكامل ، والرجز ، والرمل ، والمتقارب . وبحور ممزوجة ، وهي التي فيها اكثر من تفعيلة واحدة ، مثل الوافر والسريع . في حين هي تجد ان الطويل ، والمديد ، والبسيط ، والمنسرح ، لا تصلح للشعر الحر ، لان فيها تفعيلات متنوعة ..

وحينما تدرس الشكل العروضي للشعر الحر ، تلاحظ ان من الشعراء اليوم من نظم في تشكيلات خماسية ، وتساعية ، اي استعمل خمس تفعيلات او تسعا في البيت الواحد ، او شطره . الا انها ايضا تستقبح هذا الاستعمال لها ..

وفي الحقيقة ان دراسة نازك الملائكة ، كما لاحظ عدد من النقاد والدارسين تقوم على تفحص الشعر الحر المستحدث اليوم ، كما تقوم ايضا على اساس من علم العروض العربي ، والمتوارث عن الخليل ، والذي التزمته في جملته ..

هذه المقدمات في اتجاه دراسة نازك الملائكة في كتابها ـ قضايا الشعر المعاصر ـ نقررها هنا ، لنصل الى الموضوع العروضي ، النقدي الذي اثاره الاستاذ عبد الجبار عباس ، حول : التشكيلات الخماسية والتساعية . لقد رأى ان هذه التسمية لها غير موفقة ، واقترح ان تطرح المشكلة على اساس تفعيلات زوجية ، او فردية ، كما هو ينعتها .. وان رأي الدكتور عز الدين اسماعيل في جواز استعمال اي عدد من التفعيلات في جميع البحور ، في نظره ، مجانب للصواب .. قال : « واذن ، فهذه المشكلة ينبغي ان تطرح على انها مشكلة تفعيلات زوجية ، او فردية ، لا على انها مشكلة تشكيلات خماسية ، او تساعية . وقد اتضح من النماذج خطأ موقف نازك حين انكرت على الشعراء استخدام هاتين التشكيلتين عموما . كما ان رأي الدكتور عز الدين اسماعيل القائل بجواز استعمال اي عدد من التفعيلات في جميع البحور مجانب للصواب هو الاخر . ولا شك ان الاكثار من امثلة الشعر الحر في البحور الستة سيرسخ هذا الفارق ، ويصوب حكمنا » . (الاداب ، العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٦٣ ، ص ٣٣ . وهو يقصد بالبحور الستة ، الكامل ، والرجز ، والرمل ، والمتقارب ، والخبب ، والمتدارك ، وهي من البحور الصافية ، ص ٣٢) .

وفي نظري ، ان مصطلح نازك الملائكة دقيق ، وصائب ، وموفق . واني اؤثره على ما اقترحه عبد الجبار عباس من مصطلح ، لانه بالفعل يقوم على تقرير وقائع عروضية ، شعرية ، في متناول الحس العروضي ، والموسيقي على السواء ، والذوق الادبي ، الشعري ..

اما تحليل عبد الجبار عباس للتفعيلات وتقسيمها الى زوجية ، وفردية ، فبعيد عن الصواب ، ويعتمد على التخمين ، والافتراض ، والذوق التغريبي .. يقول عبد الجبار عباس : « ان الوحدة الموسيقية في كل من الكامل ، والرجز ، والرمل ، تتكون من مقطعين « متفاعلن : متفا ـ علن » ، « مستفعلن : مستف ـ علن » ، « فاعلاتن : فاعلا ـ تن » بينما نجد ان الوحدة الموسيقية في كل من المتقارب ، والخبب ، والمتدارك لا تتكون من مقطعين . وينبغي على هذا جواز تكرار التفعيلة في الكامل ، والوافر ، والرجز الى اي عدد يقبله الذوق ويتطلبه المعنى بغض النظر عن كون العدد زوجيا او فرديا .. الخ .. » (ص ٣٢) .

فمعروف في علم العروض ان اساس الوحدة الايقاعية في الشعر هي الاحرف الملفوظة ، من متحركة او ساكنة . وأحرف الميزان التي تتركب منها اجزاء البحور عشرة ، يجمعها قولنا ـ لمعت سيوفنا ـ ، والتي تتكون منها التفعيلات المختلفة ، مفاعيلن ، متفاعلن ، مستفعلن ، فاعلن ، والى ما هنالك منها ..

ومعروف فيه ان الشعر تقوم ابياته بالاسباب ، والاوتاد ، والفواصل . اي ان اجزاء الكلام فيها اذا درست حروفها المتحركة ، والساكنة أرجعت الى « سبب خفيف » وهو متحرك بعد ساكن ، و « سبب ثقيل » وهو متحرك بعد متحرك ، و « وتد مجموع » وهو متحركان ثالثهما ساكن ، و « وتد مفروق » وهو متحركان بينهما ساكن ، و « فاصلة صغرى » هي ثلاثة متحركات رابعها ساكن ، و « فاصلة كبرى » هي اربعة متحركات خامسها ساكن ..

والى هذه الاحرف ، وحركاتها ، السبب ، والوتد ، والفاصلة ، أرجع العرب وزن الشعر ، ووزن الموسيقى ايضا .. وقد اظهر الناقد عدنان بن ذريل في نقده كتاب ـ قضايا الشعر المعاصر ـ ان قواعد العروض مثل قواعد الغناء ، والتلحين اعتمدت ، في الاساس ، على رد اجزاء الكلام ، او الالحان الى المقطع ، وهو الحرف المتحرك ، ثم السبب ، فالوتد ، فالفاصلة . كما اورد نص الفارابي في النقرات ، والايقاع الغنائي : « النقرة التي تعقبها وقفة يسميها العرب « النقرة الساكنة » ، والتي لا تعقبها وقفة ، ولكن تعقبها حركة الى نغمة اخرى يسمونها « النقرة المتحركة » .. والايقاع الغنائي .. فيه الازمنة المتساوية ، ويسمى ايقاعها ب « الموصَّل » ، وازمنة غير متساوية ، ويسمى ايقاعها ب «المفصل» . » (عن الموسيقي الكبير للفارابي ـ الاداب ، العدد ٨ اب ١٩٦٣ ، ص ٦١) .

وقد نقلت هذه النعوت للايقاع الموسيقي الى الشعر ، ولاحظ الفارابي ايضا . « ان الشعر العربي ليس فيه ايقاع موصل ابدا » ويشرح الناقد عدنان بن ذريل ذلك فيقول : « اي انه يقوم على اساس مقاطع غير متساوية ، يوضحها السبب ، والوتد ، والفاصلة » .

والذي اعرفه ان مصطلح ـ مقطع ـ اليوم يقصد المتحرك الذي يعقبه ساكن ، ويقابل مصطلح Syllabe عند الغربيين ، ولذلك ينعتون شعر الغربيين بانه شعر مقطعي Syllabique يقوم على اساس الارجل المتساوية .. الا ان الشعر العربي ، والموسيقى العربية اعتبرا المقطع حرفا متحركا ، مثل « ت » ، او متحركا بعده ساكن مثل « تن » ، وهو السبب الخفيف ، والمقطعين المتحركين يؤلفان السبب الثقيل مثل « ت ت : يد » ، ويصح ان يطلق على الوتد في اخر البيت ، مثل « علن » او « فاع » ، خاصة ان الساكن العين في « متفاعلان ، او مستفعلان » وغيرهما .. وهي مسألة اعرضها ، وأترك للنقاد ، والدارسين ان يدليا فيها بآرائهم ..

والشعر العربي لا يقوم على المقاطع المتساوية ، وانما على الاسباب ، والاوتاد ، والفواصل . وقد اكد الناقد عدنان بن ذريل ذلك بقوله : « اذن الشعر العربي ليس مقطعيا ، والمقاطع ، فيه ، والاسباب ، والاوتاد ، والفواصل غير متساوية ، وايقاعها ليس موصلا ، بل مفصلا » (ص ٦١) .

والقول اذن ان الوحدة الموسيقية في كل من الكامل والرجز تتكون من مقطعين « متفاعلن : متفا ـ علن » ، « مستفعلن : مستف ـ علن » ، « فاعلاتن : فاعلا ـ تن » ، قول جائر بعيد عن الصواب .. ذلك ان « متفا » ليست مقطعا ، وكذلك « مستف » ، او « فاعلا » ليستا بالمقاطع .. والصحيح ان المتحرك وحده ، او المتحرك والساكن بعده يكونان مقطعا ، مثل م ، ت ، فا ، مس ، تف ، ع ، لا .. الخ ..

هل صحيح ان الوحدة الموسيقية في المتقارب ، والخبب ، والمتدارك ، لا تتكون من مقطعين ؟ وهل صحيح ان « فعولن » ، او « فعلن » ، او

« فاعلن » لا تتكون من مقطعين ، وانما هي على حد زعم عبد الجبار عباس فردية ؟.. ابدا !.. وانما هي ايضا تتكون من مقطعين ، بل عدة مقاطع ..

ومن هنا اجد ان مصطلح نازك الملائكة جيد ، وموفق ، في التشكيلات الخماسية ، والتساعية ، لانه يظل مع التفعيلة نفسها ، في حين تخمين عبد الجبار عباس ، في المقاطع غير وارد ، لا قديما ، ولا حديثا .. واكرر هنا ملاحظة الناقد عدنان بن ذريل بضرورة دراسة القيم الموسيقية للشعر العربي عامة ، والشعر الحر ، خاصة ، دراسة أوفى ، وأوسع ، بعيدة عن التحزب ، او الهوى .. وآنئذ نرى ان الاساس سيكون المقطع ، المتحرك ، او الساكن ، او الاسباب ، والاوتاد ، والفواصل ، وانه بالفعل ، لا يكفي تفحص التفعيلة ، في وحدتها ، او اوضاعها المختلفة في البيت ..

آنئذ يمكن ان نعيد النظر في كثير من الاحكام على البحور العربية ، خاصة التي تستعمل اليوم في الشعر الحر ، من صافية ، او ممزوجة ، او منوعة . وآنئذ ، بدون شك ، نقف على افق جديد ، وخصب من الايقاعات الشعرية التي تفسر جمال بحورنا العربية الجميلة ، الطويل ، والبسيط ، والكامل ، والرمل ، والرجز ، والمتقارب كافة ..

لقد كان الايقاع الموسيقي ، الغنائي ، العربي يقاس باللسان ، اي بالاحرف ، ويكتب على نحو ما يكتب اجزاء العروض . ثم اتجه فيها الى تسجيل الدسات ، والتكات ، والاسات .. في حين ظل الايقاع الشعري ، وسيظل يعتمد اجزاء التفعيلات . وسنظل نجده خصبا ، ثرا ، غنيا بالقيم ، غير متساو في مقاطعه ، واجزائه ..

يقول الكندي : « الايقاع فصل زمان الصوت بفواصل متناسبة متشابهة » . ويقول الفارابي : « الايقاع هو النقلة على النغم في ازمنة محدودة المقادير والنسب » . ويقول ابن سينا : « الايقاع تقدير لزمان النقرات » . ويقول الخوارزمي : « الايقاع في الموسيقى هي تلك النقرات التي تتالى من خفيف ، وثقيل مصاحبة للنغم » . ويقول ميخائيل الله ويردى : « التوزين تعادل اجزاء الكلام او الاصوات ، وتساوي مقاديرها الزمنية ، واما الايقاع فهو توازنها مع تنسيقها ، لتقابل بعضها تفصيلا » .

وقد كان البغداديون يوافقون بين الايقاعين الشعري ، والغنائي ، ونقل زرياب طريقتهم تلك الى الاندلس . وقد قال الجاحظ : « ان العرب يمتاز غناؤها بانها تقطع الالحان الموزونة على الاشعار الموزونة والعجم تمطط الالفاظ فتقبض وتبسط حتى تدخل في وزن اللحن فتضع موزونا على غير موزون » علاوة على ان اخوان الصفاء كانوا يجزمون ان قوانين الموسيقى مماثلة لقوانين العروض ..

ومن الفوارق التي اظهرها ميخائيل الله ويردي بين الميزان الشعري ، والميزان الموسيقي :

١ – ان الميزان الشعري يتالف من نقرات مفردة ، اي حرف متحرك ، ومزدوجة ، اي سبب خفيف ، ومثلثة اي متحرك وساكنين.. بينما في الميزان الموسيقي يمكن ان تكون النقرات ايضا مربعة ، ومخمسة ..

٢ – ان النقرة المثلثة « لان » اي المتحرك فساكنان ، لا ترد في الميزان الشعري الا في الاعاريض ، والضروب ، بينما ترد الوحدات المثلثة ، والمربعة في الميزان الموسيقي دون تحديد مكان : «لان مفتعلان» .

٣ – يتوجب على الشاعر في الميزان الشعري ان يملأ الوحدة المفردة بحرف متحرك ، والمزدوجة ، بمتحرك ثم ساكن ، والمثلثة ، بمتحرك ثم ساكنين : « ت ، تن ، تان » ، في حين العبرة في الميزان الموسيقي بنبرات الصوت لا اكثر ، فيمكن مد الحرف على اكثر من وحدة زمنية في التلحين ..

وتلك اشارات الى قيم « الوزن » و « الايقاع » في عروضنا ، وموسيقانا القديمين ، والحديثين على السواء ، توضح لنا ضرورة العمل على الاستفادة من خبرتنا العربية القديمة ، والحديثة في المجالين المتساندين « الايقاع الشعري » و « الايقاع الغنائي » ، فنكون بذلك سلمنا من الاحكام القبلية ، وقربنا دراساتنا اكثر ، فاكثر من العلم والصواب ، والمنطق ..

جامعة دمشق

محمود العارف

الادب الافريقي... مرة اخرى

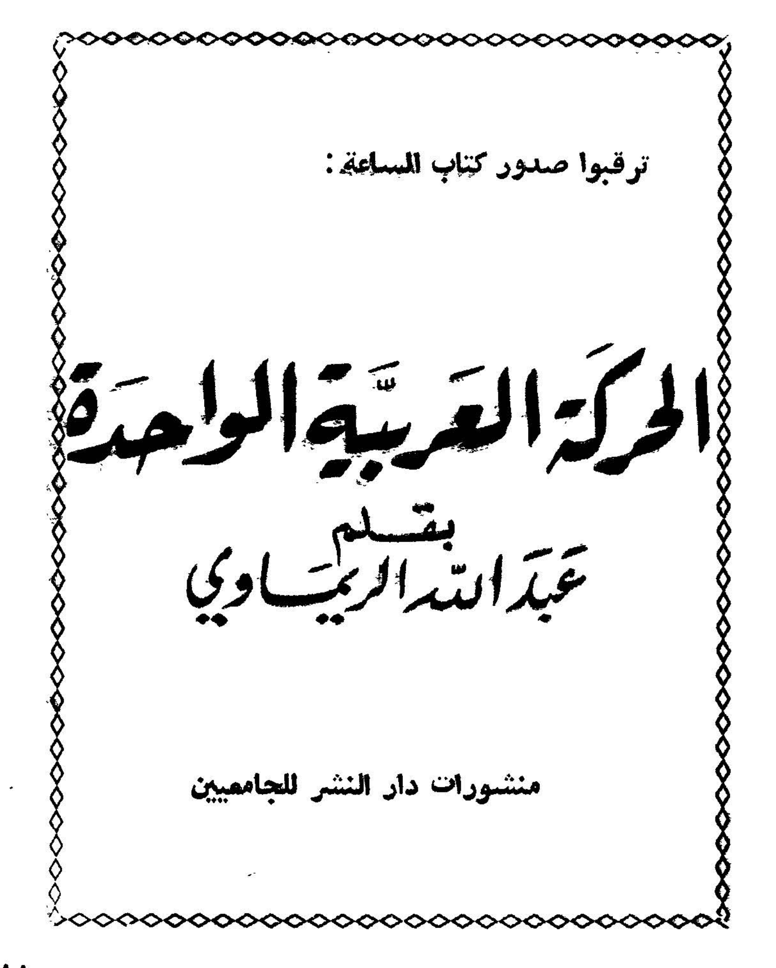
بقلم محمد كامل القليوبي

فوجئت بالرد الذي كتبه السيد علي شلش في العدد الماضي من « الاداب » ردا على النقد الذي كتبته في عدد نوفمبر (تشرين الثاني) عن كتابه « من الادب الافريقي » ... وعندما اقول انني فوجئت فانني لا انفي عن السيد شلش حق الدفاع عن كتابه ... ولكن عنصر المفاجأة يكمن في الطريقة التي كتب بها الرد . اذ ان المقال عموما يبعد عن المناقشة الموضوعية بعدا كبيرا ويصل في بعض الاحيان الى حد التجريح الشخصي ومحاولة التشكيك فيما كتبته ودوافعه . ولذلك ابادر بوضع بعض الحقائق كثيرة ملأ بها الكاتب مقاله وتصحيحا لبعض المعلومات الخاطئة التي كتبت في هذا المقال والتي ارى من واجبي ان الفت نظر القراء اليها ...

يبدأ الكاتب مقاله بالحديث عن استخفاف كتاب اليوم وتسرعهم وعدم دقتهم في استخدام اللفظ واقرار الحكم ثم يعمد الكاتب بعد ذلك الى تقسيم اجد نفسي في حيرة من امري تجاهه . اذ ان الكاتب وبمنتهى الاستخفاف وعدم تحمل مسؤولية الكلمة يقسم الكتّاب الذين يكتبون عن الكتب وينقدونها الى ثلاث فئات اما مجاملين منافقين او مدفوعين من قبل اشخاص اخرين او راغبين في الشهرة والقدرة على الانشاء والتدبيج ... ثم يتنازل الكاتب ويتفضل بوضعي في الفئة الثالثة بعد ان يقرر بانني لم اهاجمه تحت تاثير معين ويكتب ملحوظة يقول فيها : « كما ازعم دفعا لسوء الظن به » . واريد ان اقول للكاتب الفاضل بانني لم اهاجمه ولا تعنيني مهاجمته في شيء

واذا كا نالكاتب يسمي اي رأي في الافكار الخاطئة التي اوردها كتابه هجوما شخصيا فليسمح لي اذن ان اسأله ماذا نسمي هذا الكلام الذي كتبته في محاولة للتجريح الشخصي بي بعيدا عن اي كلام موضوعي سليم ؟.. لن اقول ما اسميه انا شخصيا لانني ارغب في ان ارتفع بهذه المناقشة عن هذا المستوى الى مستوى جدي وموضوعي... ولكنني اريد ان اهمس في اذن الكاتب بشيء وهو انني اذا كنت قد كتبت هذا الكلام اجتلابا لشهرة كما تزعم لاخترت كتابا مشهورا احدث ضجة ما لكاتب مشهور ولم أختر هذا الكتاب الذي كان متواريا في زحمة الكتب لاناقشه والفت النظر اليه وانا معتقد تماما ان مجرد التفكير في اصدار كتاب عن الادب الافريقي خطوة جيدة مهما كانت قيمة هذا الكتاب وذلك لندرة الكتب التي ظهرت عن هذا الادب في وطننا العربي ... هناك يا سيد شبلش كتاب يكتبون ما يؤمنون به وهم يكتبون افكارهم الخاصة التي كونوها بانفسهم بعيدا عن اي مؤثرات خارجية او دوافع شخصية ولا يفكرون هذا التفكير الساذج في ذلك التقسيم الذي تحاول ان ترمي به باب نقد الكتب في المجلة بالكذب او النفاق او اجتلاب الشهرة ...

وبعد هذه المقدمة التي استهل بها الكاتب مقاله ينتقل الى مناقشة تعبير Negro Writers فيثور على هذا التعبير قائلا انه تعبير قاصر يدفع في النهاية الى تقسيم عنصري للادب فيكون هناك ادب زنجي وادب آري وادب سامي على اختلاف تقسيمات الاجناس البشرية . ويبدو ان الكاتب لم يفهم كلامي للاسف وهو في كلمته تلك يحاول ان يحملني مسؤولية تفكيره الخاص في اشياء لم اقصدها فانا لم ادافع عن اي تقسيم عنصري للادب وانما دافعت عن تسميات معينة لها دلالات خاصة بالنسبة للنقاد والدارسين فليس هناك ادب افريقي له سمة واحدة وخصائص مميزة ولكن هناك آداب افريقية عربية وزنجية ومغربية ... على حسب الشعوب الموجودة وهذا راجع الى اختلافات كثيرة وشاسعة بالنسبة الى البيئة والمناخ



والظروف الاجتماعية . وينسى الكاتب او يتناسى ان السودان بلد عربي ويعجب بالقياس على منطقي الذي شرحت به تعبير Negro Writers من انهم لا يكتبون ادبا زنجيا واغلب الظن ان الكاتب يعني شمال السودان فقط لا جنوبه الذي يوجد فيه هذا الادب فعلا ولا شك في ان الكاتب يعلم ان جنوب السودان منفصل عن شمالها بدرجة كبيرة وان الظروف الحضارية في شمال السودان علاوة على عوامل بيئية كثيرة تتغلب على مسألة اللون ... هذا مع وضعنا في الاعتبار ان السودان بلد عربي قبل اي شيء وليس معنى ان العربية والاسلام ينتشران الان في مناطق كثيرة من القارة ان هذه المناطق اصبحت عربية تماما ... ان الكاتب يدعو الى تقسيم مكاني للادب ولكنه يناقض نفسه في نفس الوقت ، وليسمح لي بسؤال : لماذا اخترت اذن ادب الزنوج فقط ولم تتحدث عن الادب في مصر والمغرب مثلا مع ان عنوان كتابك وموضوعه هو الادب الافريقي اي ادب القارة كلها كما تقول ؟!! كنت ارجو ان يتخذ الكاتب موقفا واضحا في حديثه حتى لا يقع في مثل ما وقع فيه من تضارب وأخطاء ... وحسبنا ان نعرف ان الزنوج في جميع انحاء العالم يعتبرون انفسهم ابناء القارة الافريقية ويضعون لونهم رمزا للحياة والجمال ، كما اننا نستطيع ان نلمح كثيرا من السمات والخصائص المتقاربة في اشعار الكتاب الزنوج في اوروبا وامريكا وفي جنوب القارة الافريقية وفي ادابهم التي تكاد ان تحمل سمات واحدة تميزها عن مختلف الاداب الاخرى الموجودة في بقية اجزاء القارة ...

وينتقل الكاتب بعد ذلك الى الحديث عن النماذج فيستنكر نقدي لاختيار اغنية « ضفينة » ويقول انها تشتمل – اي الاغنية – على مأساة السيطرة ويتجاهل تفكيرا غريبا في هذه الاغنية وهو رفض الجمال ويدافع عن هذا بالاستدلال بأحد مقاطع الاغنية التي تقول :

« ان الاذره التي يأكلها شعبك هي عيون بشريه
والاقداح التي يشرب فيها شعبك هي جماجم بشريه
والبطاطس التي يشويها على النار شعبك
هي جماجم بشريه
ارفضني ما شاء لك هواك »

ولا ادري اذا كان الكاتب قد استشهد بهذا المقطع فقط مع تجاهل الجزء الاول عن عمد ليوحي للقراء بأن الخطاب موجه للمستعمرين ام لا ... فالحقيقة اننا من الممكن ان نتقبل هذا التفكير اذا كان موجها للمستعمرين مثلا ... اما ان يوجه هذا الخطاب الى الجمال كما يقول نص الاغنية الذي حذفه المؤلف فهذا يبدو غريبا جدا بل ان نسبة الجمال الى البيض ثم رفضه باعتباره شيئا خاصا بهم يعد شيئا غريبا بعيدا تمام البعد عن التفكير الذي يدور في افريقيا اليوم وهم يحاولون ان يجعلوا من جمال قارتهم جمال الطبيعة والحياة فيقول الشاعر الزنجي مثلا :

« اينها المرأة العاريه ، المرأة السوداء
التي ترتدي لونها ، لون الحياه
اينها المرأة العاريه ، اينها المرأة الداكنه
يا ثمرة ناضجة من لحم بض ، يا نشوات الخمر السوداء »

ويقول الكاتب انه عني بأن تكون الافكار التحررية ايماءات وتصويرات من الداخل لا مجرد هتاف وصراخ ... ولا ادري اي ايماءات او تصويرات من الداخل او من الخارج ايضا وهو يقدم لي اغنية شعبية من افريقيا الاستوائية ليس لها اي دلالات انسانية ولا تحتوي على اكثر من صور مشوهة بعيدة تمام البعد عن روح هذه القارة ومعدنها الحقيقي .

ويدلي الكاتب بعد ذلك بآراء تحتوي على مغالطات شنيعة فيرد على ملاحظتي الخاصة بتجاهله مشكلة التفرقة العنصرية – مع انني وضعت احتمال ان ظروف الطباعة لم تساعده على تدارك اشياء كثيرة والتمست له بعض العذر – ويسارع الكاتب بنفي وجود هذه التفرقة في القارة الا في جنوب افريقيا فقط ... وانه لمن السخف ان احاول

مناقشة هذه الفكرة في الوقت الذي يمارس فيه الاوروبيون سلطانهم ويعاملون الافريقيين معاملة تعسفية جائرة في اغلب الاجزاء المستعمرة من القارة ، بل ان سياسة التذويب المتبعة يشوبها الكثير من التفرقة لدرجة ان فرنسا التي كانت تدعي ان الجزائر قطعة منها ظلت ترفض المساواة العنصرية بينها وبين الجزائريين حتى انتهت ثورة الشعب البطل باحتضار الاستعمار الفرنسي البغيض . ويخيل الي ان المؤلف سيغير هذا الرأي بمجرد ان يراجع موقفه الذي لا احسبه قد جاء الا نتيجة للتسرع والمغالاة في الدفاع عن بعض الاخطاء التي لا تحتمل المناقشة ... ثم يستغل الكاتب بعد ذلك غلطة مطبعية من عامل المطبعة - سامحه الله - عندما وضع اسم « ريتشارد رايت » بدلا من اسم ريتشارد رايف الذي كتبته فعلا في محاولة للتشكيك فيما كتبته كقوله مثلا « يبدو انه قرأها او قرأ عنها ... » ولقد قرأت هذه القصة في مجموعة الادب الافريقي التي جمعها الكاتب الزنجي الاميركي « لانجستون هيوز » وترجمها « ميشيل نكلا » وصدرت في القاهرة منذ ثلاثة اعوام . اما عن اعتزام الكاتب اصدار هذه القصة في مجموعة اخرى ، فانا لا اقرأ افكاره واحاسيسه عليها وانما احاسبه على ما جاء في كتاب يرفض هو تحمل مسؤوليته ويحاول بشتى الطرق ان يتهرب من اغلب ما قيل فيه ...

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى الحديث عن وضع اللغة الاوروبية بالنسبة للكاتب الزنجي فيهاجم قولي بأن الكاتب يتسلم لغة كاملة بدستورها الذي يجعل من اولوية الابيض على الاسود شيئا مقدسا ويقول ان الكاتب يطوع اللغة لافكاره واحاسيسه ... ويبدو ان المؤلف لم يفهم للاسف ما قلته مؤيدا به رأي « سارتر » بالنسبة الى وضع اللغة الاجنبية عند الكاتب الزنجي ، فلقد قلت ان الاطار العام لجميع اللغات تقريبا قد اصطلح على تعبيرات معينة اصبحت من اللغات نفسها ... فالشر اسود في جميع اللغات بينما الفضيلة بيضاء دائما وتجعل هذه اللغات من المستحيل على الكاتب الزنجي ان يصف الاشياء الجميلة ويستشعرها بلونه الاسود الذي يرى ان جميع اللغات تمتهنه وتضعه رمزا للشر والرذيلة ... فعندما يتحدث الكاتب الزنجي عن الخير مثلا فانه من المستحيل ان يقول عنه انه اسود بالنسبة لامكانيات اللغة التي يتحدث بها فنسمع مثلا شاعر السنغال العظيم ورئيس جمهوريتها « ليوبولد سيدار سنغور » وهو يقول في مقطوعته الشعرية « الى زنوج اميركا » :

« انتم الذين تجلبون ربيع السلام والامل عند نهاية الامل ..
ابتسموا يا اخواني فلياليكم بيضاء كاللبن » ..

فنجد ان الشاعر في هذه المقطوعة يشبه ليالي الزنوج بأنها بيضاء كاللبن وهذا في حدود امكانيات اللغات التي تسلمها بتركيباتها واصطلاحاتها التي اصبحت جزءا لا يتجزأ من اللغة نفسها فيجد الكاتب الزنجي نفسه في حالة من التناقض بين افكاره وبين الامكانيات التعبيرية التي تعطيها اللغة له وهي ترفض ان تجعل من لونه لونا طيبا وتصر على ان تتخذه رمزا للشر والرذيلة الى اخر تلك الرموز التي تضعها قوالب اللغات التقليدية على اللون الاسود ... ولنستمع الى الشاعر الهاييتي وهو يصيح بألم :

« هذا القلب الملحاح الذي لا يتجاوب
مع لغة كلامي ولا مع ثيابي
والذي تنقض عليه بأنيابها ، وكأنها الكلابه ،
مشاعر مستعاره ، وعادات
من اوروبا
فلتحسوا هذا العذاب ،
وهذا اليأس
الذي لا نظير له عند اي انسان اخر
العذاب لانني اغذي بكلمات فرنسا
هذا القلب الذي جاءني من السنغال » .

ويتهمني الكاتب بالتجني عليه بادعائي ان المقدمة احتلت ضعف الصفحات التي احتلتها النماذج كلها ويقول ان الدراسة انتهت عند الصفحة ٧١ ثم بدأت النماذج وانتهت عند صفحة ١١٢ واخيرا انتهى الكتاب بالتعليق الذي كتبه عند صفحة ١٢٠ اي ان الدراسة والتعليق شغلت ٧٩ صفحة من الكتاب نظير ٤١ صفحة احتلتها النماذج اي الضعف تقريبا كما قلت انا ولا ادري اي تجن يتهمني به الكاتب ؟

واخيرا ارجو ان اكون قد اوضحت موقفي من الاراء التي اثارها الكاتب والتي استند فيها على غير اساس ليتعدى العمل الاصلي واطار المناقشة الموضوعية الى التهجم والطعن الشخصي الذي لم اجد له اي مبرر او دافع ... نرجو للمؤلف حظا سعيدا في كتابه القادم عن الادب الافريقي ونحن في الانتظار .

القاهرة **محمد كامل القليوبي**

حول نقد الاستاذ مغنية

بقلم عبد الله القصيمي

صديقي الدكتور سهيل ادريس .. تحيتي وتقديري الدائم .

لا خلاف يا صديقي في ان لبنان هو اول بلد او ثاني بلد عربي يمنح العرب الادباء والمفكرين ، ويقدم لهم الادب والفكر العالميين بالترجمة والنشر والتعريف ..

واستأذنكم ان تسمحوا لي مع الاعتذار والشعور بالحرج والحياء الصادقين الشديدين برواية هذه القصة التي اصبحت شيئا من التاريخ القديم ، والتي ارجو الا تؤخذ اشارتي اليها على ان القصد منها الدعاية او المفاخرة مع ان الدعاية والمفاخرة من الاشياء التي قد يقع فيها كل انسان احيانا وقد يطرب لها ويرحب بها مهما كانت فضائله او استمساكه بفضيلة الحياء والاحتشام المتكلفين .

منذ بضعة عشر عاما اصدرت في القاهرة كتابي « هذي هي الاغلال » . فكيف تلقاه كبار الادباء والمفكرين هناك ؟

لقد كتب عنه المفكر الشهير المرحوم الاستاذ اسماعيل مظهر

افتتاحية مجلة « المقتطف » ، وكان اذ ذاك رئيس تحريرها ، وقال فيما كتب ان هذه هي المرة الاولى في حياة هذه المجلة التي تكتب فيها افتتاحياتها عن اي كتاب يصدر عن الشرق او الغرب ، قال ، ولكن المقتطف يخرق بحماس وايمان تقليده هذا في شأن هذا الكتاب تقديرا له واعترافا غير عادي بقيمته . وقد نشر مقالات عديدة وطويلة في اعداد المجلة المتوالية نضالا عن افكار الكتاب وتأييدا لها وردا على المهاجمين له ..

اما الاستاذ العقاد فقد كتب عنه افتتاحية مجلة « الرسالة » حينما كانت في اوج مجدها وعنفوانها .. اما الاستاذ امين الخولي استاذ الادب العربي في جامعة القاهرة فقد أدار حول الكتاب مناقشة في مدرج الجامعة واتخذت قرارات بعد المناقشة في مساندة الكتاب، وبعثت الى بعض الجهات الرسمية التي كان يضغط عليها لان تفعل شيئا من العقاب او الانتقام ضد الكاتب .. اما فضيلة الشيخ محمود شلتوت الذي اصبح فيما بعد شيخا للازهر رحمه الله ، فقد قال ان الشيء الذي يؤسفه ، ان الازهر وعمره الف عام لم يستطع ان يضع مثل هذا الكتاب ، وكان يتمنى ان يكون شرف تأليفه من نصيب هذه الجامعة الاسلامية الكبرى العريقة . وقد نشرت عنه قوله هذا مجلة « مصر الفتاة » التي كانت لسان الحزب الاشتراكي التقدمي الذي كان يتزعمه الاستاذ احمد حسين المحامي والكاتب الشهير . وقد كانت هذه المجلة في ذلك الحين اقوى ادوات التعبير عن التحرر والاستنكار للمظالم الاجتماعية . وقد كتب الاستاذ احمد حسين نفسه عددا كبيرا من المقالات المطولة دفاعا عن الكتاب وتأييدا له . وحول مجلته الى قلعة دفاع ومناصرة في هذه القضية .. وكذلك فعلت جريدة المصري ، وجريدة الكتلة ، والمقطم ، وغيرها من الصحف القاهرية .

وحين اشتدت حملة المحافظين في مصر وفي المملكة السعودية على الكاتب وكتابه ، تدخل كبار رجالات مصر في القضية .. وقد كتب حينذاك الاستاذ الاكبر شيخ الازهر المرحوم المفكر المصلح الفيلسوف الشيخ مصطفى عبد الرازق الى المرحوم جلالة الملك عبدالعزيز السعود يدافع عن قضايا الكتاب ويشرح له قيمته ويخطىء ثورة الثائرين ضده ويستنكر الاستجابة لهم ، وقد اشار الى هذه القصة الاستاذ امين الخولي في الحفل الذي اقيم تأبينا للاستاذ الاكبر بمناسبة مرور اربعين يوما على وفاته ، وأضاف الاستاذ الخولي ان الشيخ قد تعهد له قبل وفاته بأيام قليلة بأن سوءا ما لن يصل الى الكتاب ولا الى الكاتب ما دام حيا .

وكذلك كتب الى المرحوم الملك عبد العزيز في نفس الموضوع لنفس الغرض المرحوم محمد علي علوبة باشا ، احد كبار الزعماء والمصلحين والمفكرين ، وكتب ايضا الاستاذ احمد حسين واسماعيل مظهر وغيرهما ..

هذه هي الحادثة التاريخية التي رأيت ان اشير اليها مع شيء كثير من محاولة الانتصار على مغالبة واجبات الاستحياء ، ولكن مع شيء كثير ايضا من الاعتزاز بذكرى جميلة مواتية وهبتني كثيرا من المجاملات السخية النبيلة التي تحولت الى تعويض شعرت نحوه بأسعد مشاعر الرضا والثقة .

اما الحادثة او القصة الاخرى ، فقد حدثت هنا في لبنان مركز الاشعاع الاول او الثاني في العالم العربي – حدثت بعد القصة الاولى ببضعة عشر عاما ..



لقد اصدرت منذ حوالي ثلاثة اشهر كتابي الاخير « العالم ليس عقلا » ، وكانت تعيش في نفسي وافكاري عوالم عظيمة وبهيجة من الخيالات والتقديرات عن قيمة الادب والفكر في هذا البلد الجميل النشيط السعيد وعن تقدير الادباء والمفكرين لرسالتهم ، ولما تفرضه من تضحية ونزاهة واخلاص وتحسس لمواطن الجمال والقيم .

وانا لن استطيع طبعا ان احاول تقويم كتابي هذا ، ولن يكون من الذكاء او اللياقة ان اقوم بهذه المحاولة . والاسباب لا تخفى ، وان كان الانسان لا بد ان يفعل احيانا شيئا مما لا يليق . وقد تكون الحياة بلا سخف تكليفا لا يطاق .. ومع هذا فالكتاب قد يكون كتابا تافهـا ، كما قد يكون كتابا عظيما . وقد اعتدنا في مثل هذه المواقف ان نقول ان الايام هي التي سوف تحكم الحكم الصحيح على الشيء ، اما لـه ، واما ضده . ولكن الايام ليست ذكية ولا عادلة دائما . ليست شيئا افضل من الناس ، لانها هي الناس . والاشياء التي تجعل الناس غير اذكياء ولا عادلين دائما كثيرة وموفورة .

ولكن ما الذي حدث ليجعلني اكتب هذه الكلمة ، واضع لهـا هذا العنوان الذي يوحي بالالم والحزن ، او بالاحتجاج المرير ؟

ان معلقا واحدا فقط بين جميع حملة القلم في لبنان ، هـو الذي اثار اهتمامه او احتجاجه ، او غضبه هذا الكتاب فكتب عليه او عنه تعليقا او نقدا او غضبا في العدد الماضي من مجلة «الاداب» . وكان هذا المعلق او الناقد او الغاضب الذي كتب غضبه ، شيخا جليلا فاضلا من رجال الدين الباحثين ، ومن القضاة المحترمين ، وهـو فضيلة الشيخ محمد جواد مغنية شكر الله مسعاه . وكان تعليقـه او نقده او غضبه مركزا على اسم الكتاب فقط ، دون موضوعاتـه وقضاياه ، لم يتناول اي شيء من ابحاث الكتاب ، لا بالتأييـد ولا بالمناقضة . كان جميع اهتمامه انه رأى في كلمة « العالم ليس عقلا » هجوما على العقل وتقبيحا له ، ونهيا عنه ودعوة الى نبذه ، والتخلي عنه والحياة بدونه ، ورأى ايضا في الاسم – في الاسم فقط – اتهاما للبشر بأنهم ليسوا عقلاء وليست لهم عقول يتعاملون بها . وحينئـذ ، فهم اقل من الحيوانات التي اثبت العلم على ما قال الشيخ ان لهـا عقولا ، او انهم على افضل احتمال في مستوى الحيوانات .. ثم اخذ فضيلة الاستاذ يتساءل لماذا يعادي المؤلف العقل وينهى عنه وينكره ... وقد فسر اسباب هذه العداوة والكراهة بعدة احتمالات فكر فيهـا وبحث عنها فوجدها فاطمأن اليها مشكورا ..

واقول هنا بصدق ، لقد منحني شيئا من الغبطة والرضا عـن النفس ، ان يهتم رجل في مستوى الشيخ ومستوى مكانته العلميـة والاجتماعية بكتابي ، ولو بالغضب او التسرع الذي لا ينتظر من امثالـه الفضلاء الذين يملكون من النزاهة ما يجعلهم جديرين بكل ما يؤمل فيهم من خير وعدل ووقار .. ولكن غبطتي ورضاي عن عملي سيكونان اعظـم واكثر حماسا لو ان فضيلة الشيخ الوقور اولى القضية اهتماما اكبر ، ورأى فيها من الجد والموضوعية والمسؤولية العقلية والاخلاقية اكثر مما رأى .. كنت اتمنى على الاقل ان يقرأ اسم الكتاب مرات اخرى .. وان يفكر في احتمالات تفسيره تفكيرا ابعد واطول ، حيث ان الاسم هو فقط موضوع مناقشته ومؤاخذته .. وكذلك كنت اتمنى ان يقدم على شيء من التضحية النبيلة الشاقة ، بأن يلقي نظرات ولو سريعة عـلى بعض صفحات الكتاب او بعض سطوره ... ولو انه تفضل وقبـل هـذه التضحية القاسية المريرة مع ما تحتاج اليه من طاقات وعبقرية ، لعصمه ذكاؤه واحترامه للحقيقة من ان يذهب الى ما ذهب اليه في تفسيره لكلمة « العالم ليس عقلا » .. اني وانا مؤلف الكتاب لاعترف صادقا بان هـذا التفسير الذي اكتشفه الشيخ لم يمر بذهني ، حتى ولا عـلى سبيل الاستنكار والرفض له .

حقا لقد شعرت بصدمة ومرارة حينما وجدت ان جميـع تعليقات الادباء والمفكرين والصحفيين على هذا الكتاب قـد تواضعت وتداخلت واصابها النحول حتى انحصرت وانحشرت في تعليق فضيلة هذا الاستاذ الذي تواضع تعليقه او تعاظم جدا حتى اصبح مناقشة لاسم الكتاب دون نفس الكتاب ، ثم جاءت هذه المناقشة عجلة وغير متانية بحيث ابعـدت كثيرا عن مستويات الاستاذ العقلية والعلمية المعروفة التي لا يشك فيها، بل حتى تحولت الى غضب فقط ، الى غضب من نوع هو اقل كثيرا من حقيقة الاستاذ الممتازة ..

نعم لقد كتب الدكتور صلاح المنجد في جريدة الحياة اليوميـة اللبنانية كلمة ثناء قوية عن الكتاب ، وتعجب ، كما استنكر ، كيف يصدر مثل هذا الكتاب في بلد مثل لبنان ثم لا يقيم ضجة كبرى ، وقال : « انه كتاب قل ان تخرج المطبعة مثله ، ولا شك ان صاحبه في سطوع افكـاره وعمقها وطرافتها ، وفي جرأته التي لا حد لها ، عبقري فذ او مجنون ، ولا شك ايضا في ان الكتاب من اندر واجود ما كتب ولو صدر فـي بلد فيه ازدهار فكري حقا ، لضجت الصحف بتحليله ونقـل الفصول عنه .. »

ولكن الدكتور المنجد كتب ما كتب استطرادا ، لا تخصيصا ..

نعم ، لقد شعرت بالمرارة والصدمة ، وكان العقل يفرض علي الا اشعر هذا الشعور ، ولكن الانسان وا أسفاه لا يخضع دائما لما يقول له العقل. والصدمة في العادة تجيء متكافئة مع الامل العظيم الذي يتحطم علـى غير انتظار .

ولن احاول ان اخفي ان شعوري بالمرارة يتضاعف كلما وضعت فـي ذهني هذه الصورة : بلد متحضر وحي وزاخر النشاط مثـل لبنان ، يصدر فيه مثل هذا الكتاب – وارجو للقارىء ألا يظن اني احاول هنا الثناء على الكتاب – ثم تنحصر كل اهتمامات خالقي الكلمـة به في كلمة سريعة غاضبة يقولها احد رجال الدين ، ثم تكون هذه الكلمة مناقشة لاسم الكتاب فقط ، بدون قراءة او مناقشة الكتاب نفسه ، ثم تجـيء هذه المناقشة بعيدة جدا عن الصواب ، وعما جاء في الكتاب ، وعمـا اراده الكاتب .. انها كالحكم على قلب انسان بأنه مريض من مجـرد قراءة اسمه .. ثم تتخطى الصدمة كل مضاعفاتها حينما تنشر هـذه المناقشة ، او هذا الذي سمي مناقشة ، او هذا المزاح الذي لا يصنـع

سرورا ، في اكبر وافضل مجلة ادبية في العالم العربي كله ، وهي مجلة الآداب ..

اني لارجو صديقي الدكتور سهيل ادريس ان يجمع اطراف هذه الصورة في ذهنه ثم بنظر كيف يكون المشهد امامه وكيف تكون انفعالاته حينئذ ..

هل تسمح لي الجدية بان اشعر بانني محتاج الى نقل فقرات من الكتاب لاثبت اني لا اعادي العقل ولا اكرهه ولا ادعو الى التخلي عنه كما قرر فضيلة الناقد ؟ ارجو ان يغفر لي القارىء فلا يرى في اخذي للموقف باسلوب الجد ، هو اسوأ اساليب الهزل .. مرة اخرى ارجو ان يغفر لي القارىء هذا الجد الهازل ..

لست انكر اني قد حاولت بكتابي ان اقدم كل العقاقير في جرعة واحدة ، وان اعرض جميع الاشياء المزعجة في عرض واحد على قوم لا يطيقون ان يروا اية واحدة منها منفردة — لا يطيقونها مجزأة فكيف بهم اذا جاءتهم مجتمعة ، واني حاولت ان اهدم الهيكل الكبير الذي بناه التاريخ في كل مراحله واطواره ، بكل فتوته وشيخوخته بضربة واحدة .

وقد يكون هذا الاسلوب خطأ اليما في فنون التفكير ، وفي اكتشافات العلوم النفسية والاجتماعية . ولكن عيبي الخطير — واقولها صادقا — اني لا اجيد فن المناورات والمساومات والتجزئة ، وترتيب الخطوة بعد الخطوة ، واني ضعيف جدا امام جاذبية الحقيقة واغرائها ، اي امام ما اراه الحقيقة ، واطمع ان يصدقني القارىء اني لا احاول هنا الثناء على نفسي باسلوب الذم لها ، فهذا اسلوب من الدهاء ليس بعيد الغور ولا عظيم القيمة . مع الاعتراف المتواضع بأني لست خبيرا باساليب الدهاء ولا جريئا عليها . بل اقرر مخلصا ان العجز عن معرفة فنون المناورة — والمساومة ، نقص حقيقي شنيع وليس فضيلة من اي نوع . فالقدرة على الكر والفر والشجاعة والجبن والاقدام والهرب والاظهار والاخفاء على حسب الظروف والتناقضات الخطيرة التي لا توجد حياة ولا مجتمع ولا انسان بدونها — نعم ، القدرة على ذلك مزية حقيقية ..

والسير في طريق مستقيم حيث يجب الالتواء والتعرج ، ليس ذكاء ولا فضيلة . واني بلا اي شعور من مشاعر الفخر فاقد لهذه الفضيلة ، عاجز عن الالتزام لهذا الذكاء .

واستأذن القارىء بالانتقال الى الكتاب لانقل من فصل « صلاة » صفحة ٥٧٥ الفقرات التالية :

« لماذا يموت الناس بعد ان يجربوا الحياة ويحبوها ويصادقوا ابناءهم والاخرين والكون — لماذا يفارقونهم بهذه القسوة البسيطة بلا امل في العودة ؟ ان خلق الانسان لقتله ليفوق كل الجرائم والعبث . لماذا يحزنون ويتعذبون ويمرضون ويشيخون ويسيرون في طريق مغلقة بالموت والاوحال ، وكل طريق في الحياة مسدودة بالموت ؟ ولماذا يعجزون عن الفهم والرؤية والنزاهة ؟ لماذا يحقدون ويتباغضون ويتحاربون ويتشاتمون بالالهة والمذاهب والاديان .. ولماذا يشنون كلهم على الحقيقة والحب والصدق ثم لا يستطيعون ان يحبوا ما يمتدحون ؟ لماذا ينادون جميعا بالمثل والنظريات التي لا حياة لهم الا بالخروج عليها ؟ ولماذا يتلوثون وهم يهتفون بالنظافة ويسجدون للارض وهم يغازلون النجوم ؟ لماذا يموت الصباح وتنتحر الشموع وتكتئب الازهار ؟

« لماذا تكون الدموع والاحزان والاخطاء والحقارات ؟ هل هي عقاب على بعض ما في الحياة احيانا من ابتسام وسرور وذكاء وشجاعة ؟ ان كل ما في الكون من شموس واقمار وازهار ومحيطات لا يساوي دمعة واحدة تنحدر من قلب يعتصره الحزن او الشعور بالحقارة او الظلم او التفاهة او الضياع ..

« لماذا تسخر الالهة العظيمة من الانسان — لماذا تأمره بالعدل والحب والرحمة والذكاء وبكل الاخلاق ، ثم تفعل هي غير ما تقول ، بل ثم تصنعه على غير ما تأمره به ، فلا يعرف هل هي تريد ما تأمره به ام ما تنهاه عنه ، هل الافضل ما تأمر به ام ما تفعله ؟ انه ضائع ضال بين تعاليم الالهة وسلوكها ، بين اراداتها وشرائعها بين قدرتها وشعاراتها . خلقت فيه عقلا ناقدا سائلا ، واحاطته بكل ما يوحي بالتساؤل والنقد ، ثم حرمت عليه ان يسأل او ينقد ، لقد اعطته حتمية التفكير ثم عاقبته عليه ، اعطته السؤال عن كل شيء ولم تعطه الجواب عن شيء . لم تخلقه بلا عقل ولم تقدم اليه ما يعقل ، جعلته عاجزا عن الاقتناع وفرضت عليه الاقتناع ، طالبته بأن يكون اكبر وافضل منها ثم حرمته من القدرة على ان يكون ، بل ثم هددته بالعقاب لو كان ...

« انه حزين للالهة بقدر ما هو حزين للكون وللناس ولنفسه ، انه لا يستطيع الا يحزن ، لانه لا يستطيع الا يحتج ، لانه لا يستطيع الا يرى ويعاني ، لانه لا يستطيع ان يجد ما يتوافق مع منطقه ونظرياته الاخلاقية ومع احترامه للالهة والكون والاخرين ؟ لا يستطيع ان يكون بلا تفكير ، ولا يستطيع ان يعيش وتعيش الاشياء حوله بالتفكير . ان عقله يشترط له ويشترط عليه ، ولكن كل شيء حتى وجوده يرفض هذا الاشتراط ، يلغيه .

« لا تسيئوا فهمه ، لا تنكروا عليه ان ينقد او يتهم او يعارض او يبالغ او يقسو . انه ليس شريرا ولا عنيفا ولا عدوا ولا ملحدا ، ولكنه متألم حزين ، يبذل الحزن والالم بلا تدبير او تخطيط ، كما تبذل الزهرة اريجها او الشمعة نورها . لقد تناهى في حزنه وضعفه حتى بدا عنيفا .. ان كل ما كتبه نوع من الصلاة والبكاء بلغة حزينة صادقة . انه يصلي ولكن باسلوب الانسان المدفون في اعماق نفسه ، انه بتمرده وتحديه ليصلي لله صلاة هي اصدق من صلاة جميع المشرعين ، وانه بقسوته على الانسان ليحترمه ويتعذب له اكثر مما يفعل جميع الشعراء المادحين . انه يصلي لله وللكون وللانسان ، ولكن بلغة هي اقوى من جميع لغات المعابد .. انه باك وليس لاعنا . انه من ضعفه امام حبه ليرثي لكل الاشياء ، حتى ليرثي للالهة ، انه ليرثي للالهة ويخجل لها من نفسها . وهذا قمة الضعف او الحب او الايمان ، بل قمة العذاب.. ليس نقده الا رثاء للعالم ورثاء لنفسه ، بل ليس نقده الا تمزقا ذاتيا . ما اشقى الانسان الذي يرثي للالهة .. ان الرثاء للالهة معناه ان تصطدم عقليا بكل شيء ، وان تحمل ضميرك مسؤولية التعذب والتفكير عن كل اخطاء الكون ومظالمه وعيوبه ..

« ان الانسان هو اعمق الكائنات حزنا ، بل لعله الكائن الوحيد الذي يمارس الحزن كفضيلة اخلاقية وسلوك اجتماعي عام مشروع ، بل كتدين ... ان الانسان وحده ، لانه الحزين وحده ، هو الذي يبكي

وينقد ويتدين .. ان الحزن رقي انساني . ليس في ضروب القسوة والبلادة كلها ما هو اكبر من ان تكون انسانا لا ينقد اي لا يحزن ولا يحب او ينفعل . ان الحزين لا يستحق غضبنا ، بل احترامنا وحبنا ، انه صلاة انسانية ، صلاة للانسانية ، مهما جاء تعبيرا قاسيا .. انه اصفى دموع تتساقط من مآقي الشموس والغيوم احتجاجا على التفاهات والالام التي لا يجد لها تفسيرا في حكمة الارباب او مصلحة الكون .. انه الاحزان الكونية التي لم تجد لها قلبا وعيونا سوى قلبه وعيونه .. انه الاعتذار الاليم عن بلادة نوعه ازاء مأساته ! .. »

عبد الله القصيمي

حول مقال « الهجرة في الشعر العربي »

بقلم محمد كمال

قرأت في العدد الماضي من مجلة « الاداب » الغراء مقالا للاستاذ عبد اللطيف اليونس بعنوان « الهجرة في الشعر العربي » فوجدت انه لا بد لي من هذه الكلمة .

لا شك في ان موضوع الهجرة في الشعر العربي موضوع زاخر المعاني خصب الابعاد لم يعره الباحثون الى الان اهتمامهم البالغ الا ما نجده خلال بعض الدراسات الادبية عن عصر من العصور او شاعر من الشعراء ، فبلاد العرب كانت واسعة الرقعة ممتدة الاطراف ، بقيت حينا من الدهر تحكم من قبل خليفة واحد ، حتى جاءت عصور التجزئة فاستقل كل حاكم ببلده وكل وال بولايته ، الا انها بقيت مع ذلك لا حدود بينها ولا فواصل تمنع المواطن من التجواب والتجوال ، فكانت الهجرة من بلد الى بلد لها اسباب كثيرة وبواعث متعددة .

الا ان هجرة الشاعر امتازت عن هجرة غيره بأسباب لها صلة وثيقة بطبيعة الشاعر ونفسيته ، فالشاعر العربي طموح متوثب لا تحد مطالبه حدود ولا تقف امام نزعاته سدود ، فاذا ما ترك ارضا كان يقطنها الى غيرها وجب على الدارس ان يرصد اثر ذلك في شعره ويتبين مدى التغير الفكري والفني في نتاجه ، فربما نقف امام بيت الشاعر ابي تمام الذي اورده الكاتب والذي يعاتب فيه عياش بن لهيعة :

حول ولم ينتج نداك وانما ... ترقب الحبلى لتسعة اشهر

فنقول كما قال كاتب المقال : « لكن امله لم يتحقق في ارض الكنانة » وذلك عندما ننظر الى ظروف الشاعر المادية في ذلك الوقت ، اما اذا أردنا ان نزيح ستارا اخر عن شعر ابي تمام في مصر وما أفاده من هجرته فاننا نجلو بذلك صورة الشاعر التي بدأت تكتمل معالمها وتتضح الوانها . فالشاعر في مصر – مهاجره الاول – استطاع ان يرد موارد ما كان ليردها لو انه بقي في بلده ، ففي مصر اخذت شخصيته الفنية والفكرية تجد لها طريقا معبدا الى عالم الشهرة والنضج والنبوغ . يقول الدكتور نجيب البهبيتي في كتابه « ابو تمام ، حياته حياة شعره » في معرض الحديث عن حياته في مصر : « كان يتردد على جامع عمرو ، فيسمع من اساتذة اجلاء يطفئون ظمأه الى العلم ويطفىء ظمأهم الى الماء ، نزلها حائكا وقذفت به أشعر شعراء العربية على الاطلاق » ... وهو يتنقل من حلقة الى حلقة ، ويصغي الى شيء من القصص ، والى شيء من التاريخ ، والى شيء من الشعر ، والى شيء من الفقه ، والى شيء من الحديث والى شيء من الفلسفة ، ويخلط هذا بذاك ويحفظ ما استطاع ان يحفظ » ، ثم انه في مصر عدا عن تكون ثقافته الفنية والفكرية قد خبر الحياة بنفسه ولمس تقلباتها ، فأحس بمرارة اليأس وحلاوة الرجاء ، وتعرف الى الناس فازدادت معانيه عمقا وصوره تلونا ، وليس اصدق من الشعر الذي يقوم على الخبرة والتجربة ...

وبعد فانني ما حفلت بأبي تمام هذا الاحتفال لشأن ما ، بل اردت ان اسوقه مثلا يمكن ان ينير الطريق في كشف معاني الهجرة عند الشعراء ، وما كان لي ان اتحدث عن جوانب اخرى في هجرته فقد اكتفيت بشيء من التلميح لعدم اتساع المجال .

اما صاحب المقال فقد اراد ان يتحدث عن اسباب الهجرة فحسب، ثم يسوق أمثلة تاريخية على ذلك ، وقد حصر هذه الاسباب كما هو واضح بالتكسب او الابتعاد عن الاذى ، وهذا حق يعرفه كل من تصفح سيرة الشعراء واخبارهم مع الخلفاء والامراء ، فجاء مقاله سطحيا يغلب عليه طابع السرد القصصي لا البحث العلمي المركز ، فقد انتهى عهد المقالة المسلية و « هاجر » كتابها ، والمقالة بمفهومها الحديث يجب ان تسجل كشفا جديدا يكون منارا لكشوف اخرى ، ولست اعني بذلك ان على كاتب المقالة ان يتقصى الفكرة التي يريد الحديث عنها بكل جزئياتها بل عليه ان يضع امام اعيننا خطوطا لم نقرأها من قبل ، ويقدمها لنا باسلوب مركز يظهر لنا جانبا من الجوانب الخفية محوطا باطار موحد يضم شتات هذه الخطوط ، فقد كنت المح حينما قرأت المقال ان الاستاذ عبد اللطيف يونس يكاد يفلت من يده زمام الموضوع منذ مطلعه حتى اذا وصل الى النهاية أفلت من يده نهائيا ، وذلك حينما اورد ابياتا للامام الشافعي فيها حض على الهجرة وتزيين لها ثم اتبعها بقوله : « مثل هذا الاباء العربي يفيض به الشعر العربي ، وقل ان تقرأ لشاعر مجيد الا وتجد هذا الاباء ينبض في قصائده ويسيل على يراعته » ثم يتابع فيذكر ايضا لكلثوم بن عمرو وحاتم الطائي وابي فراس الحمداني وبدوي الجبل شعرا يدور حول معنى الاباء والفخر مما جعلني انانسى عنوان المقال ، وتجد الكاتب اخيرا يحدثنا عن قصة الشاعر علي بن زريق الشاعر البغدادي الذي ارتحل الى المغرب يمتدح اميرها وعن المداعبة التي جرت بينه وبين ذاك الامير ، وكيف انه قد عثر بعد وفاته على قصيدة كانت تحت وسادته فذكر الكاتب ما يقرب من عشرين بيتا وهي نصف هذه القصيدة الا ان فيها بعض المعاني التي تشير الى السفر والارتحال كقوله :

ما آب من سفر الا وازعجه ... عزم على سفر بالرغم يزمعه

وقال الكاتب في مقدمتها : « وتحت وسادته قصيدة من روائع الشعر العربي ولعلها اروعه وابدعه واحلاه ، وآنقه ديباجة واجمله سياقة وأرقه معنى » فهل المقام مقام حديث عن الروعة والابداع والديباجة والسياقة والرقة ام حديث عن هجرة هذا الشاعر من بغداد الى الاندلس ؟

واستطيع اخيرا ان اقول ان المقال جاء اقرب الى الخواطر والطرب لبعض الشعر الجميل الذي تخلله منه الى الدراسة المنظمة المركزة ، فللهجرة كما قلت آثار فكرية وفنية كان اجدى بصاحب المقال ان يوضحها ويسبر اغوارها من ان يخبرنا ان فلانا وفلانا من الشعراء قد هاجر من هنا الى هناك ..

وبعد فعسى ان يتسع صدر الاستاذ عبد اللطيف اليونس لكلمتي هذه وآمل ان يتاح له وللدارسين وقت كاف لنتبين ابعاد فكرة الهجرة في الشعر العربي بشكل اعمق ..

جامعة دمشق ... محمد كمال

طبعت على مطابع :

دار الفكر للطباعة والنشر

تلفون : ٢٢٢٩٢١

الهروب الى الله

– تتمة المنشور على الصفحة ٣١ –

حاد) : ان القطار السريع القادم من « دانلوف » سيصل بعد حين . فالرجاء مغادرة غرفة الانتظار والذهاب الى افريز المحطة . (ينهضون جميعا ويتدافعون الى الخارج بسرعة . رئيس الشرطة لناظر المحطة) لقد وصلت الان برقيات متتابعة هامة . وقد ثبت ان ليو تولستوي قد هرب وحل قبل نهار الامس عند اخته في دير شمردينو . وهناك دلائل مؤكدة تشير الى انه ينوي مواصلة سفرته من هناك . ورجال البوليس السري يرافقون كل قطار يغادر شمردينو منذ اول امس .

رئيس المحطة : ولكن قل لي ، ايها الابي سيريل غريغوروفتش ، لم كل هذا في الواقع ؟ ان ليو تولستوي ليس من المشعوذين ، بل هو شرفنا ، الكنز الحقيقي لبلادنا ، هذا الرجل العظيم .

رئيس الشرطة : ولكنه يثير الاضطرابات ، انه اخطر من عصابة الثوار كلها . ثم ان الامر لا يهمني انا . فمهمتي هي مراقبة جميع القطارات . ولكن رجال موسكو يريدون ان تحاط مراقبتنا بتكتم شديد. لذا ارجوك يا ايفان ايفانوفتش ان تذهب الى افريز المحطة عوضا مني، فكل واحد سيعرفني من بدلتي الرسمية . وبمجرد وصول القطار سينزل البوليس السري ويحدثك عما لاحظه في اثناء السفرة . وبعدها سانقل الخبر في الحين .

رئيس المحطة : سأهتم بذلك كل الاهتمام .

(يدق الجرس ايذانا باقتراب القطار من مدخل المحطة) .

رئيس الشرطة : يجب ان تحيي رجال البوليس السري بصورة طبيعية كما لو انك تحيي بعض الاصدقاء ، أليس كذلك ؟ ولا يجوز ان يلاحظ المسافرون شيئا من هذه المراقبة ، وانه لمن مصلحتنا ، نحن الاثنين ، ان نقوم بواجبنا كما ينبغي ، فكل خبر ينقل الى بترسبورغ سيبلغ اعلى وظيفة – لعل واحدا منا ينال صليب غيورغ .

(يدخل القطار المحطة من الخلف مدويا . يخرج ناظر المحطة ، مسرعا ، عبر الباب الزجاجي . بعد لحظات يقبل المسافرون الاولون ، فلاحون وفلاحات ، حاملين السلال الثقيلة ، عبر الباب الزجاجي في جلبة وصخب . يجلس البعض منهم في غرفة الانتظار اما للراحة او لعمل الشاي) .

ناظر المحطة : (يدخل فجأة عبر الباب ، ويصيح في الجالسين ثائرا) : غادروا المكان في الحال ! كلكم ! حالا !

الناس : (مندهشين مهمهمين) لماذا اذن ؟.. لقد دفعنا الاجرة... لم لا يجوز لنا الجلوس في غرفة الانتظار ؟.. نحن في انتظار القطار العادي !

ناظر المحطة : (صائحا) أقول لكم في الحال ! اخرجوا كلكم ! (يدفعهم الى الخارج بسرعة ، ثم يتجه ، مسرعا ، نحو الباب ويفتحه على مصراعيه) هنا ، تفضل ! ادخل السيد الكونت !

تولستوي : يدخل في جهد ، يقوده من اليمين دوشان ومن اليسار ابنته ساشا . لقد رفع الفرو فوق اذنيه ولف شالا حول عنقه . ومع ذلك يلاحظ المرء ان الجسم المدثر كله يرتعد ويرتعش من البرد . يتبعه خمسة او ستة اشخاص) .

ناظر المحطة : (للداخلين) ابقوا في الخارج !

أصوات : دعنا ... فما نريد الا مساعدة ليو نيكولايفتش ... ربما شيء من الكونياك او الشاي ...

ناظر المحطة : (في اهتياج) لا يجوز الدخول لاي واحد منكم . (يدفعهم الى الخارج بالقوة ويقفل الباب الزجاجي المؤدي الى افريز المحطة . ولكن المرء يلاحظ ، باستمرار ، وجوه جمع من الفضوليين تمر خلف الباب الزجاجي وتتطلع الى الداخل . يلتقط ناظر المحطة كرسيا بسرعة ويضعه قرب المائدة) . ألا تريد حضرتك ان تجلس للاستراحة قليلا ؟

تولستوي : لست حضرة ... الحمد لله ، لم أعد كذلك ... لقد انتهى ذلك ... انتهى !

(ينظر حوله في ارتباك ، فيلمح الناس خلف الباب الزجاجي) : ابعدوا ... ابعدوا الناس عني ... اود ان اكون وحيدا ... الناس دوما ... اريد ان اكون مرة وحدي ...

ساشا : (تسرع الى الباب الزجاجي وتستره بالمعاطف بسرعة) .

دوشان : (يتكلم في غضون ذلك مع الناظر بصوت منخفض) يجب علينا ان نحمله الى الفراش في الحال ، فقد اعترته في القطار فجأة حمى شديدة ، اكثر من اربعين درجة . اعتقد ان حالته خطرة . فهل يوجد في مكان قريب من هنا فندق ذو غرف مناسبة ؟

ناظر المحطة : لا ، مطلقا . ليس في استابوفو كلها فندق واحد .

دوشان : ولكن لا بد له من فراش ، فأنت ترى كيف يحم . ومن الممكن ان يغدو ذلك خطرا على حياته .

ناظر المحطة : انه لشرف عظيم ، طبعا بالنسبة لي ، ان اقدم غرفتي المجاورة هذه لليو تولستوي ... لكن ارجو المعذرة ... انها متواضعة وبسيطة جدا ... غرفة عملي ، واطئة ، وضيعة ... فكيف اجرؤ على ضيافة ليو تولستوي فيها ؟..

دوشان : لا بأس من ذلك ... يجب علينا اولا ان نحمله الى الفراش بأي ثمن . (لتولستوي الذي يجلس الى المائدة والبرد يقرقفه، وقد اعترته رجفة مباغتة) ان السيد ناظر المحطة قد تلطف بتقديم غرفته لنا . فعليك بالاستراحة الان وغدا ستستعيد نشاطك ، فنواصل سفرنا .

تولستوي : نواصل سفرنا ؟.. لا ، لا ، اعتقد اني لن اواصل سفري ... هذه سفرتي الاخيرة ، فقد بلغت الهدف .

دوشان : (مشجعا) لا تهتم بهذه الحمى ، فلا خطر منها . لقد أصبت بزكام قليل . غدا تستعيد صحتك التامة .

تولستوي : اني الان أتمتع بصحة جيدة ... تماما ، صحتي جيدة ... ان ليلة الامس كانت رهيبة ، فقد خشيت ان يتبعوني من البيت ، أن يدركوني ويعيدوني الى ذلك الجحيم ... عندما قمت من نومي وايقظتكم ، فقد هزني الخوف هزا عنيفا . ولم يتخل عني طوال الطريق ، هذا الخوف ، هذه الحمى ، فكانت اسناني تصطك ... ولكني الان ، منذ ان وصلت الى هنا ... انما اين انا الان في الحقيقة ؟.. لم أر قط هذا المكان ... لقد تغير الان كل شيء دفعة واحدة ... لم أعد اشعر بخوف ... أعتقد انهم لن يدركوني ...

دوشان : أكيد لا ، أكيد لا . تستطيع ان تنام في هدوء وطمأنينة ، فلن يجدك احد هنا .

(يساعد الاثنان تولستوي على الوقوف)

ناظر المحطة : (يقبل عليه) معذرة ... لم يكن في وسعي ان اقدم لك غير هذه الغرفة المتواضعة ... غرفتي الوحيدة ... لعل الفراش غير مريح ايضا ... سرير حديد لا اكثر ... لكني سأحضر كل شيء ، سأرسل في الحين برقية لجلب فراش اخر بالقطار التالي..

تولستوي : كلا ، كلا ، لا اريد شيئا اخر ... مدة طويلة ، كانت حياتي ، مدة طويلة ، احسن من حياة الاخرين ! وكلما كان ذلك رديئا ، كان احسن بالنسبة لي ! فكيف يموت الفلاحون اذن ؟.. مع ذلك فانهم يموتون ميتة طيبة ايضا ...

ساشا : (مستمرة في مساعدتها له) تعال يا أبت ، تعال ، فأنت تعب .

تولستوي : (يتوقف مرة اخرى) لا ادري ... اني تعب ، انت

على صواب ، فالبرد يقرقف اوصالي كلها ، انا تعب جدا ، مع ذلك اتوقع شيئا .. ان حالتي لا يشبه حال من يكون نعسانا ، ولكنه لا يستطيع ان ينام ، لانه يفكر في شيء عظيم مقبل عليه ، ولا يريد ان يحرمه النوم من افكاره ... الغريب اني لم أعش مشاعر اللحظة قط ... قد يكون هذا شيئا من الموت . في السنوات الكثيرة الماضية كنت ، كما تعلمان ، اخاف الموت خوفا جعلني لا استطيع النوم في فراشي ، فكنت اخاف ان اصرخ كحيوان ثم اختفي . والان ، لعله هنا داخل الغرفة ، هو الموت ، ينتظرني . مع ذلك ، سأذهب لمقابلته من غير خوف . (ساشا ودوشان يساعدانه حتى الباب) .

تولستوي : يقف عند الباب وينظر الى الداخل) جميل ، هو هذا المكان ، جميل جدا ، صغير ، ضيق ، واطيء وفقير ... يخيل الي اني قد حلمت بهذا مرة ، فراش اجنبي كهذا ، في مكان ما في بيت اجنبي ، فراش ينام فيه ... رجل عجوز مجهد ... لحظة ، كيف كان يدعى ، هو الرجل العجوز ؟.. ذلك الذي كان مرة ثريا جدا ، ثم يعود فقيرا جدا ، ولا احد يعرفه ، فيتسلل الى فراش قرب الموقد ... آه من رأسي ، رأسي الغبي !.. كيف كان يدعى ، هو الرجل العجوز ؟.. هو الذي كان غنيا ثم لم يبق له سوى قميص يستر جسده ... والمرأة التي أغاظته ، أساءت اليه ، لم تكن عنده حينما يموت ... اجل ، اجل ، لقد عرفت ، عرفت . سميته آنئذ في قصتي كورني فاسليييف ، هو الرجل العجوز . ففي الليلة التي يموت فيها يوقظ الله قلب زوجته ، فتأتي ، هي مارفا ، لتراه مرة اخرى ، ولكنها تصل بعد فوات الاوان ، ويكون هو قد رقد ، في جمود ، فوق الفراش الاجنبي وعيناه مغمضتان ، ولا تدري هي ، هل انه لا يزال حانقا عليها أم قد غفر لها . انها لا تدري ، هي صوفيا اندرييفنا ... (كأنه مستيقظ) لا ، كان اسمها مارفا ... لقد اختلط الامر علي ... نعم ، اريد ان انام . (يقوده ساشا وناظر المحطة . تولستوي لناظر المحطة) اشكرك ، ايها الانسان الغريب ، على ضيافتك لي في بيتك ، على منحك اياي ما يمنح لحيوان في الغابة ... وقد ارسلني ، أنا كورني فاسليييف ، الله اليك ... (فجأة في فزع تام) اقفلوا الباب جيدا ، لا تدعوا احدا يدخل الي ، فلست اريد رؤية الناس بعد ... اريد ان اكون معه وحدي فقط ، أحب أن تكون علاقتي به اعمق من اي وقت مضى في حياتي . (ساشا ودوشان يقودانه الى مكان النوم . يغلق ناظر المحطة الباب خلفهم في حذر ويقف مشدوها) .

(طرق شديد في الباب الزجاجي من الخارج . يفتح ناظر المحطة الباب ، فيدخل رئيس الشرطة مسرعا) .

رئيس الشرطة : ماذا قال لك ؟ يجب ان انقل الاخبار في الحال ، يجب ان انقل كل شيء ! هل يريد بالتالي ان يبقى هنا ، وما هي المدة ؟

ناظر المحطة : لا يعرف هذا لا هو ولا اي واحد آخر . علم ذلك عند الله وحده !

رئيس الشرطة : ولكن كيف جاز لك ان تسكنه في بناية حكومية ؟ انها سكناك ومحل عملك . فلا يجوز لك ان تقدمها لغريب ؟

ناظر المحطة : ان ليو تولستوي ليس غريبا عن قلبي ، ولا أخ اقرب الي منه .

رئيس الشرطة : كان واجبك ان تسأل أولا .

ناظر المحطة : لقد سألت ضميري .

رئيس الشرطة : اذن فانت المسؤول عن ذلك . وسأرسل الخبر في الحين ... يا للفظاعة ! اية مسؤولية تقع على عاتق المرء فجأة . فلو عرف المرء على الاقل موقف الدوائر العليا من ليو تولستوي ...

ناظر المحطة : (بهدوء تام) اعتقد ان المقام الاعلى الحقيقي كان يريد دوما صالح تولستوي ...

رئيس الشرطة : (ينظر اليه في دهشة) .

(يخرج دوشان وساشا من الغرفة ويغلقان الباب في حذر) .

رئيس الشرطة : (يبتعد مسرعا) .

ناظر المحطة : كيف تركت السيد الكونت ؟

دوشان : لقد نام بكل هدوء . لم أر في حياتي قط وجها اهدأ . سيجد هنا اخيرا كل ما حسده عليه الناس : السلام والهدوء والطمأنينة . انه لاول مرة وحده مع الهه .

ناظر المحطة : اعذرني انا الانسان البسيط ، فان قلبي ليرتعد ولا استطيع ان ادرك كيف قدر الله ان يسلط عليه كل هذا العذاب ، بحيث اضطر ليو تولستوي الى الهروب من بيته ليموت هنا على فراشي الفقير الحقير ... كيف استطاع الناس ، ناس روسيا ، ان يزعجوا نفسا كبيرة كهذه ، كيف امكنهم ان يحبوا آخر يهابه ويخشاه ؟

دوشان : ان اولئك الذين يحبون رجلا عظيما يحولون هم انفسهم بينه وبين واجبه ورسالته ، اما اولئك الذين يعدون اقرب الناس اليه ، فان عليه ان يهرب منهم ويبتعد عنهم ما أمكنه الهروب والابتعاد . لقد حدث ما حدث بصورة مناسبة : هذا الموت سيمنح حياته الكمال والقداسة .

ناظر المحطة : رغم ذلك ... فان قلبي لا يستطيع ولا يريد ادراك معنى أن يتعذب هذا الانسان ، كنز أرضنا الروسية ، بسببنا نحن البشر ، بينما نحن انفسنا نعيش ساعاتنا في هناء ... يجب على الواحد منا ان يخجل من نفسه الخاص ...

دوشان : لا تحزن عليه ، أنت ايها الرجل العزيز الطيب ، فلولا ذلك لما كان القدر التعب الوضيع مناسبا لعظمته . فلو لم يتعذب من اجلنا نحن البشر لما أصبح ابدا ليو تولستوي الذي هو للانسانية اليوم .

ترجمها عن الالمانية **ابو العيد دودو**